

أنور الحمدي

التفسير الإسلامي للفكر البشري

الأديولوجيات والفلسفات المعاصرة  
في ضوء الإسلام

===== دراسة جامعة =====

الفلسفة المادية — العلمانية — التفسير المادي للتاريخ  
البرجماتية — الأجناس — النفس والجنس لفرويد  
النسبية — الوجودية — الهيبة — الروحية — البهائية

دار الاعتصام

التفسير الاسلامي للفكر البشري

الأندلسيون في الفلسفة المعاصرة

في ضوء الإسلام

أنور اجندي

دار الاعتصام

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مدخل إلى البحث

انتقل الفكر البشرى مرحلة بعد مرحلة في طريقه الطويل ملتقياً بمفهوم التوحيد ومعارضاً له . وقد كانت الفلسفات الثلاث الكبرى التلودية واليونانية والنفوسية قد سبقت ظهور الإسلام ثم تحركت من جديد في محاولة لإخضاعه واحتوائه على النحو الذى حدث بالنسبة للأديان السماوية السابقة له .

واستطاعت التلودية الصهيونية في العصر الحديث أن تسترهب الفكر الغربى المسيحى وأن تسيطر عليه ، بدأ ذلك منذ وقت بعيد وكشفت عنه مقررات الماسونية وبروتوكولات صهيون . وتحركت الفلسفة الحديثة في طريقها خلال مرحلتين اسلمت أولاهما إلى الأخرى ، أما الأولى فهي الفلسفة المادية أو الوضعية أو دين البشرية الذى وصف بأنه بديل للمسيحية وفيه تحولت الأفكار والتيسارات حينئذ نحو التخلص الكامل من مفهوم الألوهية والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء . ثم جاءت المرحلة الأخيرة يظهر الماركسية والفرويدية والمدرسة الاجتماعية ثم الوجودية ، وكلها مذاهب ودعوات تتحرك خارج نطاق الإيمان بالله تحركاً صريحاً ، وبدأ من خلال هذه الفلسفات طابع التلودية العنيف في استيعاب الفكر الغربى كله ومحاولة استيعاب الفكر البشرى وتدميره ، وكان أن طرحت هذه الفلسفات كلها في محيط الفكر الإسلامى رغبة في تحقيق غاية كبرى هى محاولة استيعاب هذا الفكر ، باعتبار ذلك هو الهدف الأخير للمحاولة التى رسمتها بروتوكولات صهيون من خلال مخطط التلود .

وقد أحسن تصوير هذا المعنى كاتب كبير من كتاب الإسلام حين قال :  
« إن جميع الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر تعمل على تفويض دعائم  
الاعتقاد بوجود إله واحد ، بنقض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح  
ألوهية المادة ، ومنها ألوهية الإنسان ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود  
( والمعروف ) أن الدين الوحيد الذي صفت منه عقيدة الوحدانية من شوائب  
الشرك إنما هو الإسلام . »

والمبادئ والأفكار الحديثة تركز جهدها لهدم العقيدة التي تمثل في نظر  
أصحابها جوهر رسالات السماء ، والإله في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم  
دون غيرهم من الأميين ، وعند النصارى واحد من ثلاثة ، وإذا كانت  
الماركسية في حقيقتها تدميراً لفكرة الألوهية وربط للإنسان ومصيره بمصير  
المادة المحسة وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس منها إرادة الله وخلقه على  
أية حال ، فإن عداها الصريح لم يتوجه في الحقيقة إلا إلى الإسلام باعتباره  
معقل الفكر الديني ، ورمزاً يمسد العلاقة بين الله الواحد والمخلوق ، وهي  
تعد بذلك أخرج حملة وجهها الفكر الحديث إلى معقل الوحدانية وإن بدت  
عاجزة عن تحقيق أهدافها بعد أن شاخت . وهناك محاولة أقل علواً ولكنها  
أشد كثراً هي مجادلة الفلاسفة الوضعيين الذين يهولون من شأن الإسلام  
وحركته التاريخية ، فقد أشبع ( أوجست كونت ) الإسلام مدحاً وتمجيذاً ،  
ولكنه لم يزد على أن عده مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور  
البشرية نحو الدين الجديد والنهائي : «الوضعية» .

## ( ٢ )

ولقد تكشفت بعد الحرب العالمية الثانية حقائق كثيرة وطرحت وثائق  
كثيرة من شأنها أن تلقى الضوء على كثير من الفروض التي كانت سابحة في أفق  
الفكر الإسلامي مما طرحه الغزو الثقافي في محاولته الخطيرة في إخراج العقيدة



الإسلامية من أصولها وقيمتها ، وقد أوضحت هذه الحقائق والوثائق مدى الأخطار التي اختفت وراء كثير من الأبحاث التي كتبها رجال التغريب واتباع المستشرقين والمبشرين وخاصة فيما يتعلق بالاهتمام الوافر بنظريات التحليل النفسي والعنصرية والعالمية والجنس والإباحية وتجديد تراث أبونواس وبتشار وتجديد تراث ابن عربي والحلاج وتحريف بعض مقررات التاريخ عما جاء به القرآن وخاصة فيما يتعلق بأبي الأنبياء إبراهيم ونبي الله إسماعيل . وما يتصل بالاهتمام الوافر بالتيوصوفية والبهائية وتقديم الدراسات الواسعة عن نيتشه وسبلسر وماركس وميكافيلي ودوركايم ودارون وفرويد وسارتر ، ثم ذلك الاهتمام الباذخ بالتراث اليوناني الإغريقي الهليني الذي تفرع له كثير من الكتاب وجرى الحرص البعيد المدى على ترجمة آثاره التي رفض المسلمون ترجمتها في القرن الثالث والرابع الهجري . واتقد صبغت كل الدعوات والمذاهب التي حاولت أن تفرض وجودها على الأمة العربية والعالم الإسلامي بذلك الغرض الدفين الذي تخفيه النصوص [ قد بدت البنضاء في أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ] ومن هذه الحقائق التي تكشف ما كشفه اليهود أنفسهم عن صلتهم بفرويد وماركس ونيتشه ودارون وما عرف عن الصلة بين هرزل وفرويد .

## ( ٢ )

استخدمت مخططات التغريب في سبيل غايتها مؤسسات التعليم والثقافة وكلها تشرف عليها القوى الاستعمارية وتوجهها، فطرحت هذه النظريات والأيدولوجيات في مجال الفكر الإسلامي وحاولت عن طريق رجالها أن تقيم له دائرة ذات نفوذ، وكان منطلقها مناهج التربية والاجتماع والنفس والأخلاق ووسائلها فصل الدين عن الدولة في أنظمة الحكم وتأصيل منهج الربا عن طريق المصارف التي استوعبت المال الإسلامي وإخراج الشريعة وإقامة القانون الوضعي

والتناس مناهج التعليم الغربية التي تفصل بين التعليم والتربية وتعزل العلم عن الأخلاق والمعتقد . ومن حيث كانت سيطرة الغزو الغربي كاملة على مقدرات العالم الإسلامى ، فقد أمكن طرح هذه المفاهيم فى مجال الثقافة عن طريق الصحافة والجامعات وهى ذات شقين ، الشق الأول تفرج النفس الإسلاميه والمقل الإسلامى من مفاهيم الإسلام الأصيلة وشغله بالقشور البسيطة ، وإثارة الشبهات فى نفس الوقت حول التاريخ واللغة والنبي والقيم جميعاً على نحو يمكن الأيدولوجيات والفلسفات الوافدة من السيطرة والتحكم ، وبذلك بدا الفكر الإسلامى بعيداً مهجوراً متجمداً توجه إليه الطغائن وينظر إليه على نحو من الازدراء ، واستولى الفكر الغربى وقيمه المادية الوثنية ، وحاول السيطرة على النفس الإسلاميه والمقل الإسلامى جميعاً .

هذا المخطط وضعه قوى كثيرة ، نجح كلها على أمر واحد هو السيطرة على عالم الإسلام ، وامتلاك مقدراته دون أهله . وقد انطلقت هذه القوى إلى غرض أصيل هو إزالة شخصية العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الإيمية والعالمية واحتواء مفاهيمه وقيمه حتى يصبح تابعاً ، ليس من ناحية مقدراته وثروته فحسب بل من ناحية وجوده وكيانه وشخصيته . وقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية والدولية والصهيونية واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات وخريجيها المسيطرين على الصحافة والثقافة أداة واسعة النفوذ قادرة على أن تطرح أمام الأجيال شبهاتها ومذاهبها ودعواتها . واستطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى بعد أن حطم الاستعمار الحصانة النفسية والروحية التي كانت تحمى النفس الإسلاميه من الغزو حين سيطرت قوى الاستعمار على مناهج التعليم وأفرعتها من مفاهيم الإسلام وباعدت بينها وبين منهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى . ومن ثم اختلطت مفاهيم الإسلام بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الأخرى وخرجت عن طابعها الأصيل ووجودها

الفرد المتمثل في التوحيد القائم على الاطرة الذي لا يتماثل مع فكر أى أمة  
أو ثقافة أو حضارة والمتميز بطابع الأصالة المستمد من وحي السماء ومن رسالة  
النبوّة ومن كلمات الله المنزلة .

### ( ٤ )

واجه الفكر الاسلامى ما يمكن أن يسمى بموجة الفلسفة مرتين :  
المرّة الأولى في القرن الرابع الهجرى عندما ترجم المسلمون الفلسفة اليونانية ،  
ومن ثم تشكل تيار جديد لم يلبث أن اتسع نطاقه فأضاف إليه فلسفات مختلفة  
منها مذاهب الفلسفة الفنوصيه الشرقية المستمدة من المجوسية الفارسية  
ومنها مذاهب زردشت وماني ومزدك وفلسفات البرهمية والكنفوشيوسية  
وغيرها .

وقد علا موج هذا التيار واتصل بالاعتزال والكلام والتصوف ،  
ونشأت عنه مدرسة تابعت الفلسفة اليونانية وحاولت تطويقها للفكر  
الاسلامى ، وإدخال التراث اليونانى في إطار التوحيد ، كانت ترجمة الفلسفة  
في هذه الفترة تجرى بإرادة أهل الفكر الإسلامى ، وكانت تستهدف أساساً  
ترجمة الفلسفات الطبيعية والرياضية ، كقائمة لبناء منهج علمى إسلامى في مجال  
الطب والفلك والصوم . غير أن المترجمين وجلهم من الساطرة لم يلبثوا أن  
توسعوا في نقل الفلسفة الإلهية الوثنية التي كان يطلق عليها ( علم الأصنام )  
ومن ثم بدا الفكر الإسلامى يواجه مفاهيم تختلف أصلاً عن جوهره  
ومضامينه . ومن ثم دارت معركة واسعة امتدت عسراً طويلاً إلى أن استطاع  
الفكر الإسلامى استيعاب هذه المحاولة وامتصاصها وإعادة تشكيل مفاهيمه  
على النحو الذى تحقق له ، التحرر السكامل من نفوذ أى قيم وافدة .

ونجح الفكر الإسلامى في هذه المعركة وخرج منها أصنى ما يكون

بجوهر أوأشد أبدأ وأحق اتصالاً بقيمه الأساسية وأصوله الأصلية ، ومن ثم شكل مفهومه الذى أطلق عليه مذهب أهل السنة والجماعة<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

أما المرة الثانية فقد قامت فى القرن الرابع عشر الهجرى أى فى خلال المائة عام الأخيرة ، وهذه الجولة تختلف اختلافاً كبيراً عن الجولة الأولى من جوانب عديدة ، فقد جاءت فى أعقاب نفوذ الفكر الغربى الذى فرض على العالم الإسلامى والذى سيطر على مدارس الفكر الإسلامى فى مرحلة من مراحل الضعف والتخلف ، وصدر عن مدارس الإرساليات الأجنبية التى نثرها النفوذ الاستعمارى فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، ثم سيطرت مناهجها على المعاهد والجامعات الوطنية التى نشأت فى العواصم العربية والإسلامية ، واستقدم لها عدد من المستشرقين المبشرين الذين قاموا بوضع مناهجها ودراساتها ثم استطاعوا خلق طبقة من الموالين لهم سافروا إلى بلاد الغرب وعادوا يحملون أعلى الدرجات ويتولون العمل طبقاً للبرامج المرسومة ويقومون بأعمال الترجمة والتدريس ، ويتصدرون مراكز الثقافة والصحافة والفكر جميعاً ، ولحق نستثنى من هؤلاء الذين سافروا إلى الغرب ، نماذج كريمة استطاعت أن تكسب بالتحدى قوة جديدة على مقاومة التغريب . ومن هنا بدأت عملية ترجمة الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة العربية الحديثة ، وهى ترجمة تمت فى إطار الولاء والتقبل والتبعية ، ولم تتم فى إطار النقد أو الرشد الفكرى أو الأرضية الإسلامية الصحيحة . نعم ، قامت هذه الخطوة من وراء إرادة الفكر الإسلامى ومشيبته ، وفى وقت ضعفه وتخلفه ، لذلك

---

(١) راجع كتابنا ( القيم الأساسية لفكر الإسلامى ) .

فقد سيطرت قوة التغريب واستطاعت أن تفرض ترجمة فنون من الفلاسفات كان المسلمون العرب في الجزلة الأولى قد رغبوا عنها ووجدوا أنهم ليسوا في حاجة إليها ، ولو كانت إرادة الفكر الإسلامى حرة في هذه الجولة لما قبلت ترجمتها إلا في إطار نقدها والنظر فيها ومعارضتها بأصول الفكر الإسلامى الأصيلة . ثم جاءت ترجمة الفلاسفات الغربية ومذاهبها الحديثة ، وكانت المحاولة هى تلقين المسلمين والعرب هذه الفلاسفات كأنها حقائق مقررة وقوانين عليية ثابتة ، وأصول تحقق صدقها وثباتها ، وليست كذلك الفلسفة في أى عصر أو زمان ، ذلك أن الفلاسفة في حقيقةها ليست إلا فروضا من نتاج عقل بشرى يعيش في تحديات عصره وبيئته ، فهى محدودة بمجتمعها ، ومحدودة بعقلية صاحبها ، ومحدودة بأنها تجارب قد تخطئ . وقد تصح وقد تتجاوزها الأحداث ، وقد تختلف من بيئة إلى بيئة ، ولذلك فإن أغلب هذه الفلاسفات قد تصدعت وأصبحت في حاجة إلى إضافات وتصحيحات ، بل إن بعضها قد فقد قيمته في بيئته الأصلية التى ظهر فيها ، ومن هنا فإن نظرة الفكر الإسلامى والثقافة العربية إلى هذه النظريات يجب أن يكون ناضجاً وبقظاً وراشداً إلى هذه الظروف كلها ، وأن ينظر إليها من خلال فكره الأصيل ، وفي نطاق منهجه الإسلامى المتكامل المرن ، ولذلك فإن طرح هذه النظريات منذ بدء شيلى شبل وغيره في الربع الأخير من القرن التاسع عشر واستمر حتى الآن ، لم يجد قبولا ، وإنما وجد معاودة للنظر ومراجعة للفكرة ، فإن العقل الإسلامى والمزاج والذاتية والطابع الإسلامى ، وهو القائم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لا بد أن يجد الحرج في مواجهة فكر تصوغه طوائف مختلفة ومناهج قائمة على المادية الخالصة ، ولذلك لم تلبث حركة اليقظة الإسلامية أن أخذت تعيد النظر فيها طرحته الموجة الجديدة من مترجمات الفلاسفات الغربية ولتكشف عن

موقفها الصحيح منه ، ولعل هذه الرسالة واحدة من مثل هذه المحاولات الكثيرة ، التي تقوم على أساس الانطلاق من القرآن نفسه ، ومواجهة الفكر البشري الوافد على أسس الاسلام وأصوله الأصلية ، رغبة في دحض الشبهات ودفع الزيف والتخلف من محاولة إخراج الفكر الاسلامي من مقوماته القرآنية .

ويمكن أن توصف هذه المرحلة بمثل ما وصفت به المرحلة السابقة التي واجهت منطق أرسطو والفكر اليوناني والتي استطاعت أن تحقق تحرر الفكر الاسلامي واثباته الاصيل للقرآن وعجز الموجات العاصفة من الفكر الوافد أن تحتويه أن تصهره في بوتقتها . ومن هنا بدأت المحاولات في الكشف عن الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الاسلامي ومفاهيم الفكر الغربي في مختلف المجالات من خلال مفتاح التوحيد .

## ( ٥ )

في خلال الخمسين عاماً الأخيرة تبلور الفكر الغربي أن سيطرت عليه التلمودية اليهودية في مجموعة من النظريات شملت مبادئ :

( أولاً ) مقارنات الأديان .

( ثانياً ) العلم والعلمانية .

( ثالثاً ) فلسفة الاستعمار والتفسير المادي والليبرالي للتاريخ .

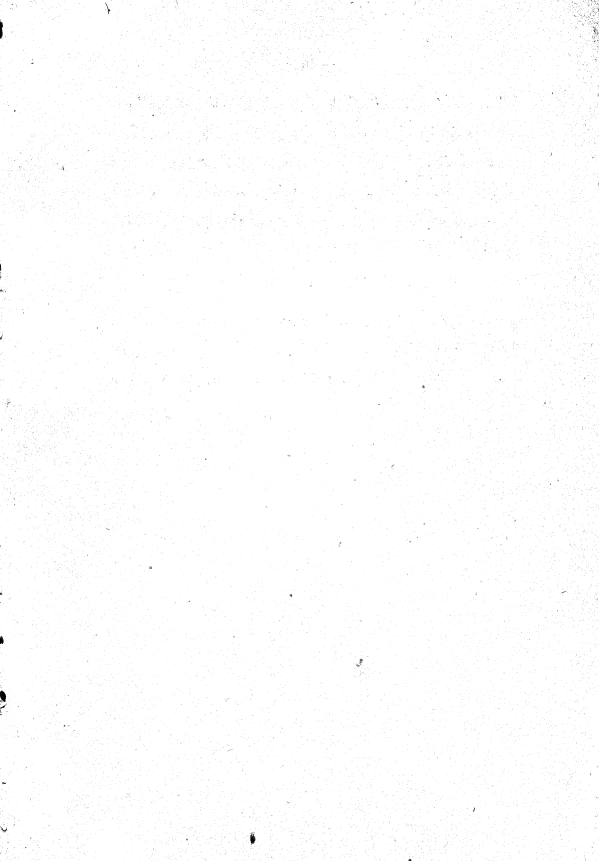
( رابعاً ) فلسفة الأجناس .

( خامساً ) فلسفات النفس والأخلاق والمجتمع .

( سادساً ) فلسفات الحضارة والروحية الحديثة والترية .

ولقد طرحت هذه النظريات في أفق الفكر الاسلامي وترجمت معالماً  
ترجمة التبعية وفرضت فرضاً في مجال الجامعة والصحافة والثقافة دون أن  
يكشف مقدموها عن الصلة التي تجمعها بالفكر الاسلامي أو تفصلها عنه ،  
وكان لابد من أن يقام ميزان جديد : [ هو منهج الفكر المقارن ] للنظر  
من خلال الاسلام إلى هذه المناهج والنظريات ، وقد جرت محاولات كثيرة  
في هذا المجال ، لإلقاء هذا الضوء ، ولكنها كانت محاولات متفرقة لا يجمعها  
رابط ولا تتحرك من خلال منهج أصيل أو إطار واضح .

لذلك كان لابد أن توضع هذه الفلسفات والنظريات في ميزان الاسلام  
وتدرس من جديد في ضوءه ، وهذه محاولة متواضعة في هذا المجال ، أحسب أنها  
خطوة تتلوها خطوات والله من وراء القصد .





# الباب الأول

## الفلسفة المادية

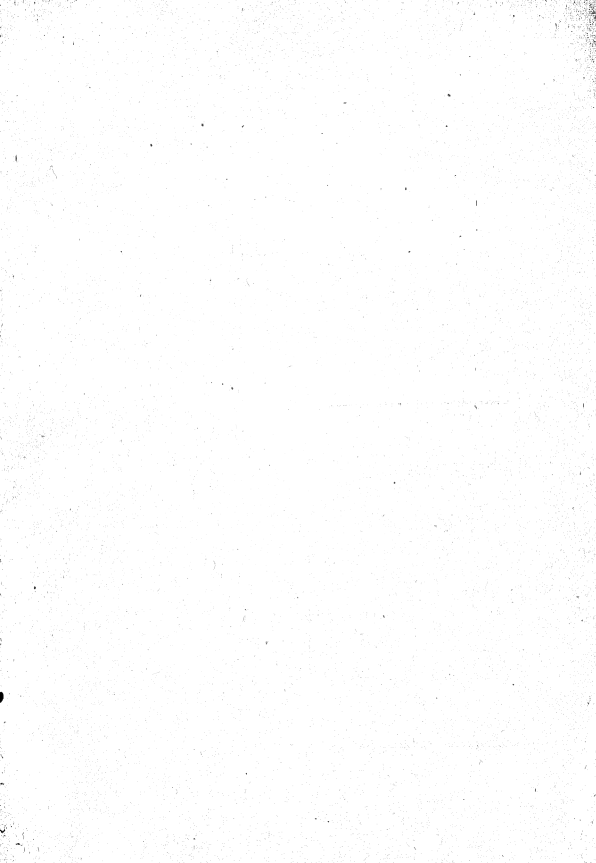
(١) الفلسفة المادية

(٢) العلم والعلمانية

(٣) العلمانية

(لحق) :

ضوء الاسلام على الفلسفة المادية



## الفصل الأول

### الفلسفة المادية

هناك نظرية في تقسيم الفكر البشرى تضعه في ثلاث قوالب مستقلة :

الفكر الشرقى وهو فكر غيبي ( غنوصى ) يقوم على أساس الوجدان والبصيرة والأشراق .

الفكر الغربى وهو فكر مادى ( هليينى ) يقوم على أساس العقل والمحسوس وبينهما الفكر الإسلامى وهو فكر قرآنى : جامع بين العقل والوجدان يربط بينهما برباط التوحيد .

ولقد كان الفكر الغربى منذ وقت بعيد ، منذ أربعة آلاف سنة قبل الاسلام فكراً مادياً غيبياً يقوم على أصول واضحة في الفلسفة اليونانية الهلينية والحضارة الرومانية ثم جاءت المسيحية ففزت أوروبا ولكنها وصلت اليها بمفهوم رجل غربى رومانى هو بولس ، فاختلطت بالفكر الوثنى اليونانى الرومانى فأثمرت طابعا جديداً من الفكر ، اختلف عن الفكر الهليني واليونانى ثم جاء الإسلام فأهدى إلى البشرية مضموناً جديداً للألوهية والكون والحياة والإنسان لم يلبث أن تبلور في فكر وحضارة ، شرقت وغربت حتى وصلت قلب أوروبا فكانت بعيدة الأثر في تحريرها من قيود كثيرة في العقيدة والحياة وفتحت الآفاق أمام فكر جديد وأمام نهضة علمية بعيدة المدى كانت مصدراً للحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة .

غير أن صراعاً قام من جديد أحيا الفكر القديم كله من ركام البابلية والآشورية والمجوسية والهندية الشرقية ومن اليهودية والمسيحية ومن طوابع الاسلام وحملت قيادات فكرية قادرة هذه التيارات كلها فصرتها في فكر جديد لم يلبث أن تشكل من خلال تجديدات العلم الحديث للكنيسة والمسيحية ومن خلال تطلعات اليهودية التلودية فكان ذلك مولداً لما أطلق عليه من بعد: [الفلسفة المادية] .

ولقد اختلط مفهوم المادية بين العلم والفلسفة . فبدأ في أول الأمر وكأنه علم خالص ، غير أن العلم سرعان ما كشف موقفه من قضايا الـكون والغيب كله وأعلن أنه لا يستطيع أن يقتحم هذه المجاهل ، ثم لم يلبث أن اعترف بأن هناك كون وراء المادة وأن هناك بوادر تدل عليه وإن كان العلم غير قادر على أن يخوض فيه .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة أولاً وآخرأ حاملة لواء المادية والداعية اليها في محاولة تمويه ضخمة لتصنع باسم العلم، والمذهب المادى فلسفة لاعلم فيها، وفرق كبير بينهما فالعلم يرود بوسائله بمجاهيل هذا الوجود الضخم ويدون العلاقات الموجودة بين ظواهره منها، ويضم الأشياء إلى نظائرها، ثم يبذل وسعه ليكشف النواميس العامة في كل طائفة منها وهو كما عرف عن نفسه ومهمته «الكشف عن ظواهر الأشياء، وتحليل المواد لمعرفة عناصرها الأولية» أما الفلسفة فهي محاولة عقلية من أجل إدراك حقيقة الوجود ، فقد رفضت الفلسفة الاقرار بميتافيزيقا الكتب السماوية ، وعدلوا عن الوصول إلى الحقيقة عن طريق جهازهم المحدود «العقل» وقد دخلت الفاسفة منذ نشوئها إلى اليوم في أطوار كثيرة فبعد أن كانت تعتمد على العقل وحده، أصبحت اليوم تعتمد عليه وعلى العلم أيضاً .

ومن هذا الطريق وصلت الفلسفة إلى ما وصفت نفسها بالطبيعية ، وهي التي يعتمد عليها المذهب المادى إلى الحكم بأن الوجود مادة محضة ، وأن ما يسمى عقلا وروحاً وعواطف ما هي إلا حالات راقية من المادة .

« ولكن العلم في الحسنيين سنة الأخيرة دخل في طور جديد من التشكيك ودفع أقطابه إلى أن يضموها تقنيناته في الميزان من جديد وتغيرت لهجة بمثاليه فأصبحوا يكثر من قولهم أن الوجود مشحون بالمجاهيل فيما ندعى أننا فرغنا من بحثه » .

## (٢)

اشتبكت المادية في صراع حاد مع العقائد القديمة <sup>(١)</sup> منذ ظهور أول المذاهب الفلسفية التي تدعو لها ، ذلك لأن الأفكار الدينية الوثنية التي كانت سائدة في الشرق القديم وفي العقائد اليونانية المختلفة كانت خليطاً مضطرباً غامضاً غير أن الفلسفة المادية قد غالت في معارضتها للأديان في أمرين خطرين هما وجود الخالق والبعث والموت وأن أدنى مراجعة للفلسفة الماسونية ومفاهيم اليهودية التلمودية ليكشف بوضوح أن بذرة هذا الشك . قد بدأت من الفلسفات الوثنية القديمة ثم تجمعت في بؤرة هذا الفكر مستهدفة القضاء على الأديان وعلى المفاهيم المرتبطة بالفكر الرباني الذي جاء به الأديان المنزلة ، مع إعلاء العقل إلى درجة لم يعرف العلم الحقيقي لها مثل هذه المسكاته ، ومن الحق أن يقال في تبرير الاتجاه العلمى أن مفاهيم الدين في الغرب كانت مما لا يقر أغلبه العقل وأن الدين ومؤسسة الكنيسة قد عارضوا نهضة العلم وحركة الحرية وأن نصوص كثيرة في الكتب المقدسة مما كتبه بعض السكبان قد تعارض مع ما استطاعت العلوم أن تحققه وتقيسه بمقاييسها الحديثة

(١) لائحة : تاريخ المادية .

غير أن هذا كله لم يكن ليدفع الفكر البشرى إلى هذا التجاوز الخطير لجانب ضخم وأساسى من تكوين الإنسان وهو جانب الروح والبصيرة والغيب بكل مقرراته حتى يصل إلى الإنكار الكامل للخالق والمعارضة لحقائقه اليقينية التي جاء بها الوحي

### (٣)

والمادية في الفلسفة نظرية فكرية ترى أن جميع ما في الكون مؤلف من المادة ولا وجود لشيء غير مادي في هذا العالم وتضم الفلسفة المادية مفاهيم عديدة : قديمة وحديثة كلها ترى أن هذا الكون مكون من المادة ،<sup>(١)</sup> وليست النظرية المادية من منتوجات العصر الحديث ولكنها قديمة قدم الفكر البشرى نفسه ، وأن ديمقريطس اليونانى هو أول من قال : بأن لا شيء موجود إلا المادة وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد. والواضح أن مختلف المذاهب الفلسفية الأدبية ، وكذلك الآداب والنظريات التي طرحها أصحابها في علم النفس أو التربية أو الأخلاق إنما استمدوها من هذه النظريات القديمة وخاصة الأساطير . وقد قامت هذه النظريات في مواجهة التحديات التي قام بها الفكر المسيحي الغربي بطرح النظرية الروحية التي تؤمن بوجود الروح بوصفها عنصراً قائماً بذاته في هذا الكون فجاءت النظرية المادية معارضة لها ومن هنا قام الصراع بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية ومن هنا كان إصرار الفلسفة المادية على أن المادة هي الوجود الأصلي للأشياء غير أن الفلسفة المادية لم تقف عند هذا الحد بل كشفت عن موقفها في صراحة حين عارضت الدين جملة وقالت أنه نظام من وضع البشر لأنه لا يتفق مع النظرة المادية أو لأن النظرة المادية إنما كانت منطلقاً لإنكار وجود الله والحياة الأخرى بعد هذه الحياة .

(١) دكتور أحمد حسن عبد الرحيم ( ١ - ١٩٦٩ : الأعلام ) .

( ٤ )

انطلق المذهب المادى من نقطة المعارضة لمفاهيم الدين وعلى عكسها تماماً فقال أن الوجود قديم وإن المادة هى مصدر كل كائن ، وأن لها خصائص ونواميس عاملة لا أثر للتدبير فيها وقال دعاة المادية : أن ما أتت به الأديان من وجود مدبر حكيم وراء هذا العالم فهو من الزخارف الكلامية التى ولدها الخيال وتمسك بها الجاهل وأن الذين يقومون عليها رجال لهم مصالح ذاتية وتقاليد وراثية وقد أعلنت الفلسفة المادية اعتماداً على بعض النظريات العالمية أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية بل تقف عند الجوهر الفرد غير أن العلم لم يلبث أن تخلى عن هذه النظرية بعد أن اكتشف أن الذرة قابلة للتجزئة وبذلك سقطت النظرية المادية نتيجة ذلك سقوطاً بشعاً : لقد تعثر مفهوم المادة القديم وأصبحت المادة طاقة .

لقد أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة وأن ما أسموه الجوهر الفرد ليس إلا فرض، من الفروض التى قدمها العلم فى فترة من فترات البحث .

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : إن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيائية هو إفساح المجال للحرية حتى فى عالم الفيزيكا وهو أول درجة من درجات المسادة، ذلك أن الطاقة التى تنبذ من الذرة عند انفلاقها فتذهب يميناً أو شمالاً لا يمكن تحديد مسارها .

وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نغى من جهة القول بالحنمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى ذهب غلاة المادية إلى القول بأن المادة هى كل شئ. وهى أصل العقل والشعور وليس العقل إلا إفرازات المخ كما تفرز الكبد الصفراء .

وقد أشار العلامة هالدين في كتابه المادية فقال : « لقد ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكاترونات سالبة .

« وطفئت عليها نظرية (الكوانتم) التي تقول أن الكهربائية تتجسم شخائها من المجهول وتذهب إلى المجهول . إن نظرية الكوانتم قد قضت قضاءً مبرماً على النظريات الميكانيكية . ومن هنالم يعد المذهب المادى يستطيع الإجابة على السؤال .

« إن الحقيقة التي ظل الإنسان يبحث عنها دهوراً مديدة : روحانية في جوهرها والروح لا يدركها العقل ، .

\* \* \*

ولا ريب أن القول بإنكار عالم الميتافيزيقا : عالم ما وراء الطبيعة لم يقل به العلم وإنما قال به الفلاسفة الماديون وحدهم ، ذلك لأنه المنطلق الوحيد إلى الغاية التي قامت على نظريات ومذاهب مختلفة منها المادية الجدلية والمادية التاريخية .

(٢)

## نظرية التطور : والتطور الاجتماعي

لم يكن دارون أول من نادى بالتطور فقد سبقه في الغرب (لامارك) ومن قبله بأكثر من ألف سنة قال به كثير من علماء المسلمين : وأسبقهم في ذلك ابن مسكويه الذي قال في كتبه : « إن النبات أسبق في الوجود من الحيوان ، وقسم النباتات إلى ثلاث مراتب . . أولاها ما نجم من الأرض ولم يحفظ نوعه بئذ ، ذلك أنه في أفق الجماد ، والفرق بينهما هدم الحركة الضعيفة في قبول



الحياة وقال ابن مسكويه : بدشوء الحيوان من النبات وإن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم ، وإنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى حتى رتبة أعلى من مراتب البشر كما عرض ابن خلدون تسلسل بعض الأحياء من بعض غير أن دارون حاول أن يقول بتطور الإنسان من نوع سابق له من الكائنات ويستدل على ذلك بأدلة من التشریح المقارن ولم يزعم دارون أن الإنسان قد انحدر من القرود مباشرة ولكن من نوع من الكائنات أبسط منه تركيباً . ثم اجتاز مرحلة تطور فائقة . ويمكن القول أن نظرية دارون قد اكتشفت عدداً من الحقائق العلمية الهامة أهمها أن جميع الكائنات الحية تختلف بعضها عن بعض حتى أفراد النوع الواحد وإن لم يكن ذلك في كل التفاصيل . كما استنتج إردن أن بعض الأفراد والسلالات يتفوق على غيرها بالتنازع على البقاء وهي تلك السلالات والأفراد التي لها من الصفات ما يجعلها أكثر ملائمة لظروف البيئة التي تعيش فيها وهذا ما عبر عنه دارون بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصالح .

• • •

ونظرية دارون في مجال البحث العلمي هي مجموعة من الفرضيات القابلة للخطأ والصواب ، غير أن محاولات جرت لحل النظرية إلى غايات أخرى لخدمة الفلسفة المادية والهدف الذي يقوم من وراءه ، وقد كشفت بروتوكولات صهيون عن هذا الاتجاه في إحدى البروتوكولات بالنص : « إن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين [ ويمكن القول أن ما جاء في مذهب دارون يتنافى صريحاً ما جاء في الكتب المقدسة عن الخليقة وأصل الإنسان ومن هنا كانت معاونة رجال الدين له بينما جاء في الكتب المقدسة لم يكن نصاً سماوياً وإنما كان من اجتهادات البشر . غير أن الخطر بدا منذ أن أخذ هربرت سبنسر هذه النظرية البيولوجية ، وحولها إلى

مفهوم (تطور اجتماعي) ومن هنا نشأ مفهوم مادي خطير يفرض نفوذه على الاجتماع والتاريخ والنفس والأخلاق .

ومن تلاميذ دارون : توماس هكسلي والفرد ولاس وأرنست هيكل ومن الذين أذاعوا النظرية مع شيء من التحوير « فقد باتت النظرية وكأنها أخرجت لرجال السياسة وعلما الاجتماع أكثر مما أخرجت لعلما الأحياء ، وتركزت أثر الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب « وكان مبدأ بقاء الأصلح أثره في الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصري والشعوب المختارة كما صنعت نظرية القوة عند نيتشة ومن ذهب مذهبه من علماء الألمان « ومنها وجدت الاشتراكية سلاحيها في حين وجدت الارستقراطية أيضاً سلاحيها فأعلنوا عن أنهم أنفسهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكو العروض وصانعو التاريخ . « وقد تلفت نظرية التطور معلنو الحرب على الأديان فأفاضوا في الادعاء بهزيمة الدين وانتصار العلم وبأن الإنسان وحده صاحب القداسة والاتصال بالملأ الأعلى وأن الكون قد خلق من أجله ولخدمته « إن هربرت سبنسر هو الذي نقل نظرية التطور من الميدان العلمي إلى الميدان الفلسفي لقد رأى سبنسر أن التطور الاجتماعي تطور حتمي لا شعوري وإنه لا يسير لأغراض معينة بل إنه ينمو نمواً طبيعياً وأن المجتمع وحدة عضوية متجانسة وتقول أحدث الدراسات عن نظرية سبنسر<sup>(١)</sup> إن النظرية التي جاء بها سبنسر سابقة للتجربة . وأن سبنسر اتقى من المصادر ما يدعم نظريته وأغفل قسداً سواها ، وأنه قام بتعميمات سريعة وأنه لم يفرق في تأديته للحوادث والظواهر بين معنى الظاهرة الحقيقي ومعناها المجازي وأنه تعمد أن يقول أن أساس الدين هي عبادة القوى الطبيعية وعبادة الأرواح .

(٣)

## التطور الفلسفي

حاول مصمم نظرية التطور الاجتماعي القول بأن كل شيء يتطور وأنه لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق وإن التطور يجعل كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، وقد كان واضحاً أن صياغة النظرية على هذا النحو هي محاولة من محاولات متعددة لإنكار عنصر الثبات الأصيل القائم في الكون والوجود ، ومعارضة الأديان والحقائق الكبرى والنواميس الأساسية التي يعترف بها العالم وكذلك انتفاض مفاهيم المحافظة والتقديم ووصفها بأنها مفاهيم جامدة وقد كشف العلم عن أخطاء نظرية التطور الفلسفي التي أريد فرضها على المجتمعات والثقافة في معارضتها الأساسية لقوانين التوازن والتكامل بين الجديد والقديم والمحافظة والتجديد وبذلك خرجت نظرية التطور الفلسفي عن مفهوم العلم الذي يقرر أن القديم والجديد عنصران هامين من عناصر الحياة وأنهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة . وأنه لا سبيل لظهور الجديد إلا من القديم كما كشف العلم عن الفارق بين التطور والتطوير . وأن التطور قد يكون تحسناً ورقياً وقد يكون تأخراً وانتكاساً . أما التطوير فهو الذي يعنى التغير التصاعدي الذي يهدف إلى الترقى .

(٤)

أن أخطر ما حاولت نظرية التطور الاجتماعي الوصول إليه لخدمة أهدافها هو القول بأن التطور قانون أخلاقي يفرض نفوذه على القيم الإنسانية ويعرضها لخطر التغير مع الأزمنة المختلفة كان يقال أن لكل عصر أخلاقه وأن ليس للأخلاق مقاييس ثابتة أو أحكام ثابتة ..

وأن علاقة الإنسان بالإله تعتبر من مفاهيم الأخلاق .  
وقد ثبت زيف هذه الفرضية ومخالفاتها للحقائق العلمية الأصلية .

## الفصل الثاني

### العلم والعلمانية

بدأ منطلق العلم الحديث من الخطوط الذي رسمها المنهج العلمي التجريبي الذي شكله المسلمون ثم ساروا به شوطاً وحققوا به نتائج هامة ، في ميادين العلوم الطبيعية والكيميائية ثم انتقل ميدان العلم إلى أوروبا فاتخذ طابعاً مغايراً ؛ كان في العالم الإسلامي يتحرك داخل إطار القيم الإسلامية وأبرزها التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وكان موجهاً إلى الخير والبر والتقدم الجاهل بين الروح والمادة غير أن أوروبا لم تقبل غير مفاهيم العلم وحدها وأغضت عن أطوارها ، وطوا بها الإسلامية ومضت بها شوطاً من خلال إطار يختلف : قوامه مفاهيم المسيحية والكنيسة وقبورها ونصوصها التاريخية والجغرافية المسبقة التي أخذت طابع القداسة ومن ثم أخذت تتعارض مع مقررات العلم . ولقد كان لحظة الكنيسة على العلم أثرها في إندفاع العلم إلى الخروج من نطاقها وقبورها ، ثم كان لمنجزات العلم التي هزت النفس البشرية أثرها البعيد في الاستعلاء بالعلم عن كل ماعداه من قيم ، فلما زادت حملة اضطهاد الكنيسة للعلم كان ذلك دافعا للعلم إلى الخروج نهائياً من ساحة القيم كلها وإقامة نفسه فوق القيم علماً مستقلاً خالصاً لا يخضع بل يخضع سواه . ومن هنا كان ذلك الانفصام بين القيم التي يجمعها الفكر في إطار واحد ، دافعا إلى التزق الذي وصل إليه العلم بعد سنوات طويلة حين نما عقل العالم نمواً كبيراً بينما ظل جسمه ضامراً نحيلاً ، وبدأ صراع عنيف مخيف كان كله على حساب الدين الحق ، وعلى حساب قيم الفكر الديني

الذى سيطر عليه الفكر البشرى وحاربه في عنف . ومن الحق أن يقال أن الحرب كلها كانت موجة إلى مفهوم الدين الذى عرفته أوروبا ، لا إلى مفهوم الدين الحق ، وأن قوى كبرى أرادت تمويه الحرب وتوجيهها إلى الدين كله بحسبانه هو تلك المفاهيم التى كانت تعرفها أوروبا من خلال الكنيسة ، ذلك أن تلك القوى كانت تستهدف ضرب الدين كقوم إنسانى أصيل ، للقضاء عليه وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حوله حتى يتحقق لها الوصول إلى أضخم هدف من أهدافها : إنكار الألوهية والحياة الأخرى .

• • •

وخير ما يصور هذا المعنى ما ذكره الأستاذ أبو الحسن الندوى :

كانت الكنيسة تحارب العلم لأن الجباله سندها الأكبر فى الإحفاظ بسلطانها على الجمهور وماتلقته الكنيسة كان مجموعة من الأساطير لاثبت لضياع العلم ، فقد كانت تحارب الحرية ، لم تقدم المسيحية للنهضة طريقاً ولكن النهضة بدأت بعيداً عن المسيحية والكنيسة .

وبدأت النهضة على أساس غير دينى ( secular ) وارتكزت على محور يعتمد فى دورانه رويداً رويداً عن الدين والعقيدة وما حولها . وعادت إلى منابعها قبل المسيحية إلى التراث اليونانى والرومانى القديم ، وتكررت لاسانئتها الذين علوها العلم فى حاكم التنقيش وطرد المسلمون من الأندلس بعد أن تعلت منهم المنهج التجريبى وعاشت أوروبا قروناً كاملة بشخصية مزدوجة : مسيحية ووثنية .

ومن هنا نشأت تلك المعركة التاريخية التى أطلق عليها الصراع بين الدين والعلم ، وهو صراع استمرز منا ثم خفت حدته عندما عدل العلم موقفه ، وتخفف من غلوانه ، ومن ثم تحولت المعركة إلى صراع بين الدين والفلسفة .

• • •

ذلك أن العلم لم يثبت بعد أن قطع شوطا يتبين له أنه لم يصل إلى ما كان يحاول وخير ما يصور هذا ما ذكره عالم من كبار العلماء حين قال : « كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل يراد به تفسير الوجود » وكان العلماء في أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة ( لماذا ) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها . فلقد ترك العلم للفلسفة منذ عهد بعيد مهمة الإطلاع ببحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز في هذا المضمار ولم يسفر بحثه فيه عن شيء البتة .

والعلم لا يفسر شيئا وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالي يصف ويقرر ، وأن هذا ليس فيها للأشياء ولكن تعرف عليها .

وهمنى هذا أن العلم عجز ، ، وأن الفلسفة مع الأسف لم تستطع أن تحتفظ بالطريق الذى التمسته ففلبتها المادية وسيطرت عليها .

ذلك أن النزعة المادية حين برزت كانت القوى التى تدفعها قوية ، إلى الحد الذى مكنتها من السيطرة ، بينما ضعفت النزعة المثالية والروحية نهائياً وحوّرت وبغض حتى توارت .

وقد بدأت الفلسفة المادية منطلقها من احتقار الإنسان وتهديم القول بأنه سيد الخليقة والتشكيك فى أن الروح هى ميراث الإنسان دون سواء من سائر الخلائق .

## (٢)

يؤكد أميل بوترو فى كتابه العلم والدين : ان النزاع فى القديم لم يكن بين العلم والدين بل بين الفلسفة والدين وأن هذا النزاع قد استمر زمنا طويلا منذ فجر الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد حتى نهاية عصر النهضة . وعنده أن ديانة قدماء اليونان لم يكن إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس التى

يأمرسها المواطنون ، وقد نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما أن استقلت عنه حتى راحت تحاربه وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين ( اليوناني ) يؤمن بالضرورة العمياء فجاءت الفلسفة اليونانية فأمنت بالعقل البشرى وحل العقل المتسامى محل الإله .

وأصبح عند أفلاطون هو ( الصانع ) وعند أرسطو ( المحرك الذي لا يتحرك ) .

وعند الرواقين ( زيوس ) وجاء أفلوطين فنأدى بوحدة الوجود .

ويعضئ أميل بوترو في تصوير قصة الصراع بين الفلسفة والدين فيقول :  
« ولما ظهرت المسيحية اضطرت إلى اصطناع الفلسفة اليونانية لمحاربة الوثنية فقدمت المسيحية من جانبها الإيمان بالوحي السماوى والاحساس بيؤس الانسان وحرمانه ، والإيمان بإله المحبة الذى تجسد مسيحاً لخلاص البشر ، ثم يشير إلى حركة الإصلاح الدينى التى انبثقت من البروتستانتية فيقول : هذه الحرية الدينية شملت كذلك الحرية العلمية التى لجأت إلى المشاهدات والتجارب لا الاعتماد على الأوهام والسحر . وكان ما وضعه جاليلو من أسس العلم التجريبي ارهاصاً لما ظهر بعد ذلك على يد ديكرت ، ومن هنا ظهرت مشكلة الصلة بين العلم والدين فى ثوب جديد ورأى ديكرت فى « العقل ، الرابطة التى تجمع بين الانسان والله ، وبين الله والعالم .

« ثم أخذ العلم يتقدم بسرعة معتمداً على التجربة الموضوعية وحدها ، فشرع يؤمن بمناهجه ويتجاهل الدين ، ثم أشار إلى ما تطورت إليه الصلة بين الفلسفة والدين حين جاء أوجست كونت صاحب المذهب الوصفى وقرر أن اللاهوت والميتافيزيقا وهميان ، ودعا الى سيادة العلم واخصاع الدين تحت جناحه وجاء سبنسر فقال أن الدين يخضع لقانون التطور كأي ظاهرة أخرى .

ودعا هيجل : إلى عبادة الحق والخير والجمال التي تمثل ثالوثاً جديداً محل  
محل المسيحية ، فالحق هو العلم والجمال هو الفن والخير هو المحبة وقال أن الفلسفة  
العلمية تحل محل الأديان ، وعلت أصوات الفكر المسيحي لتواجه هذه الحملات  
الضخمة التي شنتها اليهودية النلودية فدعا رجاله الى تطهيره من العناصر  
الدخيلة عليه . كالفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت والسلطة الكاثوليكية .

وقال وللم هرمان أن الصيغ اللاهوتية في الكتب المقدسة إنما تمثل تجارب  
دينية تخص صاحبها كالقديس بولس مثلاً . ودعت البروتستانتية إلى إلغاء سلطة  
الكنيسة . وحاولت التمييز بين الإيمان والعقيدة .

### (٣)

لم يلبث هجوم الفلسفة على الدين أن توسع وعمق حين سيطر المفكرون  
اليهود :

فقال ماركس أن الدين أفيون الشعوب وأنه مجموعة من الأساطير ابتدعها  
الاقطاعيون الرأسماليون لتخدير الجماهير السكادحة ، وقال فرويد أن الدين ناشئ  
عن الكبت وقال دوركايم : أن الدين ليس فطرة ، وكذلك عمق الهجوم على  
الأخلاق ، فقال ماركس : أن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي  
المتطور على الدوام ، وقال : فرويد : أن الأخلاق تنسم بطابع القسوة حتى في  
صورتها العادية .

وقال دوركايم . الأخلاق شيء لا يمكن الكلام عنه ككيان ثابت وكان  
هذا التطور مصداقاً لما جاء في بروتوكولات صهيون : « أن دارون ليس يهودياً  
ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين . لقد  
رتبنا نجاح ( دارون - ماركس - نيتشه ) بالترويج لآرائهم ، وأن الأثر الهدام



للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد.

(٤)

### الغيبيات

كان انكار الفلسفة لوجود عالم آخر خلف هذا العالم المحسوس هو أكبر الأخطار التى واجهها الصراع بين الفلسفة والدين ، فقد ذهبت الفلسفة الوضعية إلى القول بما أسمته « خرافة الميتافيزيقا » ، فهى تذهب إلى أن جميع قضايا الميتافيزيقا والمطلقات فى المعرفة والأخلاق ، هى أشباه قضايا وخرافات باطلة ، إذ أنها لا تخضع للتحقيق العلمى ولا تقع ضمن نطاق التجربة الحسية ، ولأرب ان فكرة انكار الغيبيات هى قضية فلسفية وليست قضية علمية : فالعلم لا ينكر الغيبيات ولا يبحثها والعلماء بعد تحطيم الذرة آمنوا بأن هناك عالما آخر ، ويقول العلماء أن الحواس ليست هى الحكم الأول والآخر فى قضية الغيب ، وأن هناك محاولات متعددة تعمل على تحطيم الحواجز على عالم المجهول ، وأنه ليس هناك عدم مطلق وراء عالم الشهادة ، وليس معنى عجز الحواس عن استكناه عالم الغيب هو عدم وجوده ، وهناك أمثلة كثيرة على التناقى من عالم الغيب كسماع الأصوات الصادرة من بعيد ، يقول كريسي موريسون : رئيس أكاديمية العلوم ببنو يورك : إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم تثبت وجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة .

\* \* \*

ولأرب أن محاولة الفاسفة فى انكار عالم الغيب إنما يستهدف إلى إقرار مذهب من مذاهب اليهودية التلمودية وهى انكار البعث والجزاء والعالم الآخر وأن الإلحاح على تشكيك الفلسفة للناس فى هذه الحقيقة إنما يهدف إلى دحر مفهوم المسئولية والجزاء .

يقول أحد الباحثين : أن فكرة انكار الميتولوجيا والغيبيات هي وسيلة  
لتحطيم القيم الأخلاقية أساساً ولإلغاء مسئولية الفرد على أعماله في  
المستقبل .

وأن معنى انكار الغيب هو تدمير لرسالة الإنسان ومسئوليته ، وجراهه ،  
ومحاولة لالغاء حقيقة أكيدة هي أن الموت ليس نهاية الإنسان وأن الحياة في  
هذا الكون ليست إلا مرحلة إلى حياة أخرى .

## الفصل الثالث

### العلمانية

لم يشتق مصطلح العلمانية من العلم وإنما اشتق من (معارضة الدين) أو من اللادينية ذلك أن كلمة علماني إنما هي ترجمة لكلمة Secular ومعناها لاديني وهو ينصب أساساً على مبدأ واضح : هو فصل الدين عن الدولة وهو هدف أصيل من أهداف الحركة التي تدافعت بقوة لتعطيم نفوذ الخلافات المسيحية التي قامت على أساس وضع الحواجز بين المجتمع المسيحي والجيوتو اليهودي المعزول بقوة ، وفي عشرات من الأوضاع عن الإرتباط بالمجتمع أو السياسة أو غيرها .

وقد استهدفت الثورة الفرنسية التي قامت أساساً في محافل الماسونية وفق الفلسفة اليهودية التلمودية . دعم حركة دخول اليهود إلى المجتمع الأوربي واعتبرت فصل الدين عن الدولة كأساس لهدم الحواجز التي كانت تحول دون تسلم اليهود مراكز الصدارة في المجتمعات والمحافل السياسية . وعزل مفهوم الدين (بمفهومه المسيحي) عن التربية والتعليم والسياسة وتحطيم السدود الأخلاقية التي تحول دون استشرار الإباحة والإلحاد .

يقول الدكتور محمد رضوان : هذه الفكرة لم تلتأ في أوروبا إلا كرد فعل على الأخطاء التي ارتكبت من رجال الدين باسم الدين كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلاً . فالتاريخ يحدثننا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت

الأكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الأقليات . فمن هنا كان اضطهاد الكاثوليك للبروتستانت ، وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية عامة : بروتستانية وكاثوليكية .

ولكن هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة . غير أن الأمر الذي ساعد أكثر فأكثر على نجاح فكرة العلمانية في أوروبا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر بشكل جعل بعض المفكرين لم يترددوا في نعت الدين عندهم نعتاً محقراً . ( وأشار إلى وصف أوجست كونت وليفى برول الدين بأنه جاء لينظم الشعوب البدائية ) وكذلك فإن فكرة كارل ماركس بأن الدين لغيره الشعوب هذه الفكرة لم تكن لتكون لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة . فالدين برجاله في أوروبا وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات الفلسفية المعاصرة ، وقد فات الباحثون أن أوجست كونت وليفى برول وماركس كانوا جميعاً من فلاسفة الماسونية التي قامت لنقض المجتمعات المسيحية لحساب اليهودية التلمودية .

وأنهم نقسوا مخططات الانقلاب العالمى والمؤامرة التي كشفتها البروتوكولات من بعد ، إلى صعيد العمل الصريح الواضح الذي ظهر أولاً في رجال الموسوعة وفولثير ثم تحقق عملياً في الثورة الفرنسية والثورات الأوربية التي اقتلعت جذور الحكومات المسيحية الأوربية . ومن الحق أن نقول مع الباحثين أن « الذى ساعد على نشوء العلمانية في أوروبا : جاء نتيجة الأخطاء التي ارتكبت باسم الدين فأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم بإغتنام الفرصة لمحاربته والسعى لهدمه » .

ذلك أنه يشي الحق أن المسيحية الغربية والكنيسة عجزت عن التجاوب مع النهضة ولكن القوى القادرة استغلت هذا في سبيل تحقيق أهدافها .

• • •

فمن الحق أن نقول أن حماية الدولة أو لادينية الدولة هي هدف صهيوني أساسي يفسح المجال أمام اليهود حتى لا تقف قوائم الدين أمام نفوذهم وأنبتاتهم في محتاب البيتات .

(٢)

كان مقرب أن يكون هدف العلمانية ، هو فصل الدين عن الدولة ، والتفريق بين المجتمع الكنسي والمجتمع المدني وإعطاء كل منهما استقلاله دون أن تخضع أحدهما للآخر ، غير أن الذي حدث في أوروبا لم يكن كذلك وإنما كان إعطاء الدولة القدوة على إخضاع الدين وضربه ، فإن العلمانية القائمة على أساس على الفلسفة المادية لم يلبث أن فاضت عن المذهب اللاديني الذي جعل غاية محاربة الدين وإقصائه عن مختلف مجالات الحياة العامة وكذلك إقصاء رجاله ، والحد من تأثيرهم بعزله عن المعاهد الثقافية والعلمية ومنع التعليم الديني من المدارس ومصادرة أملاك الكنيسة وسيطرة العلمانية على الحكم والمدرسة وأستطاعت الخلة على ما يسمى بالحكومة الشيورقراطية واستهدفت بالخلعة إبعاد الدين ومقرراته عن تكوين الثقافة أو الفكر السياسي والاجتماعي .

(٣)

هل حققت العلمانية في أوروبا أهدافها وهل استطاعت أن تهزم الدين :

من الحق أن يقال أن التجربة التي استمرت الآن ثلاث قرون لم تستطع أن تحقق هدفها في هدم الدين في المجتمعات الأوروبية أو تخرجها إخراجاً كاملاً

من مضامينه وقيمه ، بالرغم من حملتها الضخمة على الألوهية والأخلاق والبهت .

وأن المجتمعات الأوربية بعد إنسحاب الدين من التوجيه السياسى ثم التوجيه الاجتماعى ما تزال متدنية . أما الأهداف التى دعت العلمانية إليها فإنها قد عجزت عن تحقيقها وأهمها المساواة وإحلال الوطنية والقومية والأيدلوجيات السياسية ، فقد فشلت هذه المذاهب تماماً .

فالعلمانية — كما يقول الدكتور محمد رضوان لم تنجح فى تحقيق غايتها وهى إقامة دولة وتجتمع ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردى ولم تستطع العلمانية أن تحصر الدين فى الفرد فقط ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون فى بلد واحد يشعرون أنهم أخوة فى الوطن بصرف النظر عن كونهم غير أخوة فى الدين ، و العلمانية يشق عليها أن تنجح فى بلد يكون فيه الشعور الدينى يقطأ ، والواضح اليوم أن الشعور الدينى لم ينجح حتى فى البلاد التى تدين بالاحاد رسمياً . . . لقد قامت الدولة العلمانية لكنها فى الواقع لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلمانى إلا بشكل صورى .

أعنى أن هذه الدول لم تنخل من دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه وهنا واضح حالياً فى عدة ميادين ، لذلك نرى أن العلمانية تظهر كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها وتقف مكتوفة الأيدى لإزاء المشكلات التى يعاينها المجتمع الذى ولدت فيه .

#### ( ٤ )

ويرى الدكتور فاضل الجمالى أن هدف العلمانية الأول هو إحتواء القرية والتعليم للسيطرة على إخراج أجيال لا تعرف الدين أو الأخلاق ، يقول : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها فى البلاد التى طبقت فيها بل وقعت فى

تناقضات واضحة ولا سيما في حقل التعليم ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية في العلم ، ولأجل هذا أبعدت الثقافة الديدية عن المدارس العامة في كل من فرنسا والولايات المتحدة ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافة الديدية اضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس ديدية خاصة بدل إرسالهم إلى المدارس العامة .

### ( ٥ )

حاولت الصهيونية العالمية والاستعمار طرح قضية العلمانية في المجتمعات الإسلامية من خلال نفوذ الإحتلال الذي فرض على البلاد العربية والإسلامية أنظمة غريبة كما فرض عليها أن تقبض قوانينه وتشريعاته من القوانين الغربية التي تقوم على أساس فصل الدين عن الدولة أساساً . غير أن البلاد العربية والإسلامية لم تجدد نفسها من خلال هذه الأنظمة وعاشت حياة سياسية واجتماعية وتربوية مضطربة قلقه نتيجة للفصل بين الإسلام والمجتمع ، أسوة بالمجتمعات الغربية التي فصل بينها وبين الدين وكان الخطأ في ذلك هو عدم تقدير الفوارق الدقيقة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى . حيث لا يوجد للإسلام مؤسسة كالكنيسة الغربية ، وليس هناك تاريخ دام في الصراع بين الفرق ، ولا اضطراب في المفاهيم ، ولا صدام بين الدين والعلم بل على العكس من ذلك فقد جاء الإسلام ديناً ومنهج حياة ، وكان مصدر أساسياً للنهج العلمي التجريبي .

ومن هنا فلم توجد ضرورة حقيقية لأن يعتنق الفكر الإسلامي أو المجتمعات الإسلامية مبدأ العلمانية إذ أن العوامل التي كانت سبباً في أوربا لاعتناقهم لم توجد إطلاقاً في المجتمع الإسلامي ولا في الفكر الإسلامي .

وفي العالم الإسلامي لم تقع خلافات ولا معارك دموية ، وكانت روح الإسلام قابلة لتغير الأزمان والبيئات ، وكان منهج الإسلام بطبيعته مرناً جاً

قادراً على التحرك والتجارب مع الأحداث على نحو يكشف عن أنه دين الإنسانية الحق الذي يمثل القطرة الإنسانية في شمولها وتكاملها وفي الاعتراف بنوازها ومطالبها والاستجابة لها ولم يكن الإسلام موضع صراع أو جدل أو خلاف على النحو الذي عرفته أوروبا ولم يشارك الإسلام في الاستبداد وظلم الملوك والأمراء بل على العكس من ذلك كان دائماً ضد الظلم والاستبداد وقد كان الإسلام قادراً على استيعاب كل تقدم علمي وصناعي وفكري وفي نفس الوقت فإن الفكر الإسلامى استمداداً من مصدره القرآنى الأصل لا يستجيب للفصل بين الدين والدولة أو بين الدين والمجتمع ، لا اختلاف طبيعة الإسلام كدين ونظام مجتمع عن المسيحية فى أصلها وهى مجموعة وصايا وبالنسبة لها كتنظيم المجتمعات الرومانية التى كان الدين فيها لله والحكم لقيصر بينما كان الدين والحكم فى الإسلام منذ أول اليوم تشكل فيه المجتمع الإسلامى لله خالصاً هذا فضلاً عن الإسلام لا يقر حرية الإلحاد ولا يقبل أن تكون منفصلة عن التربية الدينية والأخلاق . ومن حق أن يقول الدكتور محمد رضوان أن الدعوة إلى العلمانية فى عالم الإسلام تكشف عن الجهل بحقائق الإسلام وتاريخه الفكري الناصح وقدرته على استيعاب كل تقدم علمي وصناعي وفكري بل وحته اتباعه على إحراز هذا التقدم ، فقد كان الإسلام قادراً بمرورته وقدرته السكامة على إعطاء الحياة المتجددة قوتها ، ولاربيب أن الصهيونية العالمية إنما تريد أن تخرج المجتمعات الإسلامية والعربية من معايير القانون الأخلاقى وذلك بطرح مختلف هذه الدعوات الهدامة التى فشلت فى مجتمعاتها الأساسية ولم تستطع أن تحقق شيئاً ، وأثبتت أن الحكومة العلمانية عاجزة عن تحقيق الوحدة الاجتماعية ، أو مقاومة التحديات المختلفة التى تواجهها . هذا فضلاً عن أن الصلة المحكمة التى تربط الدين بالسياسة والتى هى من خصائص الإسلام وميزاته لا تعطى بالقبول عند كثير من المسلمين الذين تلقوا ثقافتهم عن الغرب والذين نشنوا على أساس الاعتقاد بأن لكل من مسائل الدين والحياة العلمية عالمها الخاص ،



ذلك أن تعاليم الاسلام إنما تعمل أساساً على « تنظيم العلاقة بين الانسان وخالفه ، وفي نفس الوقت بين الانسان والانسان وذلك بوضع نظام محدد للسلوك الاجتماعي والأخلاقي يجب على المسلم اتباعه . »

## (٦)

ومن الشبهات التي اتصلت بالعلانية : شبهة أن الدولة الاسلامية هي دولة ثيوقراطية :

يقول أحد الباحثين : إن الجواب يكون بالنفي القاطع إذا كنا نغنى بالثيوقراطية : ذلك النظام الذي نقله التاريخ عن أوروبا في القرون الوسطى عندما حاولت طبقة رجال الدين أن تتمسك في يدها بأزمة السلطة السياسية العليا ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا وجود في الاسلام للكهانة ولا لطبقة متميزة تدعى رجال الدين ولهذا يستحيل أن يوجد في الاسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان كل مسلم بالغ له الحق المطلق أن يمارس بنفسه شعار الدين فليس هنا شخص أو هيئة اجتماعية تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية أو طبقة كهنوتية اختصت بها من دون الناس . وبجمل القول أن تعبير الثيوقراطية كما يفهمه الغرب لا معنى له على الإطلاق في البيئة الاسلامية . وأن للفكرة الاسلامية نظاماً اجتماعياً متميزاً خالصاً لها وحدها يختلف عن غيره من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب . إن الاسلام أكثر من نظام سياسي : إنه منهاج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية ، إنه نظرية اجتماعية شاملة ودعوة إلى الاستقامة والاعتدال في كل الأمور الشخصية ، إنه ايدولوجية تامة تعتبر كل مظاهر الحياة الأدبية منها والمادية والروحية والعقلية ، الفردية والاجتماعية كلاً لا يتجزأ . ولما كانت ايدولوجية الاسلام تامة مستقلة بذاتها عن سواها فإن معتقديها لا يمكن أن يعيشوا حياة اسلامية صحيحة بمجرد اعتناقهم لمقائد الاسلام .

وبقول الدكتور فاضل الحالى : ان تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الاسلامية وذلك لما جاء في إنجيل متى من أن « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، قد يكون لأنهم من ذلك : أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة ، أما الاسلام فبالاضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد ، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية : وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذخرة واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة ، فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية إلى أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية . ولئن كانت العلمانية لاتلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة فإنها لاتلائم الأمة العربية بصورة خاصة لأن الأمة العربية مذبذبة للإسلام في تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام إلى الانسانية جميعاً ، فالفصل بين الدين والدولة معناها تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها . فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه ، والفصل هذا يحمل من الجسم قشراً فارغاً لالب فيه وما أسهل دخول المبادئ الرافدة على اختلاف أنواعها لتلأل الفراغ في القشر الفارغ .

### (٧)

ولقد استطاعت موجة العلمانية أن تحرف المجتمع الاسلامي وتعيده في الصميم في مجال التعليم وفي مجال الشريعة والقضاء وفي المجتمعات والنظم والحكم .

وقد تشكلت الأجيال المختلفة في معاهد الارشاليات ووفق الأنظمة التي رسمها الاستعمار وكانت النزعة العلمانية أو اللادينية بالأجرى موجهة إلى

الاسلام وحده من دون الاديان الاخرى ، ذلك أن مدارس الارساليات  
والكليات المختلفة التي أنشأتها قد أعادت من شأن مفاهيم الاديان والتاريخ  
الغريب عن الاحلام وأثارت الشبهات حول الاحلام ولغته وقرآنه ورسوله  
هنا فضلنا عن أن مؤسسات كثيرة اجتماعية وسياسية قامت في البلاد العربية  
والعالم الاسلامي تركز على علمانية الدولة . أو تقدم القومية الضيقة القائمة على  
العلمانية ومن كان منها ذا طابع إسلامي أو عربي حاول أن يقصر مفهومه على  
الاسلام الحضاري .

## ملحق

### ضرورة من الاسلام على العلم والفلسفة المادية

لا ريب أن القرآن هو الذي دفع الانسان المسلم إلى اكتناه الآفاق الكونية وهو الذي دعا الانسان إلى السيطرة على الحياة ودفعه إلى الابداع العلمي، ومن ثم اندفع المسلمون الأولون إلى التماس منهج القياس والتجريب، وفكرة القياس لا ريب من أهم الأفكار التي عرفها تاريخ الانسانية كلها، وذلك للنتائج التي حققتها من بعد بإنشاء المنهج العلمي التجريبي . فليس المنطق اليوناني بل هو المنهج التجريبي الذي فتح آفاق العلم . وفكرة القياس وضعت في عصر النبي وفي عصر صحابته وتحت تأثير القرآن نفسه لقياس الأشياء بالنظائر والأمثال بالأمثال ، بل ولقد وضعت أيضاً في العصر القرآني قواعد القياس وشرائط العلوم . يقول الزركشي صاحب البحر المحييط : إن الصحابة تكلموا في زمن النبي في العلل . ويقول ابن خلدون : إن كثيراً من الوقائع لم تندرج في النصوص الثابتة فقاموا بالصحابة بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط من ذلك اللاحق ومن ذلك تصحيح المساواة بين الشبهين أو المثلين ، حتى يغلب على الظن أن حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس ، ويتميز العلم الاسلامي بأنه حي واقعي تجريبي، خال من عنصر الخيال والقصة والتفسير اللاشعوري أو الشعري لأنه مقيد بالملاحظة والتجربة كما أنه يتميز بأنه ناقد، ولا ريب أن الفكر الاسلامي كان ثمرة علمية نقد كبيرة وعملية تصفية للفكر السابق ، وتجديد وبناء استغرق قروناً زاهرة في حياة العقل في الاسلام .

وقد اعتمد العلماء المسلمون على العقل والحدس ، مطالبين أنفسهم وغيرهم  
 بالدليل والبرهان وقد استطاعوا بعد أن يطلعوا على معارف الأمم أن يصححوها  
 ويميزوا بالمعرفة خطوات هائلة ، وكان تجديد العلوم الطبيعية والكونية من  
 طريق شتى تبدأ بدراسة المحسوس لا المجردات الذهنية ، وإدراك فكرة الحكم  
 والمقدار في نظام الطبيعة والاهتمام بمعرفة الحقيقة ووجوه الحكم والإبداع في  
 صنع العالم . وتحديد فهم المعرفة العلمية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة بعد  
 أن غلب على اليونان الاستنباط النظري فصححوا مغايرتاً للقدماء واتسكروا  
 علوماً خاصة بهم . وجاء جابر مؤسس علم الكيمياء بمفاته الحديث ووضع الحدس  
 ابن الهيثم علم الضوء بالمعنى الحديث والتباني مجد علم الفلك ، وقد أقام جابر  
 علم الكيمياء على التجربة التي جعلها وسيلة كشف وتمحيص يسبقها بالاجتهاد  
 قبلها من تصور أو تخليط فكري يقود التجربة (١) .

وفي الإسلام لا يوجد صراع بين الدين والعلم : لا يوجد في الإسلام تلك  
 المشكلة الموجودة عند غير المسلمين وهي مشكلة أن الدين يقابل العلم والفلسفة  
 أو يعارضهما ، فالإسلام مبني على العقل والعلم وكتابه كتاب علم وحكمة ،  
 وإذا كانت هذه المشكلة قد ظهرت بين المسلمين قديماً أو هي تعرض لبعض  
 المفكرين حديثاً فإنها دخيلة ، وآتية من محاولات أخرى ولا ينبغي أن  
 تعرض لمن يعرف الإسلام أصولاً وروحاً ومنهجاً ، ويعرف معنى العلم  
 وحقيقة العقل وطريقته واليقين ومقاييسه . وقد تميز الإسلام عن غيره من  
 الأديان بأنه نهى العقل واعتمد عليه وجعل العلم أساس العقيدة والبرهان شيخ  
 الإيمان ، وقد اعترف العلماء الغربيون بمحدودية العلم وقال بورتوف في كتابه  
 العلم والدين :

(١) ، من بحث الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريف

[ لقد عجز العلم عن حل المشاكل ، وأن العلم مهما تقدم فهو محدود ، وبذلك لا بد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ عن طريق الدين بروحانيته واعتياده على القلب والعاطفة : أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، أن كل منهما مستمد من الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر ] .

ويضع المسلمون العلماء تحفظات أكثر حول دھوى العلم التي تطلق على الفلسفة وعلى كل ما يجرى مجرى التفكير . والحق أن ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمى إليه ، ولا كل ما ينتمى إلى العلم مفروغ من إثباته ، بل كما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيها أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات ، وهناك فرض باطل مسلم به ضمنا وهو أن العلم الحديث مبني على البرهان الحسي فما يقال باسمه لابد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلماء البرهان فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه <sup>(١)</sup> .

• • •

أما نظرية التطور فهي نظرية ناقصة وليكن تكون كاملة لابد أن يدمج معها قانون الثبات الذي هو وعاء لحركة التطور مع تحديد الآفاق والافلاك التي يدور فيها التطور ولا يشعها . ونظرية التطور قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات ولم يقبلها الماديون الذين يرفضون كل ما هو محسوس حتى ولو كان ذلك مجرد الترابط بين المحسوسات .

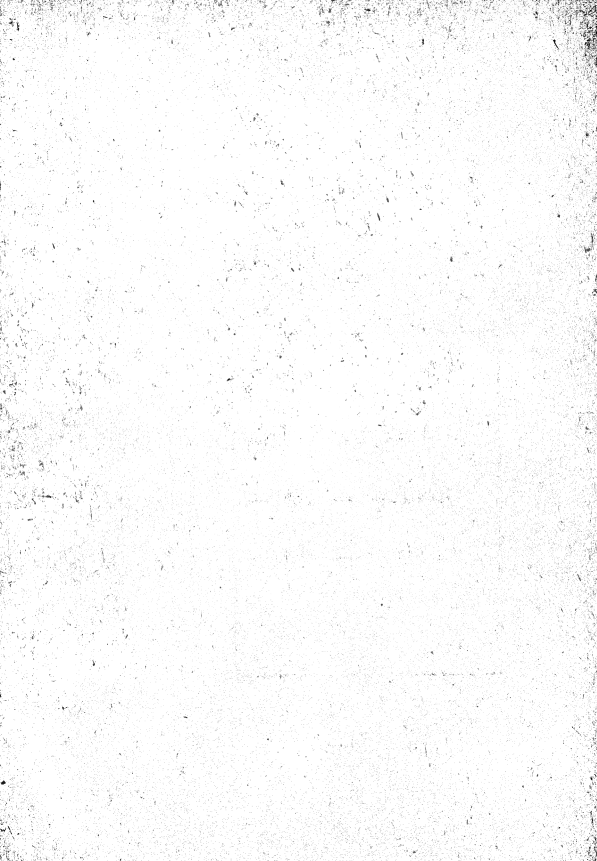
# الباب الثاني

## تفسير التاريخ

الفصل الأول : التفسير المبادئ للتاريخ

الفصل الثاني : التفسير الليبرالي للتاريخ

الفصل الثالث : الفلسفة البرجانية





## الفصل الأول

### التفسير المادى للتاريخ

نشرت الفلاسفة الأوربية بساط المادية فأصبح أساساً لكل النظريات العقائدية والاجتماعية (بما فيها الاقتصاد والأخلاق).

وهكذا أصبحت النظرية المادية أساساً لكل مقبورات الفكر الغربى بشقيه : الليبرالى والماركسى . وإذا كانت النظرية المادية قد أصبحت أساساً للفكر الأوربى ، فإن التفسير المادى للتاريخ أصبح أساساً للفلاسفة الاجتماعيين حتى أطلق عليها اسم المادية التاريخية .

وبذلك يكون المنحنى الخطير الذى اتجه إليه الفكر الغربى خلال هذه التنوير قد حقق هدفه فى تغليب الفكر البشرى بكل مقدراته القديمة وأبعثها من جديد ، وفرضها فرضاً حتى لم يجعل للفكر الإنسانى الأصل الذى قدمته الأديان المنزلة إلا خيطاً رقيقاً أصبح فى كل وقت معرضاً للزوال . ومن هنا يرى توينبى أن الماركسية انحرف فى الحضارة الغربية المسيحية .

وتقوم النظرية على تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادى والاقتصادى ، فالتفسير المادى للتاريخ يقوم على : تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله ، فالقوى المادية والاقتصادية هي العنصر الفعال فى تاريخ البشرية .

وإن عوامل الإنتاج المادى هي أساس التغييرات الاجتماعية والإنسانية

والروحية والفكرية ، وإن الفنون والتشريع وغيرها من مظاهر الحضارة غير المادية هي نتائج ملازمة وصيغ إضافية للمادية التاريخية .

ويرى ماركس أن المادة تفسر كل شيء في الكون وفي المجتمع الإنساني . وإن العامل الحاسم في حركة التاريخ هي علاقات الإنتاج وإنه حين يحدث التناقض بين علاقات الإنتاج يؤدي ذلك إلى الانفجار وإلى تغيير نوعي وجذري في هذه العلاقات ، ولذا فإن التاريخ صراع بين طبقات تريد الاحتفاظ بالعلاقات القديمة وطبقات تريد التغيير ، وإن التاريخ لهذا صراع طبقات .

وتقول المادية التاريخية : إن التاريخ من صنع البشر ، وإن أفكار البشر انعكاسات للظروف الاقتصادية . وإن الحالة الاقتصادية التي تعيش فيها الأمة هي مصدر الانقلابات والحروب وتطور الأخلاق والجماعات .

وقد وجد ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً حثيفاً بين الطبقات الاقتصادية ، وإن جميع أنواع الصراخ في التاريخ سواء في ميدان السياسة أو ميدان الدين والفلسفة والإجماع ما هي إلا تعبير عن الصراع الطبيعي في المجتمع ، وهدف التاريخ عنده هو الوصول بالبشر إلى مجتمع لا طبقي ، وقال ماركس إن الشعور الإنساني تتحكم فيه الظروف الاجتماعية ، واعتبر تطور الإنتاج المادي هو القوة المحركة للتاريخ البشري ، وعند ماركس إن المادية هي الأساس والفكر ظل لها . وبالجمله فإن ماركس يرى كل ما يقع في التاريخ مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية وما دامت الأسباب الاقتصادية دون غيرها هي التي تملي على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصارم .

( ٢ )

ومن منطلق التفسير المادي للتاريخ يتشكل مفهوم الفلسفة الماركسية :-

- ليس للكون خالق بل الكون مادة .
- الأديان تخدر للعقول يجب التحرر منه وإفقاذاً للإنسانية من شره .
- الدعامة الأساسية هي إنكار الله والبحث .
- المادية هي التي أنشأت الحضارة الصناعية الحديثة .
- الطوايح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية طوايح مادية .
- الفرد وسيلة وليس غاية ، وهو ذرة تفتى في جسم الدولة .
- إلغاء حق الملكية الفردية وحق التوريث وحق ثمار الكسب .

ومن هذه الحيلوط العامة تبين مدى التعارض الكبير بين مفهوم الفكر الغربي المسيحي وبين مفهوم الفكر اليهودي التلودي الواضح الأثر في نظرية التفسير المادى للتاريخ الكاشف لكل ما تضمنته مفاهيم التلود وفلسفة الماسونية .

وقد تطور وتشكل في صورة نظرية كاملة معارضة تمام المعارضة لمنهج الفكر الغربي المسيحي الذى شكلته مفاهيم الرأسمالية والحرية ، فهى لم تقم على معارضة النظام الاقتصادى والاجتماعى الغربى ، وإنما هاجمت الأساس الاصيل للفكر الإنسانى كله المستمد من الأديان ورسالات السماء ، وذلك بمعارضة الدين وإنكار الخالق ، وإنكار البحث . وكان واضحاً في صياغة النظرية الماركسية أن تكون بمثابة منهج كامل وعقيدة شاملة أو بديل للدين والشرائع ، وكان واضحاً ذلك التحدى الخطير الذى كانت هى بمثابة رد فعل له وهو المسيحية والكنيسة . وقد اعترف الفيلسوف هكسلى بهذه الحقيقة حين قال في كتابه « دين بغير وحي » .

كانت الماركسية أكثر تسليفاً وملاءمة ولكن أساسها المادى المحض حد من فاعليتها فقد حاولت أن تسكن حقيقة القيم الروحية ، وهذه القيم موجودة وقائمة ، لذا كان على الماركسية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الأيدولوجى فأقبلت في غيظ وحق تفتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية . ولم تكن الفلسفة الماركسية جديدة أو مبتكرة ولكنها كانت واضحة الأصول في الفكر اليونانى القديم عامة وفى جمهورية أفلاطون خاصة وكانت هسارة الفكر الوثنى المادى القديم . ومن الحق أن يقال إن النظرية الماركسية هى رد فعل النظرية الرأسمالية التى هزتها أوروبا وبلغت غايتها فى السيطرة السياسية والاقتصادية وغلبة الاحتكارات واستهدفت القضاء على هذا النظام وتدميره باعتباره ثمرة من ثمار الفكر المسيحى الغربى ومرتبطة أشد الارتباط بالكنيسة الكاثوليكية ونفوذها فى مجال الإقطاع . غير أن الفلسفة الماركسية لم تنحصر على الاقتصاد وحده ولكنها حاولت هدم المجتمع الغربى وفكره من الأساس ونقله إلى مجال النظرية المادية ، وذلك حين جمعت من المادة أساس الكون والحياة .

ولذلك فهى لم تسكن فى الحقيقة عملية تطور طبيعى فى الفكر الغربى فى مواجهة الرأسمالية وحدها ، ولكنها كانت محاولة لاقتلاع الجذور الفكرية المسيحية التى قامت عليها الحضارة والفكر والرأسمالية . وهى واحدة من أيدولوجيات كثيرة حاول المجتمع الغربى التماسها منهجاً للحياة والمجتمع بعد أن أعلن رفضه للنهج الغربى المسيحى الذى قامت عليه الكنيسة الكاثوليكية والنقوذ البابوى .

### ( ٣ )

يقول كثير من المفكرين أن الماركسية هى بمثابة تحول فى داخل دائرة الفكر الغربى وليس خارجة عليه ، ذلك أن ماركس فى منطلق نظريته يؤمن

بالحضارة الغربية بكل قيمها وتاريخها ، ويختز هذا التاريخ ويعتبه  
تقدماً للبشرية في طريقها نحو النصر الأكبر ، ويسمى جرائم هذه  
الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها إلى فلسفتها بقدر ما يرجعها إلى  
الضرورات الاقتصادية ، وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ  
هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها من التناقض من العمل الجماعي  
والمليكة الفردية .

#### (٤)

إذا كانت النظريات المادية تعارض مفهوم الدين جملة فإن النظرية الماركسية  
تواجه بأعنف جملة من حملات المعارضة والخصومة .

فالدين في مفهوم الماركسية ليس إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ،  
وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ، وترى الماركسية أن الدين مظهر  
لعمى الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الإقطاعية وأنه يوم يجد الإنسان  
الطمأنينة على رزقه وحياته سيختفي الدين .

ولا تدعو الماركسية إلى اضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول  
بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأساس المادية والمعنوية لوجوده . وإذا  
كانت النظريات اليهودية التلودية التي طرحها على الفكر الغربي قد تعددت :  
من نظرية قومية عنصرية تقوم على أساس فوارق الدم والجنس أو مادية  
عالية تنسك الأديان والعقائد فإن نظرية ماركس تعارض الأساسين القديمين :  
الدين والعنصر .

وتقوم على أساس الطبقات وتدعو عمال العالم إلى القضاء قضاءً مبرماً على  
المولدين وأصحاب رؤوس الأموال ، حتى لقد عد كتابه ( رأس المال ) ككورة  
( ٤ م - للايديولوجيات والفلسفة ) .

للطبقات العاملة - فقد دعا مختلف الطبقات في جميع بقاع المعمورة إلى التلاحن والاعتقال .

ويرى المؤرخ توينبي وهو من كبار المدافعين عن وجهة النظر المسيحية في الحضارة الغربية أن : للماركسية أيولوجية تبشيرية قبل المسيحية والإسلام تهدف إلى تحويل البشرية بأجمعها نحو مبدأها ، لذلك فهي لا تتحدى المذنيات الغربية لحسب بل كل المذنيات الحية في العالم ، هذا التحدى سوف يحملنا على رد فعل عاجل ، فلسوف نجبر جميعاً على إعادة النظر في أساس معتقداتنا الموروثة ومحاولة إستخلاص جوهر هذه المعتقدات . ويقول : يرفض الغرب النظرية التي تقول بأن الأفراد يجب ألا يقدموا على البشرية كجموعة ويتحمس الغرب لقداسة الشخصية الإنسانية (الفردية) . ويقول : فالمسيحيون يعتقدون أن للشخص حقاً لا يصح التنازل للمجموع ، وأن للنفس الإنسانية الفردية قيمتها العليا أمام الله .

### (٥)

وضع ماركس معنى كاملاً للحياة والتاريخ من طريق التفسير المادى للتاريخ ، يقوم على أساس إعلاء الاقتصاد واعتبار القوى المادية هي صاحبة الأثر الأكبر في تشكيل الأحداث والإنتاج هو أسس النظام الاجتماعى وأن تاريخ البشرية كله هو التاريخ المادى وأن المواقف الاجتماعية والسياسية والمعنوية هي انعكاس لأسلوب الإنتاج ويقوم هذا المفهوم كله على أساس أن الإنسان حيوان وأن مطالبه ليست سوى المأكل والسكن والإشباع الجلى ، ومن هذا المنطلق المادى الإقتصادى البحث تصل الماركسية إلى القول بأن الرسائل السبائية هي من أكبر أوهام البشرية ، وأن حقيقة العالم تنبصر في ماديته وبذلك تنسك وجود الله والوحى والرسالات وترى أن الدين هو افئدون الشعوب ويترتب على هذا القول بأن القيم الأخلاقية مجرد

إنعكاس للوضع الاقتصادي، وأن وجودها ليس أصيلاً في الحياة البشرية فضلاً عن أنها غير ثابتة (ومن هذا المنطلق يبدأ فرويد ودوركايم مرحلة أخرى من مراحل تطور الفكر المادي).

• • •

والنظرية في ذاتها مجافية لطابع الحياة والإنسان الجامعة بين الماديات والروحيات وبين المعنويات والقيم، فقيام نظرية على اغفال هذه الجوانب من تفسير الحياة والتاريخ تبدو غريبة غريبة شديدة عن الفطرة. ولذلك يبدو في ثنائها الغرض والمهدف الرامي إلى هدم الدين والأخلاق.

وفيها إغضاء كامل عن العوامل المختلفة التي تدفع الناس إلى السعي في الحياة. وهي تعني معارضة الفكر المسيحي الأوربي والديني معارضة كاملة. «وماركس يرفض الفكرة الأنسانية في الدين وهو الإيمان بالله الموجود الأزلي المستقل تماماً والمتجرد تماماً من المادة وكحقيقة واضحة، وهو يرفض القيم الأزلية والإنسانية العليا ويقصر نظره عند الجانب الاقتصادي وحده من بين أحداث الحياة وعوامل التأثير فيها».

وأخطر من هذا كله ما تحاول الماركسية أن تصل إليه من القول بتبعية العقل في وجوده لوجود المادة، وينتهي هذا إلى القول بأن وجود العقل غير مستقل عن المادة يعني أن الله (تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) غير موجود في نظرها وفي تبعية العقل للمادة «يحل الجبر محل الاختيار في توجيه الفرد، ويصبح الفرد مجبوراً لا اختيار له، مجبوراً بينته وورائته وبحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الخصوص»<sup>(١)</sup>.

(١) راجعنا في هذا: الإنسان بين المادية والروحانية (و) خصائص التطور الاسلامي.

وتمتصفاً للماركسية الدين بأنه مخدر لأنه يدعو إلى تأليه غير المحدود في الوجود ويحى يقف عند المحدود الذى هو الحس، وأن الدين يدعو إلى تقدس حلة عامة للوجود وراء الحس والشاهد، وهى تنكر ما عدا الحس والشاهد، وأن الدين يدعو إلى القيم الأخلاقية والمثل العليا الثابتة وهى لا ترى ثباتاً لشيء على الإطلاق، كما لا ترى قيماً ولا مثلاً فيما عدا ما يوحى به الحس ويقدمه للإنسان من متع حسية وما يسد به حاجة بدنه فقط. «وتصف الدين عامة بأنه مخدر لأنه يقف في طرف مقابل مما تؤمن هى به وتصف المسيحية الكاثوليكية على الخصوص بأنها سلطة تعوق الانتقال أو التقدم في سير العالم وتعيب ثبات القيم الأخلاقية والاعتبار العام للمقاييس الأخلاقية».

• • •

ومن هذا كله نرى كيف تشكل النظرية الماركسية حلقة أكثر إغفالاً في المادى وتطوراً بالفكر الغربى خاصة وبالفكر البشرى عامة لإخراجه من القيم الإنسانية التى قدمتها رسالات السماء والأديان ودفع العقل، والنفوس الإنسانية إلى الانحدار نحو المادية الخالصة بكل مقوماتها من وثنية وإباحية وفساد في التصور والسلوك. فهى تدعو إلى: إنكار الفرد وقيمه كفرده وإعلاء شأن الجماعة، إنكار الملكية الفردية، إنكار الأسرة وحقها في العلاقة الزوجية إنكار القيم العقائدية، وتدعو إلى تبعية الفكر للعامل المادى الاقتصادى، وإنكار الله والدين والقيم والجزاء وهى منطلق لدعوة فرويد ودوركايم وسارتر فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى فهى ترسم له الطريق للحرك في اطلال المستوى المادى و«مفارقة علاقات الأفراد على أساس مادى، وبناء العلاقات الأسرية، ليس على علاقة الدم والرحم، وإنما على أساس التبادل في التعبير للمادى».

(٦)

ومن أخطر مقررات النظرية الماركسية القول بأن الأحداث الاجتماعية



لا تقوم على أساس عمل الأبطال والزعماء والمفكرين بل عن طريق القوى  
المادية وحدها ، وأن هذه القوى هي الاقتصاد .

وبذلك تنسكب الماركسية الزعامات والبعاولات وأثرها في التفسير التاريخي  
فالماركسية كما تنسكب أثر الأديان والقيم ، في أحداث التغيير من خلال حركة التاريخ ،  
وكذلك كل ما هو غير مادي من مشاعر وعواطف ، ومن مقومات كالحق  
والعدل ، أو من تقاليد وأخلاق ، كذلك تنسكب أثر الأنبياء والأبطال والقادة  
الذين غيروا مجرى التاريخ وأثروا في المجتمعات على مدى العصور وبذلك تبدوا  
صورة التفسير الماركسي للتاريخ والحياة قائمة مظلة قائمة على عنصر واحد من عدة  
عناصر لها أثرها الواضح . ويتكشف من وراء ذلك معارضتها العميقة وتمصها  
الواضح المخلف بالطابع العلمي البراق للعقائد والأديان وخاصة بقايا المفهوم  
السمائي الزباني في المسيحية الغربية ، ولقد استطاعت القوى الخارقة التي تحمل  
هذه الدعوات وتمحركاتها في المجمع المختلفة ، وبين الصحف والكتب  
والجامعات أن تفرض هذا المفهوم على الفكر الغربي كله ( بشقيه ) فقد أخذ  
بالنظرية المادية أساساً ثم أخذ بالنسب المادي للتاريخ ، وقبل تفسير الحياة كلها  
من حيث الاقتصاد والمادة وإغفال القيم وأثرها في الحياة . وبذلك ينحرف  
الفكر البشري مرة أخرى عن الفطرة والطبيعة الإنسانية وتعود به النظرية  
الماركسية بالإنسانية إلى الرق ، وبالفكر والإيمان إلى الجبر وبالإنسان إلى الوثنية  
وبالقيم والأخلاق إلى الانطلاق في الحيوانية واعتبار الطعام والجنس هو الهدف  
الأساسي في حياة الإنسان .

(٥)

## الفصل الثاني

### التفسير اللبرالى للتاريخ

(الفلسفة السياسية)

تحوّلت الفلسفة السياسية فى الفكر الغربى من الثيوقراطية ( حكومة البابوات إلى الميكافيلية تحت تأثير التطور الذى أحدثته النظرية المادية والصراع بين الفكر المسيحى الغربى والفكر التلبودى الزاحف .

وقد جاء كتاب الأمير الذى كتبه ميكافيل عام ١٥١٣ بمثابة أفق جديد للتحوّل الخطير الذى خرج به الفكر الغربى للمسيحى إلى آفاق المادية الخالصة وتدمير مختلف القيم الأخلاقية السياسية . بل أن ميكافيل نفسه لم يكن يتصور أن كتابه بعد أربعة قرون سيصبح أنجيلاً لنوع جديد من الحكم ، يحاول أن يفرض مبادئه على العالم<sup>(١)</sup> .

فقد رسم ميكافيل صورة الأمير الذى يأخذ طريقه إلى السلطان والملك بوسائل العنف والخيانة والفساد ، من خلال مبادئ عنيفة لا ضمير لها ولا وازع ، تتعارض مع كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، وتقوم على أساس الغدر السياسى والاجتماعى .

فالأمير عند ميكافيل ، ليس عليه أن يحفظ المبدأ إذا كان مثل هذا الرفاء

فد ينقلب عنده ، وليس من الضروري أن يتصرف الأمير بأخلاقه الحسنة ،  
ولكنه من الضروري أن يبدو وكأنه متصرف بها .

وليس على الأمير أن يراعى كل الأمور التي يقدره الناس من أجلها ،  
لأنه كثيراً ما يرغم لكي يحفظ الدولة أن يتصرف بنير ما يعنى به الأخلاق  
والصدقة والإنسانية والدين ، وإذا فمن الضروري أن يكون ذهنه متأهباً  
للممل وفقاً لنقلب الرجوع ، وعنده أن الأمير ليس من الواجب عليه أن يتمسك بعهد  
قطعه ، وإذا كان وراء هذا التمسك ضرر قد يصيبه ، أو إذا كانت الأسباب التي  
حملته على قطعه أصبحت مفقودة ، ولكن من الضروري أن يستمر هذه الرذيلة  
في نفسه ويخفيها عن أعين المراقبين وأن يكون دعيماً عظيماً ومتحلياً خداعاً ،  
فالناس في حالة من البساطة والعوز تجعلهم على استعداد ليكونوا دائماً خريسة  
لمن يسعى لغشهم وخديعتهم . ا. هـ .

\* \* \*

والمذهب السيامي الذي قدمه ميكافيل للفكر الغربي هو : الغاية تبرر  
الواسطة وهو الذي يقرر أن الأساس المثلث في حكم البلاد الحرة بعد فتحها هو  
تفريغها وتدميرها فإن لم يهلكها الفاتح أهلكته . وأن الفاتح الجديد ينبغي له  
في أول مرة ، أن يقترب ما أراد من صنوف القسوة مرة واحدة ، بحيث  
لا يحتاج إلى العودة إليها أبداً . وإن على الأمير أن لا يخشى غار المعاييب التي  
يصب عليها بدونها الاحتفاظ بالملك . ويقدم ميكافيل في فلسفته الخطيرة  
للحكم والملك خلاصة تجربته ، فيقول : أن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء  
الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة وتمكنوا من تخيير أو هدم الناس  
بمكرهم وتغلبوا في نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة جادة والوفاء  
أساساً لحياتهم ويرسم ميكافيل للأمير أساليب الغدب والإمتهان للأمم على نحو  
غاية البشاعة فيقول .

\* \* \*

إن أمام الفاتح الذى يروم إخضاع الشعوب رسائل ثلاث :

الاولى أن يدك صروحها ويرذل معالمها ويجعلها أترأ بعد عين ، الثانية أن يقيم فيها ، والثالثة أن يعطيها حق التمتع بشرائعها ونظمها على أن يتقاضاها الجزية وأن يعمل لنفسه من أهلها « أقلية » تظاهر بالوطنية وتكون صلة الحكم بينه وبينها أداة المحافظة على ولائهم وخضوعهم .

## (٢)

كانت الفلسفة السياسية التى رسمها ميكافيلى هى منطق التحول فى الفكر الفرنى المسيحى إلى مفاهيم العبودية الرومانية القديمة بمفاهيمها ، ولم يلبث هذا الفكر إلا قليلا حتى أصبح طاج الفكر السياسى الغربى كله حتى يصفها أحد الباحثين فيقول « لم تعد الميكافيلية فى عصرنا منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة » (١) ذلك أن الفاشية الإيطالية والأنظمة الطاغية المائة الأخرى تقوم على جوهر على الفلسفة الميكافيلية .

وقد اعتبر ميكافيلى البابا أسكندر بورجيا مثله الأعلى وخصه بفصل شائق ، وقد لقي ميكافيلى فى أواخر حياته من التعذيب والنكال أهوالا شديدة جزاء سياسته ومفاهيمه .

ويرى لوى دى فلغوس فى كتابه نحن وميكافيلى : أن الفاشية هى أعظم تجربة ميكافيلة عرفها التاريخ . أن تكون الدولة كل شيء والفرد لا شيء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين وأن تطرح كل اعتبار أخلاقى فى تحرى غايتها . وقال أن هذه النظم جميعاً ( إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية وروسيا البلشيقية ) تقوم على نوع من الزعامة الممنعة فى الطفيلان

والاستثمار بكل السلطات وهي تستر وراء فكرة الدولة ولم يبق للفرد اليوم وجود في ظل هذه النظم المطلقة .

(٣)

على هذه المفاهيم التي أذاعها ميكافيل في القرن الخامس عشر قامت السياسة الغربية ورسمت مخططات الاستثمار الذي فرضها على البلاد المختلفة .

وقد جاء الاستثمار حاققة تالية للرأسمالية نفسها التي كانت طابع النظام الليبرالي الذي شكله الفكر الغربي ، فقد قام النظام الاقتصادي الغربي في ظل الثورة الصناعية في إنجلترا وأوروبا الغربية ، على أساس الملكية الخاصة لموارد الثروة وعلى أساس الربا ، وقد جاء النظام الليبرالي متكاملًا بين الاقتصاد والاجتماع والفكر على أساس الحرية المطلقة فأصبح النظام المالي هو المسيطر على السياسة وتوجيه التفكير في المجتمع ، والربا هو الوسيلة الرئيسية لنظام التعامل المالي وإيمانه عن طريق المقامرة بالأوراق المالية في البورصة ، والإحتكار في الإنتاج الصناعي

وكان الاستثمار هو المنطلق الأول للنظام الليبرالي نظراً وعكساً : في استخدام الحافلات من البلاد المحتلة وفي جميع المنتجات إليها وقد أطلق الاستثمار على نفسه اسماً مغفراً لحقيقته وأدعى أمانه خطيرة : هي تمدد الشعوب المنحطة ، وتدريبها على الحكم الذاتي ووصف ذلك بأنه دعب الرجل الأبيض ، واستنتج ذلك طرح نظرية الأجناس العالية التي صنعت الحضارة والأجناس الملوثة .

وقد بدأ الاستثمار في القرن السادس عشر وكان على رأسه الأسبانيون والبرتغاليون ثم تبعهم فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلغت مساحة مستعمرات الدول الأوروبية خمسي مساحة اليابسة ، وعدد سكانها نحو ثلث البشر وبدأت فلسفات الاستثمار والعنصرية تأخذ مجراها إلى حمل دعاوى عريضة لتبرير سيطرتها ونفوذها .

(٤)

استلهم الفكر الغربي نظام الديمقراطية اليوناني الذي طبق في أثينا وأسيرطه والذي يعني حكومة الشعب (ديموس : الشعب . كراتوس : الحكم) أي حكومة الأعلى وارتبطت الديمقراطية بمبدأ سياسي اقتصادي هو مبدأ الفردى الحر الذي يعانى في تقييد سلطان الدولة ، وقد كان النظام الديمقراطى الغربى هو الأساس الذى أكدته الثورتين الأمريكية والفرنسية ودعمت معالنه وقواعده وهكذا ارتبطت الليبرالية والديمقراطية والاستعمار على نحو من الانحاء من خلال النظام الاقتصادى الرأبوى الذى وضع نظامه اليهود وسيطروا به على الحضارة الغربية والفكر الغربى والرأسمالية كما تصورهما الموسوعة الميسره هى النظام الاقتصادى الذى يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثورة ويطلق المجال لحرىات الأفراد والمشروعات الخاصة ويصير الربح حافزاً أساسياً على التقدم الاقتصادى الاجتماعى . وقد بدأت معالم الرأسمالية فى الظهور على أثر اضمحلال النظام الاقطاعى وتدهور النفوذ الاقتصادى والسياسى للملاك الزراعيين وصعود الطبقة الوسطى إلى مجالات الصناعة والتجارة والمهن الحرة ، وقد تطور النظام الرأسمالى تطوراً بعيد المدى واقترب سياسة الحرية وابتعاد الدولة عن التدخل فى الحياة الاقتصادية ، وقد بلغ أوجه فى منتصف القرن التاسع عشر وذلك بتشغيل النساء والأطفال وتسكيس الثروات وسوء توزيع الدخل وسيطرة المشروعات الكثيرة التى تتمتع بسلطة احتكارية .

(٥)

والربا نظام قديم عرفه الرومان وقدماء المصريون والعرب فى الجاهلية . وجاء مضاداً لمفاهيم الأديان المنزلة التى حرامته جميعها تحريماً كاملاً ، والذى تخصصت فيه طوائف اليهود التلموديين مستبشرين آياه فلما جاءت دعوة المسيح فحرم الربا ، كان ذلك من أكبر العوامل التى خلقت معارضة اليهود ومقاومتهم لدعوة المسيحية .

ولقد حرمت الكنيسة من بعد التعامل بالربا ولم تفرق بين الإقراض بفائدة قليلة أو كثيرة، وكانت النتيجة أن انتقلت كل المسائل النقدية المتعلقة بالقروض إلى أيدي اليهود وأصبحوا هم وحدهم المختصين بهذه الحرفة<sup>(١)</sup>.

وكان اليهود منتشرين في أنحاء البلاد يقومون بإقراض أموالهم بالربا الفاحش ولا يألون جهداً في الكسب، ومن هنا ارتبطت الليبرالية بالربا كما ارتبطت بالاستعمار.

وأصبح النظام الربوي الرأسمالي هو مصدر الانحلال الخلقى فإن المنظمة الربوية لم تكن لتستطيع الاستمرار دون أن تفرض على الفكر الغربي مفاهيم خاصة تحمي قيامها ووجودها، وتمهد لها الطريق وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالدعوة إلى التحلل الأخلاقى للأفراد والأمم، فقد كان النظام الربوي مناهضاً للأديان، والغطرة، وطباع النفس الإنسانية ولذلك فقد استلزم فرضه جهوداً ضخمة لإقراره والدعوة إليه وإغراء العظماء والأمراء والحكومات باعتناقه والتعامل به والوقوع تحت برائته وما تزال قصة الخديو إسماعيل في مصر والشاه إسماعيل في إيران في العصر الحديث مثلاً ضحاً لهذا المخطط الخطير. ومن هنا قامت فلسفات ونظريات فكرية لوضع الربا موضع التقدير والإعجاب واعتباره ضرورة للتقدم الاقتصادى.

ولقد دفع الربويون كثيراً من الكتاب إلى هذا المجال منهم نورجو الفرنسى صاحب كتاب (أقراض النقود) فى فرنسا وبوم يورك فى النمسا بما كان له أثره فى تحويل رأى العام وبما حقق هدفهم الخطير فى إجازات الحكومات للربا وقد حاولت هذه الكتابات القول «بشرعية الفائدة» على أساس القول بأنه رأس المال من الملكية الخاصة، التى يجوز لمن يحرم نفسه من الاستمتاع بها أن يحصل على عوض له وجرت المحاولة لوضع المال فى مكان

(١) السياسة الأسبوعية ١٩٢٨ ودائرة المعارف البريطانية.

الأرض المستأجرة وغير ذلك من الدعاوى الباطلة التي هدمها المنطق الإنساني الصحيح وكشفت الأديان المنزلة عن ريفها . ومن الناحية الأخرى فقد تنبه الكثير من الباحثين الغربيين إلى خطر الربا وأثره البعيد في هدم المجتمعات والأمم ومنهم لورد كيليس الأستاذ بجامعة كمبردج الذي عزا إلى الربا كل محاذير انهيار الحضارات فقال : من الممكن أن تلعب جميع الآفات الاجتماعية إلى الربا وبقدر ما يزداد مجتمع ما تقدما في المدينة والثقافة فإنه ينقص عنده نصاب الربا في عين المقدار والتناسب بحيث أنه في مجتمع مثالي سيكون المبلغ صفر في المائة ، ولقد ألغى الإسلام الربا إلغاء كاملا وحاربه حرباً عواناً وفرق بينه وبين البيع والتجارة فأحل البيع وحرم الربا .

### (٥)

ارتبطت الليبرالية : القائمة على الربا والاستثمار على أساس مفاهيم اجتماعية وفكرية بمر الربا وتنظيمه وتدافع عنه وتعمق الدهوة إليه ، وهي أساساً تدعو إلى هدم القيم والأخلاق والمفاهيم الدينية وطرح نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون والتفسير المادى للتاريخ والترويج لعشرات من المشروعات التي تقوم على إثارة الغرائز الجسدية وإثارة الميل إلى الترف وإنتاج الرفاهات والمكائيات ودفع عمايات الإنتاج كلها إلى التوسع في هذا المجال على النحو الذي يفرق المجتمعات ويدفعها دفعا إلى الاقتراض بالربا ومن الحق أن يقال أن الرأسماليين قد سيطروا على الصناعة كلها ودفعوها في طريقين أساسيين هما إنتاج أدوات الحرب وأدوات الترف وذلك لإيقاع الشعوب والأمم تحت سيطرة نفوذ القروض ، واحتوائها أمما وأفرادا في برائن النظام الرأسمالي وسيطرته ، واليهود الذين يملكون الذهب في العالم هم الذين وضعوا مختلف الأنظمة الخاصة بالاقتصاد السياسي والمصارف والسندات والأسهم والبورصات . وقد دفعوا المؤسسات إلى التوسع في الإنتاج لدفعها إلى الاقتراض الرأسمالي وبذلك دفعوا



المصانع والإنتاج جميعاً إلى حالة من حالات الخطر الدائم العام الذين يلوحون به من أن الإنتاج في حاجة إلى تصريف وإلا فإنه يمكن أن تحدث أزمات خطيرة بينما في الإمكان تفادي التوسع في الإنتاج بالاقبال منه ولما كان هدف الرأسماليين هو مزيد من الاقتراض فقد كان الإنتاج العادي لا يؤدي إلى حصولهم على ثمرات ضخمة من الربا ، أما الحرب والتurf فإنهما الوسيطان اللتان تحققان أقصى نسب الربح ، ولذلك فهم يسيطرون على السياسة ويوقعون الصراع بين الدول حتى يضعوها دائماً على حافة الحرب ، ويحرضونها على زيادة التسليح مع تسريب أخبار ذلك إلى الدولة المنافسة لتزداد تسليحاً ومن هنا يظل الإنتاج الحربي يمتص الثروات ويدفع الدول إلى الاقتراض من المرابين السكار الذين تقوقعوا وراء لاقتات المصارف الكبرى هرباً من القتل والاختيال الذي كان يواجهون به في العصور الوسطى من الأمراء والملوك وكل هدف فلسفة الربا وضع المجتمع البشري في حالة من العجز والقصور والحاجة إلى القروض ، من ناحية أو وضعه في حالة من الانهيار الحلقى ليكون متقبلاً للتurf في مختلف شؤون الطعام والملابس والسكن وإعلاء أدوات التurf والزينة على الضروريات وإعلاء الكاليات الاستهلاكية على المقتنيات الثانية هذا بالإضافة إلى دفع المجتمع إلى مجال المجلس عن طريق صناعة الأفلام والصحافة الداعرة وتجارة الرقيق والخمر والمخدرات وما ورائها من تقاليد المجتمع المستهتر الساهر .

وتقوم على الانحلال والتurf مئات الصناعات في العالم التي تمثل الرأسمالية .

## (٦)

ولاريب أن عدداً كبيراً من النظريات والفلسفات التي طرحها الفكر الغربي في العصر الحديث إنما كانت عاملاً أساسياً من عوامل تعميق نظام الربا وتدعيمه ودفعه إلى الأمام وخاصة ما يتعلق بالاباحة وإعلاء المجلس وانكار البعث والآخرة . والدعوة إلى اقتناص الرغبات والمتع في صراع مع الموت

والنهاية المحتومة وفي ظل أخطار الحروب النووية ولقد كان النظام الربوى هو منطلق الاستعمار باستقدام الخامات وبيع الصناعات الكبرى وهو الممول للاستعمار ومن هنا كان النظام الربوى أساساً هاماً في تدمير جميع القيم الأخلاقية والانسانية والاجتماعية ومن هنا كانت له آثاره البعيدة في تسخير الشعوب والحكومات والأمم لمصالح أصحاب رؤوس الأموال<sup>(١)</sup> وقد ارتبط الاقتصاد العلمى كله بالربا، في ظل نظامى الاقطاع والرأسمالية، وشمل الفلاح فى الأرض والعامل فى المصنع، وسار الربا إلى الأضعاف المضاعفة واستطاع أن يحصل على أرباح تفوق أرباح الزراعة والتجارة ومن هنا برزت ظواهر خطيرة أصبحت فى نظر الفكر الغربى أسساً وقواعد، هى إعلاء شأن الاقتصاد وإعطائه أهمية مبالغ فيها على حساب الكيان الإنسانى المنوع الأغراض فى مجالات الاجتماع والمقائد والحضارة والقانون، ومن هنا استعمل مفهوم الاقتصاد والتفسير المادى للتاريخ وأصبح مؤثراً على القيم كلها التى أصبحت تخضع له وتسير وراءه وبنفوذه وتوجيهه وخاصة فى مجال الأخلاق والتربية وبناء الأمم والأفراد. وبالمجمل فقد اتسم الفكر السياسى الغربى كله من خلال كل مفاهيم (الليبرالية - الديمقراطية، الرأسمالية، الاستعمار) بالرغبة فى الحصول على الربا الفاحش.

ومن خلال هذه المفاهيم أصبح الإنسان خاضعاً للآلة، أو ترساً فى الآلة.

## (٧)

وقد حاولت الليبرالية فرض مفاهيمها وقيمتها على مختلف الشعوب التى

وقعت تحت سيطرة الاستعمار كمنهج فكر وحياة ، يستهدف أقصاه مناهج هذه الأمم ومقوماتها الأصلية من مجال العمل السياسى والاجتماعى ، واتخذ لذلك من التبشير والاستشراق وحركة التغريب وسائل لاثارة الشبهات حول القيم الأساسية لهذه الأمم وخاصة في العالم الاسلامى حيث يشكل الاسلام منهج الحياة والفكر الاساسى لهذه الأمم ومنه تستمد مقومات مجتمعاتها ونظام حياتها وقد جاء هذا العمل من منطلق واضح للاستعمار من حيث يريد إبقاء سيطرته على هذه المناطق واستنزاف خيرات هذه الأمم ، وإيماناً بأن أمة القرآن لن تستكين أو تستذل أو تقبل الضيم مهما كانت في حالتهن الضعف أو التخلف ، ولذلك فقد كان الاستعمار حرصاً على أن يريف مقومات هذه الأمم، ومثيراً للشبهات حول فكرها وقيمتها ، ودافعاً بها عن طريق أساليب كثيرة إلى الانتماء لفكره والانفواء في حضارته جاريماً على خطية احتواء الفكر والأمم وإذابتها في بوتقة الاممية والحضارة العالمية . وكان هدف الاستعمار الاساسى هو استمرار سيطرته على العالم الاسلامى بالاستعمار الفكرى والنفوذ الاقتصادى بعد الاحتلال العسكرى ، وقد جرى في ذلك على خطط عديدة كان أقسامها عمليات الاستيطان التى تقوم على تهجير أجناس مختلفة لتوحيلاهم محل السكان الاصليين وطرد السكان الاصليين أو إبادةهم وتغيير نوعية الأمم وأجناسها هذا بالإضافة إلى استغلال الموارد ثم تطور هذا المنهج حين سقط نفوذ بعض الامبراطوريات وقام نفوذ جديد بهدف وراثة الامبراطوريات القديمة وقيام المناهج الجديدة على أساس الاستعمار الاقتصادى والعسكرى . وكان لانقسام العالم بين الرأسمالية الغربية والماركسية الشيوعية ومن وراءهما نفوذ الصهيونية العالمية الخطير الذى يحتوى النظامين ويحركهما لمصلحته ويضرب بعضهما ببعض ، ويعتصر الأمم المختلفة والشعوب بين دفتيهما . وفى خلال هذه المرحلة الأخيرة تعمق مفهوم الرأسمالية

والاستعمار إلى حد السيطرة شبه الكاملة على الدول النامية عن طريق المنح والقروض وتصدير رؤوس الأموال الأجنبية مع خفض أسعار منتجاتها من انقادات وبالتالي إلى خفض مستوى المعيشة فيها وزيادة العبء المالي في ميزانياتها وفي ظل هذا النظام تحولت المنافسة الاقتصادية إلى احتكارات لا تخدم سوى مصالح الدول الرأسمالية الكبرى ، وهذا هو ما يطلق عليه « الامبريالية » .

## الفصل الثالث

### الفلسفة البرجمانية

تمثل الفلسفة البرجمانية الامتداد الطبيعي للفلسفة السياسية الغربية، مرتبطة بالمجتمع الأمريكي، الذي تشكل في القرن السادس عشر من المهاجرين الأوروبيين.

والفلسفة البرجمانية: هي فلسفة سياسية اجتماعية تشق طريقها في المجتمع من خلال الفلسفة المادية أصلاً ومن خلال الفلسفات التي تشكلت من خلال الإعلاء بالقوة وامتياز العنصر الأبيض على النحو الذي ساقه نيتشه ومن جاءوا بعده، فهي تقول بأن الحق للقوة، «دولا تؤمن بمساواة الضعف العاجز في الحقوق التي للقوى المتشكك». ويرى شارل بيرنز: أحد مؤسسي الفلسفة البرجمانية أن القضاء على الضعف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرقى، وترى هذه الفلسفة أن احترام الوالدين مثلاً نظام لا نقره الثقافة البرجمانية.

وتقوم الفلسفة البرجمانية على أساس المستوى وللمكانة بالدخل المادى وبنسبة النجاح الذي يصيبه المرأ بغض النظر عن الوسائل التي حققها وتعد البرجمانية مستواية عن رواج أدب اللذة والمجون في أمريكا وسيطرته على الفكر كله. ولما كانت الفلسفة البرجمانية هي نتاج الفكر الصهيوني اليهودي التلمودي طرحت أساساً لتشكيل الثقافة والنوع والمزاج النفسى للمجتمع الأمريكى على أساس يستقبل الطموح الصهيونى ودعوته العريضة إلى السيطرة العالمية، فقد قامت البرجمانية على أساس أشد وثاقة بالإلحاد والإباحة من الفكر الغربى نفسه، الذي كانت الفلسفة المسيحية الغربية وخاصة الكاثوليكية، ما تزال تؤثر (م - ٥ - الأيديولوجيات والفلسفة)

فيه فالبرجماتية « تعارض الدين والعقائد وتنكر الثبات والخلود واللاهائية وتعارض القانون الأخلاقي وترى أن السلوك الخاطئ شيء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على الدين وأنه يمكن أن يكون المجتمع منظماً دون أن تكون روحه خلقه ، ولا ريب أن هذه هي صميم الأسس التي يقوم عليها الفكر اليهودي التلويدي ومنها انبعثت الفلسفة الماسونية والفكرة الصهيونية كما تقوم البرجماتية على « فصل الدين عن التربية ، وهي تخضع كل شيء للعمل ، فالفكر الكبير خاصص للإرادة ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومقياس الحقيقة هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل ، وهي تنكر وجود القيم النهائية والمطلقة الذاتية التي تقول بها المثالية القائمة على أن هذه القيم صور من طبيعة الوجود كالحق والجمال ، « وسيكولوجية البرجماتية في اعتمادها على التعبير البيولوجي للحياة فقد اعتمدت على أشياء لم تثبت صحتها بعد ، (١) . وتمثل الفلسفة البرجماتية من خلال وليم جيمس وجون ديوي وقد دعا وليم جيمس إلى الإيمان بالواقع الحسي الملموس . والعمل عنده مقدم على المعرفة ويرى أن المشاهر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر المشاهر .

دعا جون ديوي إلى فصل الدين عن التربية ودعا إلى تطبيق المنهج التجريبي على أمور الدين والأخلاق والاجتماع . ويرى وليم جيمس أن الحقائق إنما هي وسائل لفهم الدنيا . يقول سلامة موسى : ليست الأخلاق عند ديوي شيئاً مطلقاً ، وليست هناك - أي عنده - أخلاق مثلى دائمة ، وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدي إلى تغيرات أخلاقية ، ويرى جون ديوي أن المعرفة إله ووظيفة في خدمة مطالب الحياة .

## الباب الثالث

### الفلسفة العنصرية ( فلسفة الاستعمار والأجناس )

( الباب الأول ) : فلسفة الاستعمار .

( الباب الثاني ) : فلسفة الأجناس .

١ - تقييم النظرية ونقدها .

٢ - معارضة نمو الجنس غير الأبيض .

٣ - الإسلام ووحدة الجنس البشرى .

( الحق ) ضوء من الإسلام .





## الفصل الأول

### فلسفة الاستعمار

يمكن القول بأن الفكر الغربي من خلال مفاهيم الليبرالية القائمة على الاستعمار قد استحدث مفهوماً فلسفياً لتبرير هذا الاتجاه الخطير الذي ارتبط بالحضارة الغربية واختلف في طريقته عن الامبراطورية الرومانية وإن لم يختلف في أصوله ومنطلقه .

ويصور هذا الاتجاه جان بول روي عبارة واضحة : « كان الرومان يقولون : في العالم قستان : نحن والبرابرة ، لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة ، ولكنّها لا تزال أقل وضوحاً ، أما معناها فهو هو : الغرب هو مثل كل شيء وطننا . البرابرة في نظرنا أو الشرق ، هو كل آسيا وكل إفريقيا ، وتقوم الفلسفة الاستعمارية على دهمي . حملها عدد من الكتاب والفلاسفة تصف الاستعمار بأنه رسالة عالمية مقدسة : هي رسالة المدنية والحضارة ، وأن الفتح والغزو ليس غاية بل وسيلة لإعلاء شأن البشرية والسمو بها ، في آفاق العزة والحرية والكرامة وقد نشأت دراسات فلسفية مستفيضة حول مفهوم الاستعمار (Colonisation) وأبرز الخطوط التي تقوم عليها هي أن هناك أقوام من أصول عليها وأقول من أصول دنيا وإن من حق الأقوام العليا أن تحكم وتسيطر وقد أطلق على هذه النظرية اسم (تعدد المنشأ) وقد أطلقوا على حملات المبشرين اسم الاستكشاف والوصول إلى المناطق المجاورة في إفريقيا وآسيا كما أطلقت على الاستعمار اسم التجارة وأطلقت على الاحتلال اسم الانتداب والوصاية

وقد أثبتت الوقائع فساد هذا التصور الفلسفي كله وأكدت أنه لم يكن إلا ستاراً  
لحملة ضاربة من حملات القتل والاستقلال والسيطرة .

يقولوا كاتول سميت : وقف الغرب يوجه كل أسلحته الحربية العلية  
والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره  
وإشعاره بالضلالة والخنوع وقد عمد الاستعمار إلى ربط الاستعمار العسكري  
والسياسي بالاستعمار الثقافي والحضاري ، وبدأ الاستعمار أولاً باسم التجارة ثم  
تحول إلى الفتح والغزو أو انتزاع الأرض من سكان والاستيطان وتهجير  
الأجانب وقام الاستعمار أساساً على توظيف ذهب أوربا الذي طفحت به  
خزائن بنوكها في أواخر القرن الماضي وفتح الأسواق لمنتجات الغرب الغربية  
التي تدر قناطير الذهب على الرأسماليين والمرايين كما اتجه أساساً إلى اقراض  
الأمراء وحكوماتهم لتسكيلهم بالنفوذ الغربي ، وعمد في نفس الوقت إلى  
السيطرة بالامتياز على استثمار المناجم وآبار البترول وإقراض الفلاحين بالربا  
الفاحش وتسخير مواد البلاد لصالح المرايين مع الوقوف في وجه أى تصنيع .  
والعمل على أن تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصريف منتجات لانكشيري  
وبورشكيريوليون وباريس ولندن وفرنسا وقد عمد الاستعمار إلى إدخال قوى  
عددية في كثير من المناطق لإضعاف نسبة سكانها الأصليين ، وقسم البلاد إلى  
دويلات صغيرة وفرض المعاهدات ذات المواد الناقصة وذلك كله من أجل  
تعميق النفوذ الاستعماري .

كما رافقت الاستعمار أساليب من المظالم القاسية التي كانت تصل إلى درجة  
الإبادة بالجملة . وتهجير هدد ضخم من الأيدي العاملة لإدارة المرافق ومثال  
ذلك مافله المهاجرون الأمريكيون الذين عملوا على إبادة أصحاب البلاد الأصليين  
من الهنود الحمر ليحلوا محلهم في أرض القارة ثم استقدموا بضعة ملايين من  
زنوج أفريقيا عن طريق القسر والسيطرة ليستخدمهم عبيد في تعمير الأرض

في القارة الجديدة وقد حاول كثير من الكتاب الغربيين أن يصوروا الأجناس الملونة بأنها ليست في عداد البشرية ، وقد وصلت هذه الفكرة الى أعلى مداها في عبارة مونتسكيو في كتابة روح القوانين حين قال . « إن لنا حقاً مكتسباً في أخذ الزوج خدماً وعبيداً فها هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قبة الرأس إلى أخمص القدم ولا يمكن أن تتصور أن الله وهو ذو حكمة يضع روحاً طيبة في مثل هذا الجسم الاسود ، كما ظهرت نظرية تعدد المناشئ للأقوام وقال الأوربيون أن أهل البلاد المستعمرة لبسوا من بني نوعنا . وقد قامت فلسفة الاستعمار على النظام الربوي والمغامرة والتجارة ، واعتبرت أساساً في صلب الحضارة الرأسمالية ، وأطلقت رؤوس الأموال والاحتكارات وأقامت أنظمة السكراتل والترست وغيرها من صور الاحتكار والرهون وبيع الأراضي وفي مصر وحدها تجربة واضحة خلال عصر إسماعيل في الاقتراض الربوي وما انتهى به إلى الاحتلال البريطاني ، ثم كيف أمكن أن تقع تلك الأراضي المصرية في أيدي المراهين خلال عشر سنوات من الاحتلال عن طريق القروض والفوائد مما أكد بحق قول القائل بأن الرأسمالية أهلى مراحل الاستعمار .

وقد أشار كتاب بنوك وياشوات وغيره من الأبحاث إلى الامتيازات التي منحتها الدولة الثانية منذ عام ١٨٢٥ للقناصل الفرنسيين والانجليزين وما اتصل بذلك بنظام المضاربات والبورصة وما أدى إليه من مشاريع الرهن والبيع القسري وسرقة أموال البلاد وتهريبها إلى الخارج في حقائب الدبلوماسية لحساب أصحاب البنوك والمراهين والتجار .

وقد بلغت نسبة الربا في هذه القروض التي حصل عليها الثراء والحكومات إلى الثلث أو يزيد من المبلغ المقرض ، وقد أشار جوستاف لويون إلى ذلك حين قال : إن الحيل التجارية التي كانت تتم بوقاحة تدل على ضعف الطلاب لدى

رجالنا المتمدنين ، هذا بالإضافة إلى الأموال المهربة إلى الحدود والجزر والبحار والمحسوبة من الغنائم أو التعويضات ، وقد صور نابليون مفهوم الاستعمار حين قال عبارته التاريخية عند احتلال مصر ، علينا أن ننقض كالصوم على لصوم أقل مناجرة لتصبح المسيطرين على طريق الهند . . وكان معنى هذا هو تعميق الأسلوب الذي خطه ميكافيل في إنسكار القيمة الخلقية في السياسة ، وقد صور لوزوب استوارد هذا المعنى حين قال في كتابه حاضر العالم الاعلامي : إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفطاحة والخطورة والمضى والمجال فما كان اليونان ورومة من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا بعدد بالإضافة إلى السيطرة الغرب شيئاً مذكوراً . . وقد عمد الاستعمار في سبيل تركيز وجوده إلى عمل خطر في مجال الفكر ، في العالم الاسلامي وهو محاولة تزييف القيم الاسلامية وإحلال مفاهيم مضللة بدلا منها ، كما عمد إلى إحياء العادات القديمة والأعراف الجاهلية والحضارات البائدة لعزل الأمم عن الاسلام ، وما زال دهاء الغرب يعملون على دفع المسلمين لكي يتنازلوا عن القيم الرئيسية في عقيدتهم وفكرهم وأن يبدلوها بمفاهيم أخرى من شأنها أن تدمر كياناتهم وتحول بينهم وبين المقاومة وتدفعهم دفناً في مجال الاحتواء والانصهار في الفكر الأسمى ، ومن الحق أن نقول أن الأودبي لم يفتد إلى الشرق كمدن بل المستعمر وأن المسلمين لم يتوقفوا عن مناهضة الاستعمار ومقاومته ومجاهدته بكل الأساليب والوسائل دون توقف ، بقوة السلاح وبالأجساد المتراصة وبالرفض والمعارضة ولم يستطع الاستعمار الانتصار عليهم بأي قوة من القوى المادية بل انتصر عليهم بالحداثة والمؤامرة .

## الفصل الثاني

### فلسفة الأجناس

( نظرية العنصرية )

لم تكن الفلسفة العنصرية من نتاج « النظام السياسي الغربي والاستعمار » وحده ولكنها كانت دعامة أساسية في الفكر اليهودي التلويدي الزائف المسيطر على الفكر الغربي ، والفكر البشري كله .

ذلك أن العنصرية هي أكبر ثمار الانحراف الخطير الذي إنتقلت به اليهودية من مفهوم الأديان المنزلة في طريق الفكر الإنساني إلى مفهوم التسلط والسيطرة عن طريق خلق مفهوم يقوم على الشعب المختار المتميز بالعودة بلبوء الأرض الموهودة وهي الامبراطورية اليهودية العالمية .

ومن هنا فقد كانت الفلسفة العنصرية القائمة على الأجناس والدماغ والوفاة من أكبر الدعوات التي طرحها عصر التنوير وما بعده في مواجهة « روابطة الدين والفكر والوحدات السياسية الكبرى التي ربطتها عوامل مختلفة » . وكان من نتائج سقوط كثير من الامبراطوريات والدول الكبرى وقيام وحدات إقليمية على أساس اللغات والأجناس تعل من شأن أعراقها وتتصارع ثم تتقاتل وتظل على عداة دائمة يحول دون التقاء الأمم في مجموعات كثيرة لمصلحة أهداف اليهودية التلويدي .

وتشير كثير من المصادر إلى أن الفكر اليهودي التلويدي الزاحف على الفكر المسيحي الغربي، قد أنشأ أكثر من محور للصراع والتضارب بين الأمم والشعوب وأنه غذى فكرة العنصرية وأقام دعوى الآرية والسامية لتزويق أوروبا عنصرياً، كما طرح فكرة التفسير المادى للتاريخ لتقسيم أوروبا والعالم كله عقائدياً بين الرأسمالية والماركسية. وأنه يستهدف من وراء تحريك هذه الدعوات وإثارة الخلاف بينها إلى هدم القوى الاجتماعية والفكرية جميعاً تمهيداً لسيطرته الكاملة على الفكر البشرى.

## (٢)

أبرز الدعاة إلى العنصرية: جوينيو ورينان ومن هجب أنهما هما فرنسيين قد دعيا إلى إغلاء الجنس الآرى (الألمانى) ثم اتسعت الدعوة إلى الأجناس من مد وشملت الجنس الأبيض كله الذى عد فى قسط الباحثين هو الجنس الآرى، فى مقابل الجنس السامى الذى يمثل الأجناس الملونة. وارتبطت الدعوة بالاستعلاء الاستعمارى فى نفس الوقت الذى أصبحت فى نظر الألمان (الجرمان) دعوة إلى الامتياز بالسيادة والحريّة.

وفى ما قبل هذه الدعوة كان المفكرون الألمان (وعلى رأسهم هررد وجوته ونوفاليس) يسهون آراء القائلين بالفرقة بين الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء، ولا ريب أن جوينيو ورينان كانوا على صلة ضخمة بالاستشراق ومن وراءه بالماسونية ولها كتابات عن اليهود وتاريخهم.

وبالرغم من فساد نظرية الأجناس وظهور أبحاث علمية متعددة تدحضها تماماً فقد استغلت هذه النظرية استقلالاً واسماً وأصبحت من بعد خطراً من أشد أخطار الفكر السياسى والاجتماعى ومن أبعد الدعوات أثراً فى المجتمع الغربى والمجتمعات الإسلامية على السواء. وليس مرد هذه التحولات الخطيرة التى حدثت نتيجة الدعوات إلى الأجناس إلى مدى أهمية الدعوة نفسها أو قيمتها

العلمية - فقد ثبت بأكبر من دليل زيفها واضطرابها - ولكن بالقوى الخطيرة التي ساندتها ودفعتها إلى الأمام ، وفشت أمامها آفاق البحث وصبغت بها الدراسات الاجتماعية والسياسية ، ثم إلى الأثر الذي كان للاستعمار والاستشراق في فرضها على الأمم والشعوب ، وإغرائها باعتناقها .

وقد ثبت أن كل الدعاة إلى الطورانية في الدولة العثمانية كانوا من اليهود والدونمة وأن الذين حملوا لواء الدعوة إلى الانفصال بين الترك والعرب وإعلاء الدعوة التركية ورددوا إلى أحماق التاريخ القديم السابق للإسلام إنما كانوا من المستشرقين واليهود ودعاة من خارج الدولة العثمانية نفسها .

### ( ٣ )

يقول لوثر وب ستوارد في كتابه ( حاضر العالم الإسلامى ) إن العصية الجنسية هي التيار العجيب الذي بدأ في أوروبا ثم أخذ ينتشر في الأرض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة في الشرق والغرب ، وفي نحو مئتي القرن التاسع عشر تجاوزت العصية الجنسية حدود أوروبا وبلغت الأقطار الإسلامية وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً فنشأت حركة تركيا الفتاة ، وإيران الفتاة ، وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزار ومصر والهند ، ثم نشأت الجامعة الطورانية ، والجامعة العربية .

ويمكن أن يقال استكمالاً لذلك تلك النزعات الإقليمية والقومية الضيقة التي انتشرت في العالم الإسلامى والأمة العربية ، والتي قامت على إحياء الماضي القديم السابق للإسلام كالفرهونية والبابلية والآشورية وكانت الفينية أقوى هذه الدعوات وأعظمها وما تزال آثارها قوية فاعلة .

### ( ٤ )

غير أن نزعة الجنس والعناصر قد مرت في الغرب بتاريخ طويل قبل أن

تصل إلى العالم الإسلامي ، وكانت مقدمة لدعوة خطيرة هي القومية اليهودية التي تمطج بالصيغة الصهيونية وتعلو شأن الجنس اليهودي والدعوى إلى فرض تاريخ قديم أندثر منذ ألى عام وإحياء لغة وجنس استمدا من عناصر أخرى من شعب الحزور وليست هي العناصر اليهودية الأصيلة التي عاشت في المنطقة العربية وذابت فيها وانصهرت في داخلها .

( ٥ )

يرد كثير من الباحثين أول مدخل لكلمة الآرية في الفكر الأوروبي الحديث للدستورق الانجليزى سير ويليام جونز الذى درس اللغة السكسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضياً في الهند وترجم منها الانجليزية وأشار إلى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوروبية ، كان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد تابع العلماء أبحاثه وتبين لهم تقارب اللغات السكسكريتية والفهلوية والأرمينية واللاتينية والاعريقية والتيونونية والسلافية وغيرها وسميت هذه اللغات بالآرية ثم سرى الاسم بالمجاز إلى الأمم التي تتكلمها .

ومن ثم انتشرت فكرة الآرية في ممالك أوروبا ، فكتب الكونت جوزيف دى جوبينو رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية ، ونادى بتفوق الجنس الآرى وكتب مواطنه (لابوج) كتاب (الآرى) فكان أشد ابغالا فى الوم والتعصب وتأثر بالفكرة من أدياء إنجلترا توماس كارليل ، غير أن العلم لم يلبث أن رفض هذه النظرية ودحضها بما لم يبق بعد إثارة الشك إذ لم يبق دليل على أن (آريا) هى منشأ الشعوب التي تتكلم هذه اللغات المتشابهة ولا على أن تلك الشعوب ترجع إلى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصيلة واحدة .

ثم جاء ريتان فأوغل فى التعصب واستمد من الخلاف اللغوى خلافاً مختصراً وأعلن أن الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به ، وكان ذلك خدمة



الاستعمار والنفوذ الاجنبى، وليس أدلى على انحيازه أنه اعتبر التوحيد الذى عرفه العرب نقيضه، وقال « والتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم، ففخر الساميين فى كونهم أول من عرف التوحيد وعنهم أخذ العالم الديانات » ثم عاد يقول أن ميل الساميين إلى التوحيد هو الذى يفسر أنهم لم يكونوا من أصحاب « المثيولوجيا » مثل الآريين، كما أنهم العقلة السامية بنقض عقلى هو عجزها عن الفكر الفلسفى .

وقال : إن الساميون تقصم الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء . .

ويبدو من نبرة زينان طابع الاستعلاء بالآرية الانتقاص للشرق لأنه مصدر الأديان ولأنه حامل لواء التوحيد .

\* \* \*

(٦)

يعتبر الباحثون آرثر دى جونينو (١٨١٦ - ١٨٨٢) أول من وضع أصول القومية الحديثة القائمة على الدماء والأعراق فقد كان مقاله عن التفاوت بين الأجناس البشرية مقدمة خطيرة لهذه الدعوة .

قال : إن الدم ذو أهمية عظيمة وأن الناس يتفاوتون فى العنصرية ، وأن الحضارة لا يمكن أن تنتقل من شعب إلى شعب ولذلك فإن الأجناس الحاضرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى رفيع ، ، وقال : إن الشعب الألمانى هو الشعب المختار إذ العنصرية عنصرية مرهونة ببقاء الدم .

ودعا جونينو إلى عبادة الأسلاف باعتباره الوسيلة الأساسية للحفاظ على بقاء الأجناس الراقية وتمكينها من الاضطلاع برسالتهما فى نهضة العالم .

وإذا كان ريتان قد تابع جونيو ، فإن عدداً من الأدباء والفنانين الألمان لم يلبثوا أن حملوا لواء هذه الدعوة من أمثال نيتشه وفاجنر ومهدوا بذلك للخطوة التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى .

(٧)

ومن هنا نشأت الفكرة العنصرية في ألمانيا من خلال أفكار جوينو وعدد من الباحثين الذين نموها من بعده ( فاشير دى لا بوج وهوستون تشمبرلين ) الذين أجمعوا على أن الجنس الآرى النورديكي هو أرقى جنس وهو الذى خلق المدنيات وجرت بعد ذلك محاولات لايحصاد البرهان الأثرى بولوجى على أن الحضارة الأوربية حتى فى البلدان اللاتينية والعقلية هى غرس يد المجلس الجرمانى ، ويرجع هذا القول إلى سنة ١٩٠٥ .

وقد بلغت هذه الدعوة مداها من بعد الحرب العالمية الأولى حيث بلغت العنصرية أعلى ذراها فى القول أن الجنس الآرى هو سيد هذا العالم ، وهو الموكل دون الناس جميعاً بحمل أمانة الحضارة .

وقد وصل أدواف هتلر إلى غايات بعيدة فى اعلاء المجلس الجرمانى حين قال أن كل ما تراه من الحضارات البشرية يمت بأصل إلى ثمرة النشاط الآرى الخلاق فقد كان الآرى ولم يزل حامل المشعل الإلهى الذى يبين الطريق أمام البشرية ، فشرارة العبقرية الإلهية فى جبينه المشرق ، وهو الذى فتح دروب المعرفة أمام الإنسان ليجعل منه سيد السكائنات الحية على هذه الأرض فاذا توارى فسيسود الظلام وتنهار الحضارة .

يقول فيشر : تقوم فلسفة النازى على وجهة النظر التى نالت تجميعاً فاجنر ونيتشه وتأيدهما أو التى يشرها تشمبرلين قبل الحرب العظمى ، وهو أن الجنس

عماد كل شيء. وأن روائع العالم المجيدة تمت جميعها على أيدي الجنس الآري  
وقال - أي تشمبرلين - بأن المسيح ودانتى وتوماس أكويناس كانوا بلا  
ريب آريين، وأن القوط الذين انحدروا من نفس هذا الجنس التوتوتوني صنعوا  
لتقدم الحضارة أكبر مما صنعه الرومان ، ويعتقد تشمبرلين أن الجنس الانجلو  
ساكسونى قد قدر له أن يكون القوة المسيطرة في تاريخ العالم ومدنيته ،  
وكان كبلنج الشاعر على هذا رأى .

وقد حملت أوروبا هذا المفهوم ونمته وعمقته لتجعل منه تبريراً للاستعمار .  
ومحاولة إيجاد سند فلسفى للتسلط والسيطرة على البلاد المستعمرة وقد أطلق عليه  
هونسون في كتابه الأمبريالية ، الحق الإلهى فى القوة . .

وقد قام مفهوم الاستعلاء العنصرى أساساً مستمداً من فكرة الانتخاب  
الطبيعى فى الفلسفة الداروينية ، وقد حاول دعاة العنصرية أن يشبهوا الصراع  
بين أجناس البشر بالصراع بين أجناس الحيوان وفق قانون طبيعى يسحق القوى  
فيه الضعيف وقد اتخذ الاستعمار منطلقه من القول بأن السعادة لا تكون إلا  
للأقوياء وأن الجنس الأبيض يميزته العنصرية هو صاحب الحق فى السيطرة  
على العالم بدعوى الوصاية من أجل المدنية أو مهمة الرجل الأبيض  
وكأنما جاء حق الأجناس فى العصر الحديث بديلاً لحق الملوك فى العصور  
الوسطى (١) .

ومن الحق أن يقال أن نظرية سيادة الأجناس لم تكن مستحدثة فى العصور  
الآخيرة وإن كانت لها جذور قديمة فى الفكر اليونانى والأمبراطورية الرومانية  
ومن أبرز من دعا إليها (أرسطو) الذى برر طموح الإغريق لسيادة العالم

---

(١) تاريخ أوروبا فى العصر الحديث لتيفشر من كتاب: جوانب من قضايا الأمة العربية:

فنادى بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لكي تكون عبيداً .  
وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد .

ويقول جوان توماس في كتابه الأجناس : أن العبودية تحولت منذ  
الانقلاب الصناعي في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر إلى نظام مقدس ،  
وأنه في سبيل تأكيد هذا النظام والدفاع عنه ابتكر المفكرون عوالمها  
الاجتماع أسطورة شبه علمية لتبرير حالة مناقضة للمعتقدات الديمقراطية .

ويقول جوان توماس أنه ليس هناك أى أساس علمي لتصنيف المجتمعات  
تصنيفاً عاماً على أساس من الرقي النسبي .

### (٨)

أن طرح الفكر البشري لفلسفة الأجناس والعنصرية كان بعيد الأثر في  
المجتمع الغربي ، كما مد آتله إلى المجتمع الإسلامي فأحدث به أبعد الأثر . وقد  
اصطبغت فكرة الأجناس والعنصرية بصور شتى منها القومية والإقليمية .

ويرى هانس كهن : أن البروتستانتية هي مصدر الحركة القومية  
الأوربية :

يقول : كانت البروتستانتية في الأصل حركة دينية عالمية ، شأنتها في ذلك  
شأن الكاثوليكية ، ولكن حقيقة وجودها قضت على فكرة العالمية الدينية  
التي سادت العصور الوسطى ، إذ أن مطالبها رجوع الفرد إلى ضميره هيأ الأسباب  
لتعدد الفرق والمذاهب الدينية ، كما أن مطالبها بوجوب تلاوة الكتاب المقدس  
ووجوب الموعظة كركن أساسي من أركان العبادة شذمن أزر اللغات الوطنية .  
ثم أن ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات رفع من شأنها . لقد كانت هذه  
الترجمة نقطة البداية التي انطلقت منها اللغات في الآداب القومية في طريق التطور  
والرقي ، وبالمجمله فإن هانس كهن يرى أن حركة الإصلاح الديني ساعدت على

تعدد المذاهب الدينية والقاعات القومية في المصور الحديثة وتقرر أن الثورة الفرنسية ، التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوروبا في أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أى حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية ، وإنه نتيجة لما قد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة في أيرلندا وروسيا وألمانيا وإيطاليا والنرويج .

\* \* \*

ويقول إنه لما كانت الثورة الفرنسية هي ثمرة المخططات التي طرحها اليهودية التلمودية في الفلسفة الماسونية عرفنا إلى أى هدف كانت تجرى الأمور .

حتى ليصف بعض المؤرخين هذا العصر ( بعصر القوميات المشنوم في أوروبا ) وإنه كان تهدف إلى العمل على انهيار الكنيسة اللاتينية ، فلما فقدت النصرانية سلطانها على النفوس كانت خطوة الأجساس والعنصرية هامة القوميات هي البداية العاصق فقد دفعت القوميات أوروبا إلى الحرب والصراع ، بين لاتفية وأنجلو سكسونية ، وسلافية وجرمانية وآرية وسامية وطورانية وبلقانية واشتعلت بينها نيران الاستعلاء ، وكانت اليهودية التلمودية وراء أسطورة الدم وانحطاط السلالات والتميز العنصري لتطرح دعوى تفوق الجنس اليهودي على أوسع نطاق وابتكار حملة اللاسامية لضرب كل القوى المعارضة للانجلاء اليهودي التلمودي الذي كان نواة الصهيونية العالمية .

\* \* \*

وقد كان للدعوة العنصرية أثرها في استعلاء اللهجات الإقليمية التي أصبحت لغات موحدة أخذت تحمل محل اللاتينية ، وأصبحت فكرة الدولة القومية بديلاً للمجتمع الإمبراطوري ، ونهاية المثل الأعلى لعالم مسيحي واحد تتمثل ( ٦٠ - الإيديولوجيات والفلسفة )

وحدته في سلطة الكنيسة الروحية وقيام مثل أعلى جديد قوامه الدولة القومية . ومن ثم استقرت فكرة « الوطنية » لتكون مقابلاً للحق الإلهي للولك ورداً على سلطة أمراء الاقطاع ، ومن ثم أصبح الحكم علمانياً وليس دينياً ، وقد ظهر ذلك بوضوح في كتابات لوك وهوبز ، ومن قبل في العقد الاجتماعي لجان جاك روسو .

• • •

ولقد وضعت بعض الأبحاث : دعوة العنصرية والأجناس بأنها « الثورة المالية » ، انطلاقاً من أن اليهودية التلمودية هي التي دفعت القومية إلى أعلى ذراها لإسقاط الكنيسة وتحرير اليهود . كما جرت الأبحاث للتفرقة بين العنصرية والأجناس Racism وبين القومية nationalism .

ويرى بعض العلماء الألمان إن الجنسية هي الفارق بين شعب وشعب ، ومن هنا فقد قسموا أوروبا إلى صقالبة وتوتون ولاتين . وقد صادم هذه النظرية وعارضها حقيقة أساسية هي إنه ليس في العالم أمة مجبولة من عنصر واحد ، وإنه لم يتح لعنصر واحد أن يضم في أمة واحدة كل الشعوب التي أصلها إليه .

وجرى البحث عن التمازج بين القومية والعنصرية ومن ثم خلت الفوارق العنصرية أو الجنسية محل الفوارق الدينية ، وقلم الصراع بين الأجناس والأديان .

(٩)

الجنس الأبيض والأجناس الملونة

تركزت الدعوة إلى العنصرية والأجناس عدة أهداف أساسية :  
الأول : إعلاء الجنس الأبيض في محاولة لتبرير استعمار الأوربيين للأجناس الملونة في أفريقيا وآسيا .

الثاني : إثارة الدعوى إلى الأجناس لإحلالها محل الأديان ولخلق صراع بين الأجناس المختلفة ولهدف أكبر من ذلك هو الدعوة إلى خلق فكرة المجلس اليهودى .

الثالث : محاولة تمزيق الوحدة التى فرضها الدين أو المذهب ومحاولة لتزويق أوروبا للمرة الثانية بعد أن مزقها صراع الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وإخراج أوروبا من الوحدة الدينية كلية .

• • •

ولقد انطلقت الدعوة إلى المنصرمة من نظرية دارون كما انطلقت النظرية المادية ، ونظرية التطور ، واعتمدت على فرضية دارون القائلة بأن « البقاء للإصلح ، فاعتبرت قضية تؤيد الاستعمار والتوسع وتبرر العدوان والسيطرة للشعوب المختلفة .

« اعتقد الأبيض إن استعباد أو إلقاء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوربى ليس إلا تنفيذاً لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحلّة ، بل إن سيادة الرجل الأبيض وجدت تبريراً بما هو أبعد فى التاريخ من نظرية دارون . فقد اعتمدت ما أورده أرسطو من إعلاء المجلس الإغريق والدعوة إلى أنه سيد العالم وإليه زعامته . وقوله إن هناك جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد عبيداً ، وقد تجددت هذه النظرية مرة أخرى فى القرن الخامس عشر مع انطلاق حركات الاستعمار من قلب أوروبا لتطويق عالم الإسلام والدوران حول أفريقيا .

وكما أدخل سبيلسرى إلى نظرية دارون البيولوجية فكرة بقاء الأصلح فى علم الاجتماع وجاء نيثشة فتحدث عن الإنسان والإنسان الأهلى (السورمان) وعلى أسسها اعتمدت أصول نظرية استعلاء المجلس والمنصرمة .

وقد جاءت كتابات دعاة الاستعلاء باللون الأبيض من منطلق وجداني  
فقد كان كتابها من أمثال جوينو وتشمبرلن إنما كانوا يتحدثون عن مشاعر  
تلي الجوانح بالفخر والازدهار .

ولقد كانت قضية الأجناس في أساسها قضية لغوية تقوم على أساس  
وجود أوجه الشبه بين اللغات الهندية باللغات الأوروبية ، غير أن القضية سرعان  
ما اتخذت ذريعة لمخلق صراع بين الأجناس ، وبعد ماكس مولر اليهودي  
أول من استعمل لفظ الأريه وأول من روج لاتخاذ الأساس اللغوي أساساً  
للعناصر والأجناس . يقول الدكتور محمد عبد المنعم الشرفاوى في بحثه عن  
الأجناس الأريه : لم تكن تعرف إشارة ( بوب ) إلى أوجه الشبه العديدة  
بين عدد عظيم من اللغات الأوروبية وبعض اللغات الآسيوية حتى أعقبها ظهور  
روح جديد قوامها فرض أن أصل الأجناس التي تتكلم هذه اللغات المشابهة  
لابد أنه واحد .

واتخذت وحدة اللغة أو ما يشابهها وحدة بين هذه الأجناس ، وكان  
ماكس مولر أول من روج لهذه الفكرة ، ومعنى هذا أن اليهود تلفقوا  
الفكرة لمصلحتهم ، وقد استخدمت النظرية أساليب كثيرة في سبيل التعويض  
لإعلاء الجنس الأبيض في محاولة تعبير الغزو والسيطرة والسيادة التي تخص  
سلالة أو طبقة معينة من السلالات البيضاء . وقد امتدت نظرية التفوق العنصري  
إلى شعوب أوروبا فظهرت نظرية تفوق العنصر الرومانى فى ألمانيا ، والعنصر  
الانجلو سكسونى التي نشأت فى بريطانيا وأمريكا ونظرية تفوق الكاث فى فرنسا  
وعزيت إلى هذا الجنس صفات جسدية تجعل منه جلياً متفوقاً عن بقية  
الأجناس البيضاء ، كما جرت المحاولة لإدخال كبار الشخصيات التاريخية فى

---

(١) راجع أبحاث جوان كوماس ( خرافات من الأجناس ) وفصل الأجناس فى  
كتاب التطور للدكتور السيد محمد بدوى .



النظرية الأوربية من أمثال دانتى و بوره ميل ومايكل انجلو وشكسبير . بل  
أنها تعدت ذلك الى الادعاء بأن بولس الرسول ويسوع المسيح من  
الآرييين .

واقدم ذهبت النظرية الداعية الى اعلاء الجنس الأيضى : الثوتوتى الأوربى  
الى الصاق كل أسباب الضعف والتخلف بالجنس الأسوى المألون . وربطت  
الجنس الأيضى بالروح الهلندية المتكبرة المتعالية التى تتصف بالسيادة ، بينما  
ربطت الأجناس الأسيروية المألونة بفكرة التسامح الدينى الضعيفة المشوبة  
بالرحمة . وحين دعا فيثشه الى السوبرمان ( الإنسان الأعلى ) وقف نظريته  
على اهلاك الأجناس الضعيفة وابقاء الأجناس القوية وعرض بما يحمله  
المسيحية من دعوة الى الرحمة ورعاية الفقير والضعيف والمريض . وحين  
فلسف روزنبرج نظرية الاستعلاء الجنى الألمانى أشار الى التنازع بين  
الروح الشمالية المتكبرة المتعالية والروح الأسيروية المتسامحة المتخاذلة ، وقال  
ان تاريخ التنازع بين هاتين الفصيلتين يرجع الى ما يقرب من أثنى عام ، فقد  
أرادت الكنائس ولاسيما الكنيسة الكاثوليكية أن تسيطر بالحلب على حين  
أراد الأوربيون الشماليون أن يعيشوا وأن يموتوا أحراراً وقدندد روزنبرج  
بالمسيحية وما وصفه بمساوئها التى جرتها على أوربا حين دعا إلى . المحبة ، التى  
سرعان ما انقلبت إلى معنى الذل والخضوع والزهد ، ويرى أن المسيحية فى  
دعوتها إلى المحبة قد استغلت هذه العاطفة بنية التحكم والسيطرة ، وقد ابتعدت  
عن شخصية مؤسستها حين استبدلت به فكرة الكنيسة وأفسحت المجال لسيطرة  
الأكليروس فخرت بين المسيح والإنسان هوة محيطة بل جعلت بينهما وسطاء  
من رجال الدين .

## تقييم النظرية ونقدها

(١)

أولاً : تنطلق النظرية أساساً من معارضة أساسية لحقيقة أكدتها الأدهان السماوية والأبحاث المنصفة وهي وحدة الجنس البشري .

ثانياً : إعلاء جلس واحد على باقي الأجناس : هو الجنس الأبيض الذي لا يريد على تلك سكان العالم ، ومحاولة انتقاص الأجناس الأخرى ، ونسبة كل عوامل القوة والذكاء للجنس الأبيض ونسبة كل عوامل الضعف والتخلف للأجناس الأخرى .

(١) أكد العلماء اتناء الإنسان إلى أصل واحد أو أصول متعددة وحنوا إلى تأييد نظرية الأصل الواحد وفي ضوء هذه الحقيقة العلمية تبدو النزعة العنصرية فرضاً ليس ما يسوغه أو يدعمه (١) .

(٢) أمعن الوراثة فإن الإنسان لا يرث الاستعدادات أولية تماماً تنمو بتأثير البيئة والفرية .

(٣) ثبت استحالة فكرة البقاء الجنسي التي يتحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين كما انضج أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة .

(٤) تأكد أن الفروق العقلية والنفسية ما هي إلا نتيجة لظروف بيئة منها أن فرصة التعليم قد اتاحت لأفراد جماعة دون أخرى .

---

(١) أوجين ييفار : العالم الأثربولوجي في جامعة جنف .

(٢) السلالات المصرية دكتور يسري عبدالرازق .

(٥) أثبتت التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة :  
أن المستوى العقلي للتلاميذ زنوج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائرم في  
الولايات الجنوبية مما أكد مفهوم أن التميز ليست مسألة جنس بل مسألة  
بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافي .

(٦) ثبت أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة والتكوين  
الجنسي لسلالة من السلالات وإن الحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض  
البحر المتوسط في حوالى الألف الثانية قبل الميلاد نمت في بلاد تميز سكانها  
بالاختلاط لا بالنقاء الجنسى فضلاً عن أن الحضارة في الوقت الحاضر ليست  
قاصرة على المجموعة البيضاء فقد دخلتها اليابان والصين .

(٧) القائلين بأن الجنس إلأرى أرقى فروع الجنس الأبيض لم يستطيعوا  
أن يحددوا هذا العنصر إلأرى تمام التحديد ولم يدينوا أصله ولم يثنوا على وجه  
التحقيق أنه هو الذى أنشأ الحضارات كلها .

(٨) لم يثبت تاريخياً أن الأوروبيين الشماليين هم الذين أنشأوا الحضارة  
البشرية ، وقد شاركوا فيها متأخرين جداً ، وكانت البشرية قد توصلت قبلهم  
بمثلة في أقوامها المختلفة إلى معرفة الزراعة واستئناس الحيوان واستخدام المعادن  
« وأقاموا صرح مدنات عريقة كل ذلك قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى  
الحضارة بل لقد كان فلاسفة اليونان يلقبون هذه الشعوب التى تعيش في شمال  
أوروبا بالمتوحشين » .

(٩) ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرب  
وأن جميع الأجناس بل جميع الأفراد بإمكانهم القيام بنفس العمل إذا أتيت  
لهم فرص متكافئة في التعليم والمران .

(١٠) ليس هناك في الواقع جنس بريطاني ولكن يوجد شعب بريطاني .

ولا يوجد جنس فرانسى، ولكن لغة فرنسية، ولا يوجد جنس آرى ولكن  
ولكن لغات آرية، وليس هناك جنس لاتينى ولكن هناك حضارة  
لاتينية<sup>(١)</sup>.

(١١) فساد نظرية أوصاف الجنس وخصائص القوام والرأس وخصائص  
الدم، نظراً لاختلاط هذه الخصائص في النوع البشرى بدرجة تجعل من العسير  
جداً تحديد نماذج تقوم على هذا الأساس.

(١٢) إن الإحساس بوحدة الفكر والهدف هو الذى تربط الناس بروابط  
مدنية : على أساس أن الذين يؤمنون بمثل عيسى واحدة يجب أن تقوم  
بينهم قرابة.

(١٣) إن نتائج قياس الملامح الجلدية في تقرير تفوق جنس على جنس  
لم تأت بنتاج جامعة.

(١٤) لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وأن سكان أوروبا  
متعددوا الأصول.

## ( ٢ )

هناك حقيقتان أساسيتان : تنقضان فلسفة الأجناس من الأساس .

الأول : أن الجنس البشرى واحد الأصل وإن أخوة بنى الإنسان هو  
الأساس الذى قامت عليه الأديان، وهى لا تقيم أهمية كبيرة لاختلافات الجسم  
أو الدم أو اللون وتعتمد الناس جميعاً أخوة متساوين .

(١) أوجين بيتار : العالم الأثرولوجى فى جامعة جنيف

(٢) الدكتور بصري عبد الرازق : السلالات البشرية .

الثاني : إنه المجموعات البشرية قد اختلطت اختلاطاً عميقاً منذ عصور ما قبل التاريخ بالهجرة والامتزاج الواسع والحرب إلى درجة أنه لم يعد في الإمكان القول بأن هناك عرق واحد لا يزال نقياً بقاءً تاماً .

ثالثاً : إن نظرية الأجناس قامت على الأسس المادية وحدها على أساس الدم واللون وبذلك فقد تجاهلت عاملاً هاماً في وحدة الأجناس وامتزاجها وهو عامل الالتقاء الفكري والتماذج الروحي والنفسي ، هناك المؤمنون بمثل طلياً واحدة هي بمثابة قرابة وأن الزواج والاختلاط والانتشار عوامل هامة حطمت عزلة ومن العيب القول بأن اختلاط الأجناس يهدد البشرية بالتقهقر والتدهور ، ذلك لأن عمله الاختلاط هي عملية مستمرة لم تتوقف منذ وجود الإنسان على الأرض . فالهجرة قديمة قدم السلالة البشرية والهجرة تعني اختلاط الجماعات تلقائياً ، ويشير التاريخ أن جميع الحضارات قد تمت عمليات غزو لها من جماعات البدو الرحل اتمت بانهيار التقسيم الطبقي وتكوين خليط جديد السكان .

### ( ٣ )

لاربي أن الأديان السماوية قامت على أساس وحدة الأجناس وعلى أساس الأخوة بين الناس ، وأن تفاضل الجماعات ليس بالأعراق والدماء ولكن بالمصلح النافع ، وقد جاء هذا الأساس في اليهودية والمسيحية والإسلام غير أن التفرقة التي وقع في التوراة - حين زيفها القائلون إليها - استحدثت مفهوماً جديداً مغايراً لمفهوم الأديان المنزلة فقد قام أساساً على العنصرية وعلى إعلاء مجلس معين هو اليهود ، ويشمل سفر التكوين على عبارات تفرض فيها يبدو انحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها ، مثال ذلك : ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لأخوته ، هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق البيولوجي قد تضمنه

التأكيد بأن (يهوه Jeherah) قد عقد عهداً مع إبراهيم ونسله<sup>(١)</sup>، ومن هنا يدّوا التعارض واضحاً في دقة الكتاب المقدس بين هذا الذي يورده العهد القديم وبين ما يورده العهد الجديد، ومن هنا فقد ظهرت نظريتين : نظرية انقسام الناس على أساس الدين ونظرية انقسام الناس على أساس العنصر .

يقول جوان كوماس : الحقيقة أن انقسام الناس على أساس ديني أكثر إنسانية لأنه في الإمكان عبور الهوة التي تفضل وتفرق بين الأديان . أما الهوة البيولوجية التي تفضل بين الأجناس فلا يمكن عبورها ، و « الأديان لا تبالي الاختلافات الجسدية الفردية وتعد الناس جميعاً أخوة متساوين في نظر الله ، والأديان تعارض التفرقة العنصرية منذ البداية » .

ومن الواضح المؤكد تاريخياً أن اليهود والإغريق هم حملة لواء الدعوة إلى العنصرية في التاريخ القديم ، وأنهم ادعوا لأنفسهم أنهم شعب الله المختار ، كما اعتبر الإغريق أنفسهم سادة العالم وكل من عداهم برابرة .

وقد برر أرسطو هذه النظرية واليهودية التلودية في العصر الحديث هي التي أعادت نظرية العنصرية مرة أخرى إلى الحياة وحركتها في عنف وخلقت لها دهاة ومفكرين ، وأجرت الأبحاث على النحو الذي يحقق لهم غايات واضحة وقديمة ، هي ضرب الأجناس بعضها ببعض والقضاء على مقرر أساسي فطري أقرته الأديان وأكدته أبحاث العلم وحقائق التاريخ وهو وحدة الجنس البشري وانصهار الأجناس بالغرب والهجرة على النحو الذي لم يبق معه عنصر واحد في نقاء يستطيع أن يقول معه إنه قائم بذاته . ولقد اتخذت هذه النظرية وسيلة لفرض خرافة الجنس اليهودي من ناحية وتحقيق هدف تبرير الاستعمار وسيادة الرجل الأبيض ودعم النظام الرأسمالي الذي يتحرك خلف الزخوف الاستعمارية وتسيطر على الاقتصاد والبنوك والتجارة .

(١) جوان كوماس : خرافات عن الأجناس .

(٤)

لم يبق أى دليل أو برهان على أن اللغة وحدة اللغات هى نفسها وحدة الأجناس أو أن منشأ الشعوب التى تتكلم اللغات المتشابهة أو أن تلك الشعوب ترجع إلى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات تشابهها تفرعت منه لغة أصيلة واحدة ولم يثبت أن كل مجموعة إنسانية متفقة فى اللغة متفقة أيضاً فى الصفات الأثنوبولوجية .

( ١ ) ثبت أن الجنس واللغة مفهومان مختلفان اختلافاً تاماً .

وقد أنكر ما كس مولر : الذى استعمل لفظ الجنس الأدبى أى معنى بيولوجى لهذا اللفظ وأكد أن مقومات هذا الجنس الأدبى ليست إلا مقومات لغوية فقط .

( ٢ ) أثبت كثير من علماء اللغات والأجناس : أن اللغة تنتشر وتنتقل من شعب إلى آخر بواسطة عوامل الهجرة أو الغزو أو التبادل التجارى دون أن يعنى ذلك الإلتصاف اللغوى ضرورة إلتصاف من يتكلمون بها إلى أصل بيولوجى واحد ، أو تسكونوا من جنس بيولوجى واحد .

( ٣ ) ثبت استحالة فكرة النقاء الجنس الذى يتحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين كما أوضحت أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة .

(٥)

الجنس الأبيض الذى لا يزيد على ثلث سكان العالم ، وهو الذى حاول

الاستعلاء الجلسى وكرامية الأجناس الملونة واضطهادها وأن النظرية لم تنعم  
على أساس علمى وكل الاقتراضات التى حاول دعايتها أن يؤكد بها وجودها  
كحقيقة تساقطت كأوراق الحريف أمام ضوء العلم .

ولم تثبت صحة أحد منها وتؤكد أن أصل النظرية سياسى وأنها سلاح  
استعمل لإذلال الشعوب المسلوقة وتبرير قتالها . يقول جوان كوماس فى كتابه  
غرافات عن الأجناس ( ترجمة الدكتور محمد رياض ) :

« لقد جاءت اللحظة التى بدأ فيها أصحاب أسطورة الجلس الأرى يحسون  
بالتدرج أن هذا الجلس الذى أضفوا عليه صفات التفوق والقوة ، والسلالات  
الأخرى غير الأرية المنظمة ، كل هذا لم يكن له وجود إلا فى أوهامهم » .

وقد إنهدمت النظرية من مختلف وجوه البحث العلمى أما علماء الاجتماع  
فقرروا أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية فى قواها العقلية وليس  
الجلس الأبيض هو أرق هذه الأجناس .

## (٦)

قامت الأديان السماوية على : ( ١ ) وحدة الجنس البشرى ( ٢ ) الأخوة  
الإنسانية ( ٣ ) توحيد الناس بالمثل الأعلى والفكر . وإن الناس تتفاضل بالعمل ،  
وأن مجموعات ووحدات من الناس يشكلها الامتزاج النفسى والفكرى من  
دين أو مفهوم .

وقد قالت هذا اليهودية والمسيحية وجلاء الإسلام فى أفصح منهج . غير أن  
اليهود حرفوا هذا المفهوم القائم على الوحدة والإخاء وغلبوا مفهوم العنصرية  
والاستعلاء وتعدد الأجناس .

ويقول الدكتور يسرى عبد الرازق : أن اليهود بعد سقوطه اشتور ظهروا



بينهم مبدأ التفرقة العنصرية فجاء (يهودى عزرا) ونادوا بمنع اختلاط اليهود  
بغيرهم وأعتبروا جميع أطفال اليهود من زوجات يهوديات أقل شأناً من سائر  
الأطفال ولذلك كانت مملكة إسرائيل القديمة مهد العنصرية ، ولا يزال اليهود  
حتى الوقت الحاضر جماعات منعزلة لا يختلط بعضها بغيرها وتعتبر نفسها أو  
تدهى أنها شعب الله المختار وأن غير اليهود أقل اليهود شأناً ، وتعصبوا لكل  
ما هو يهودى وأحتقروا كل ما لا ينتمى إلى ملتهم .

« وعلى الرغم من تعاليم المسيح ، ظلوا زمناً طويلاً لا يعدون الرقيق من  
الجنس البشرى » .

« وكان الدين بدلاً من المجلس هو معركة العنصرية وإنعكاساً لها ، وخاصة  
إذا صاحب الاختلاف فى الدين اختلاف فى البشرة أو الجنس أو اللغة .

« وفوق ذلك رغبهم فى الاستئثار بالأراضي المكتشفة حديثاً وبخاصة  
أرض الرق فى افريقية إذ صور هؤلاء الفاتحون أهالى البلاد الذين لم يرجعوا  
بهم ولم يكرمهم وقادتهم فى صور أشد قسوة وأعظم خطراً من الفاتحين أنفسهم  
وقد سموهم آكلى اللحوم فى البحر الكاريبي » .

\* \* \*

ويتساءل الباحثون عن الصفات التى يمكن أن تميز الجنس اليهودى عن  
غيره من تعدد السلالات يقول R. N. Salinan : إن نقاوة السلالة اليهودية  
ما هى إلا أوهام وأن أكثر التعبيرات والاختلافات بين السلالات توجد  
بين اليهود .

ويقول فيشبرج : أن مزاعم اليهود وإدعائهم عن نقاوة سلالتهم  
عميق مجرد عن كل أساس : وأن اليهود الذين هاجروا من موطنهم الاصلى كانوا

عبارة عن خليط من السلالات وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة ومن الأدلة التي يوردها بعض المؤرخين أن قوانين كثيرة صدرت في روما وطليلة وغيرها تحرم المسيحية من الزواج من اليهود ولا شك أن الحاجة إلى إصدار هذه القوانين تؤكد كثرة التزاوج بين المسيحيين واليهود .

كما ثبت أن سلالة اليهود المهاجرين القدماء من فلسطين قد انقرضت ، وإن أغلب اليهود في العالم هم يهود الديانة فقط ، وسيكون هذا النوع غالباً من أفراد سلالة أخرى اعتنقوا الديانة اليهودية . وخاصة ما يتعلق بيهود الخزر الذين دخلوا اليهودية مع ملكهم بولان عام ٧٤٠ م وما يزال أعداد كبيرة من اليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة مجموعة الخزر هذه ولا ريب أن هؤلاء اليهود بالدين ، ليس هناك ما يربطهم أصلاً من الناحية الأنثروبولوجية بيهود فلسطين القدماء .

### ( ٨ )

في الوقت الذي استعلت فيه الدعوة الآرية والجنس الأبيض المتفوق ، ظهرت حركة السامية واللاسامية أيضاً من خلال صراع الأجناس في أوروبا .

وقد ارتبطت السامية في أوروبا باليهود ، من خلال احتضانهم لعمليات الربا وسيطرتهم على أسواق التجارة والاقتصاد ، وما يتصل بذلك من إثارة الأحقاد في المجتمع كله . ومن هنا كانت الدعوة إلى التخلص منهم حتى قال هيجل : أن العناصر الغريبة في المجتمع يجب أن تهضم أو يجب إبادة .

ومن هنا بدأت حملة الجرمان على الدماء الغربية : وتابع هيجل : فاخته وفاجر ونيشته . وما زاد في اضطهاد اليهود دعواهم بالتفوق العرق وأنهم شعب الله المختار .

وقال هيوستن سيتواتر تشمبرلين في كتابه ( أسس القرن التاسع عشر )

أن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها ، وعندما تقيض له فإنه يتحكم فيها وقد يقضى عليها حقداً . وكذلك اليهودية فإن فيها عنفاً وقسوة وجموداً ، وهى على تقيض المسيحية الرحومة المحبة التى أعطت البشرية فكرة ( أبوية الله ) . ( مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المعنى ) .

وقد حاول تشمرلين أن يدللك على أن شخصية المسيح وبولص الرسول ليسا من العرق اليهودى . ومن هنا قامت حركة « الاسلامية » التى يرجعها الباحثون إلى :

(١) الكنيسة (٢) المجتو (٣) المذاهب السياسية والعرفية  
غير أن أغلب الباحثين يرى أن اليهود هم الذين صنعوها ليتوجهوا بها دائماً دعوة أنهم مضطهدين ، ويقولون « أن اليهودى نفسه له نصيباً وافراً فى نشوئها ، فهو يشكل أينما حل أقلية عرقية ودينية ولغوية » ويبدو من غير المرغوب فيه ، ومن ذلك « نفور اليهودى الأوروبى من أعمال الفلاحة وميله إلى السكن فى المدن وتعاطى الربا ، وإحتكار رؤوس الأموال المتداولة » .

كما أقرن باسم اليهودى فى الأرباح غير المشروعة مما جعل الناس يشكون فى الأمانة اليهودية . وقد خلد شكسبير ( اليهودى ) فى رواية تاجر البندقية .

\* \* \*

فالاسامية فى أوربا معناها كره اليهود وهو شعور عدااء مرده إن عوامل اقتصادية واجتماعية<sup>(١)</sup> حتى يرى بعض الفلاسفة « أنه على الروح الأوربية لكى يبقى لها نشاطها وحيويتها أن تتخلص من الوقوع تحت تأثير الفلسفة الشرقية المتجسم باليهودية وإلى حد كبير بالمسيحية والإسلام ، ويرون أن هذه الفلسفة

---

(١) راجع بحث الدكتور أنيس فريجة « مجلة الابحاث »

أنتهم غارزة محاولة القضاء على الروح الإغريقية الوثنية البسيطة التي هي أمر، من أساس الحضارة الأوربية . .

ولاشك أن هذه المحاولة لتحرير الروح الأوربية من الأثر اليهودي قد فأت أوانها جاءت بعد أن غزت الفلسفة اليهودية التلودية جميع فروع الفكر : السياسة والإقتصادية والإجتماع والنفس والأخلاق والتربية نتيجة لنظريات فلاسفة اليهود وأتباعهم : دوركايم ولفي بريل وماركس وسارتر .

أما المسيحية التي تأثر بها الروح الأوربي فهي مسيحية يهودية : بولس الذي عمد إلى تدمير المسيحية المنزلة من الداخل وإخراجها من أصولها السابوية الربانية .

أما الإسلام فلا غرو أنه صاحب الأثر الأكبر الذي أعطى الحضارة الغربية وللمجتمع الأوربي الحديث خير ما فيه : من المنهج العلمي للتجريب إلى مقررات علم الإجتماع والنفس والتربية . وإذا كان المؤرخون قد سجلوا صورا قاسية لاضطهاد المسيحية لليهود وأن اليهود كانوا ينظرون إلى المسيحيين على أنهم يهود مرتدين فإن اضطهاد المسيحية لليهود دفع اليهود إلى إقتحام المسيحية من الداخل ومحاولة تدميرها .

ومن ثم منع المسيحيون اليهود من أن يعيدوا عيد الفصح في نفس اليوم الذي يقع في عيد القيامة . وأخذوا الأحاد بدلا من السبت وما قبل من أن اليهود يذبحون أطفال النصارى قربانا ، فإن كل ذلك كان عاملا في قيام الجيتو وانفصال اليهود بعد سنة ١٥١٦ في أحيائهم الخاصة . وقد فرضت عليهم أحكام قاسية ، فلم يكن يسمح لليهودي أن يقتني أرضا ولا أن يتعاطى بعض المهنة ومن هنا كانت الثورة الفرنسية هي حركتهم التي حققوا بها الإنطلاق إلى المشاركة بعد إسقاط جميع تلك النظم

وقد كانت حركتهم فيها بعد قوة فقد عمدوا منذ اليوم الأول إلى السيطرة على الفكر الأوربي كله واحتكروا التمثيل والموسيقى والصحافة والمحاماة والطب والنشر حتى كادوا يسيطرون على ذلك كله سيطرة تامة فغالوا دون نشر مايتعارض مع مفاهيمهم ، ثم نفذوا إلى كل دوائر المعارف والموسوعات بتفاصيل فكرهم ودعواهم ودحض الحقائق العامة ومن اللاسامية انطلقت اليهودية والصهيونية الحديثة باسم الإصطهاد الذي صوروه للعالم على أنه جرم وقع عليهم وأقاموا له أدلة ودعوى .

## ( ٨ )

### معارضة نمو الجنس غير الأبيض

فيما يتصل بفلسفة استعلاء الجنس الأبيض تجيء قضية معارضة نمو الاجناس الملونة وذلك للمحافظة على مستوى الرفاهية في الغرب ومن خلال هذه المقايسة الخطيرة تبيح دعوى الانفجار السكاني . ويتصل هذا الإتجاه بمفاهيم دالم الرباء وسيطرة أصحاب رؤوس الأموال على العالم كله ذلك أن معارضة نمو الجنس غير الأبيض إنما تطالق عدة أسس هامة . أولا : تزايد نسبة سكان البلاد الملونة وخاصة بلاد العالم الإسلامي مما يؤدي إلى التأثير في قيادة الغرب ونفوذه وسيادته السياسية التي يفرضها على العالم منذ القرون الخمسة الماضية بتفوقه العلمي والفني ، هذا التفوق الذي استطاع به أن يقيم احتكاره السياسي في العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه .

ثانيا : تعرض سكان البلاد الغربية إلى التناقص بعد أن ظهرت بوادر الإنحطاط والافول في قوتها السياسية بعد الحرب العالمية الثانية حيث تبذل أوروبا الغربية جهودا مضنية الآن في سبيل زيادة عدد سكانها وخاصة فرنسا وانجلترا والسويد وألمانيا وإيطاليا .

غير أن تقدير الغرب أن زيادة عدد سكانه لن يمكنه من أن يحتفظ بمكانته السياسية وبقائه متربعا على كرسى القيادة العالمية .

ثالثاً : نمو سكان الشرق والعالم الإسلامي نمواً مضطرباً من شأنه أن يزيد القوة العددية التي تواجه الغرب من ناحية والتي تستوعب أكبر قدر من الثروة التي تصل إلى الغرب .

ومن هنا انطلقت الدعوة التي ينفق فيها الغرب مبالغ طائلة في البلاد النامية في آسيا وأفريقيا لإيقاف هذا النمو وتحديدته تحت اسم الوالدية أو ضبط النسل أو تحديدته ، ويكشف ( الدكتور : خورشيد الباحث بجامعة كراتشي ) عما أسماه ( سوء نية الأوروبيين والتخطيط الإقتصادي لادامة إحتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية ) وأن ذلك يجري على ضوء تنازل خطط نمو السكان في أوروبا وتزايد خطط السكان في آسيا وأفريقيا ، على نحو يخيف الغرب من قوة العالم الملون النامية التي تهدد بالخطر نفوذه وسيطرته السياسية ، ويؤكد الباحثون في مقدمتهم الدكتور خورشيد أن ما كان يحول دون سيطرة عالم آسيا وأفريقيا حتى اليوم هو حرمانه من العلوم التكنولوجية وامتلاكه أدواتها الفنية وهو ما يتزايد اليوم في الشرق .

ولذا إمكان إذن لبقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتضلعمها في العلوم الفنية بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق المفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها وأن تبرز القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيك وحرة .

ومن هنا فإن كل ما يفعله الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية إنما هي محاولة للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل ووضع العراقيل في سبيل رواج المعلومات الفنية في أقطاره .

وقد أشارت عشرات الوثائق إلى إرهابات هذا الخطر، وتوجس زيادة السكان في آسيا والعالم الإسلامي في النصف الثاني من هذا القرن على نحو يفقد الغرب نفوذه وسيطرته السياسية، وقد أشارت إلى هذا تقارير رسمية عن الشؤون الخارجية على نحو مما أورده فرانك نوتنشين في مجلة أميركا الشهيرة : الشؤون الخارجية حيث تقول :

« إذن لا إمكان الآن لشعب في أوروبا الشوقية أو الغربية أو الوسطى أن تتحدى العالم مرة أخرى وأن ألمانيا كشعوب أوروبا الأخرى قد اجتازت المرحلة التي كان لها فيها أن تبسط نفوذها وتصبح قوة هائلة في العالم .

ذلك أن التقدم الفني والعلمي قد وصل أيضاً إلى البلاد التي يتزايد سكانها بسرعة فائقة ، ويشير أرثر كورماك<sup>(١)</sup> إلى هذه الظاهرة فيقول : أنه لما يسحب الناس في البلاد المتقدمة إجماعاً فطرياً أن يقل عدد السكان في البلاد غير المتقدمة وذلك أنهم يرون في زيادتهم المطرودة خطراً داهماً على مستوهم الرفيع للعيشة وعلى سلامتهم السياسية « ويصل باحث آخر من المعلقين السياسيين هو « ميك كارل » إلى مصدر الخوف فيقول : أن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا ينتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها ويقول أدنولد جرين : أن عدد السكان في العالم قد بلغ ضعفه في الخمسين سنة الماضية ولأجله قد تعرض التوازن في القوة الاقتصادية والسياسة في الدنيا لعبء شديد .

---

(١) نقلنا هذه النصوص عن بحث مستفيض قلمامة ملال الناسي في كتابه « هاتما

(٩)

وقد أشار الفيلسوف المسلم محمد إقبال إلى هذا الخطر الذي يواجهه عالم الإسلام منذ سنوات طوال وقارن بين محاولة الغرب المستعينة إلى زيادة نسبه وسكانه بينما هو يدعو في البلاد النامية والملاونة إلى إنقاص السكان . وسجل ظاهرة تناقص عدد سكان أوروبا وتدهوره الشديد نتيجة محاولتها تحديد النسل فيما قبل الحرب العالمية الثانية مما كان له أبعاد الأثر في نتائج الحرب العالمية حيث ظهر ضرر ممارسة هذه الدعوة من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العظيمة شيئاً فشيئاً ، وأعلن الماريشال بيتلن عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الرئيسية والأساسية التي عملت على توهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية : قلة عدد الأطفال والسكان .

ومن ثم فلم تلبث أوروبا أن عدلت عن هذه الخطة إلى خطة مختلفة تمام الاختلاف وهي العمل على زيادة السكان بأقصى قدر ممكن ، حتى إن البابا وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية العالمية أعلن أنه لا يوافق على مبدأ التخطيط العائلي وكذلك أعلنت الكنيسة البروتستانتية ذلك أيضاً . وجاء فيما أثر عن البابا قوله : إن يتهوفن كان الولد الثامن من أولاد أبوية فلو أنه والديه حبيداً النسل أ كان سيولد بتهوفن وفنه العظيم .

(١٠)

طرحت الفلسفات الغربية ، وخاصة الفلسفات المستمدة من الأصول اليهودية التلمودية نظرية مالتوس لتكوين كآساس له طابع علمي فني ونقطة انطلاق للدعوة إلى تقيص الاجناس غير البيضاء ، وذلك تمكينا للسيطرة اليهودية الربوية عليها .



غير أن العالم الغربي لم يلبث أن استفاق بعد أن تنبه لمدى أخطار الدعوة التي فرحتها اليهودية التلودية ، وقامت أبحاث عليّة صحيحة تنقّض ما ذهب إليه مالتوس .

يقول القس مالتوس أساساً : إن السكان يزيدون زيادة هندسية بينما المواد الغذائية تزيد زيادة حسابية ، ولذلك فإنه لا بد أن يجيء يوم يبلغ فيه عدد سكان الأرض عدداً لا تكتفي مواردها لتغذيته . وقد احتضنت الثورة الفرنسية آراء مالتوس ، يحسبان أنها منطلق الفلسفة الماسونية ومن ثم تناقص مواليد فرنسا . غير أن مفهوم مالتوس لم يلبث أن انقلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية التي وضعت مقاييس جديدة للنمو الصناعي أساسها أن زيادة عدد السكان هو العامل الأساسي في زيادة الثروة .

فقد أثبت الإحصاء الدقيق أن الازدهار المادي كان مرافقاً للنمو الإنساني في الغرب . وإن زيادة الإنتاج القومي في فرنسا وأمريكا والسويد وإنجلترا إنما جاءت مع زيادة عدد السكان لا بالرغم منها .

وإن ازدياد السكان في أوروبا هو الذي رفع الزيادة في إنتاجها الاقتصادي ، ومن أقوال العديد من الباحثين أمثال : برنال ، وإيرك رول وتشارلس جاير :

أثبتت : أن زيادة السكان نافعة اقتصادياً لأن الإنسان لا يولد يبطن وفم فقط ولكن يدين ورجلين وذهن .

\* \* \*

وقد تبين أن مالتوس إنما بنى نظريته على أسس قاصرة على عصره ، ومنها اعتمد تصميماته التي لم تكن تصلح لمصر آخر . فقد كتب رسالته في أثناء حرب نابليون التي كانت سبباً في كثير من هوامل الفقر والجوع .

وقد عد مالتوس من المتشائمين لأنه افترض أن زيادة السكان ستؤدي إلى الحروب والمجاعات والفقر وتدهور الآداب ودعا إلى تأخير سن الزواج<sup>(١)</sup>. وقد تبعه عدد من المفكرين التلويديين الذين أسموا أنفسهم مجددى الملتوسية : منهم دزد ديل وروز وجه ومنهم هافلوك البس وولز دمرى والدكتور مارى ستويس . وقد أثبتت النظرية بعد زمن قليل أنها غير صالحة للتطبيق العالمى ، وواجهت أهف معارضة ونقد ، ذلك أن مالتوس نظر إلى العالم نظرة جمود وحسبه كيافاً لا يتغير ولا يتطور ، وفاته أن البشر يتطورون فى حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية ، بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم فى التغلب على المحيط وإخضاعه لراحتهم وسعادتهم .

هذا فضلاً عما أعطى الإنسان من قدرة على تنمية وسائل العيش ، من حيوان ونبات ، والسيطرة على عوامل الطبيعة التى تحد الموارد وتزيد بها فى البر والبحر .

### (١١)

إن الفاء نظرة سريمة إلى العالم الإسلامى يكشف عن أن موارده الغنية الثرة تستطيع أن تستوعب أكبر قدر ممكن من السكان ، وإن أغلب هذه الثروات إنما تنقل إلى أوروبا ويحرم منها أهلها . وفى نفس الوقت الذى تنقل هذه الثروات ، تهجر إلى العالم الإسلامى مجموعات غريبة من السكان تحاول أن تسيطر على مقدرات هذه المناطق . ولا ريب أن نمو هذه المناطق واتساع مخططاتها الاقتصادية من شأنه أن يفرض مزيداً من النمو على أهلها طبقاً للقاعدة التى تربط زيادة الإنتاج بزيادة السكان .

هَذَا فضلًا عن أن التحديات التي تواجه المسلمين والعرب اليوم تحتاج منهم إلى حميد قوى لمقاومة الأخطار . وقد أثبت عديد من الباحثين المثقفين أمثال لوركينز وهانس وكولين كلارك وكول من أقطاب الاقتصاد في الغرب ، أن الزيادة المضطردة في السكان مما لاغنى عنه للمحافظة على التقدم والتوسع في طلب المنتجات حتى لا يتجم قرن الكساد في الاقتصاد المتقدم .

ويشير الباحثون إلى أن زيادة عدد السكان في العالم الثاني في آسيا وأفريقيا إنما يترتب عليه نتائج هامة . واذ لا مكان بعد ذلك لبقاء شعوب الشرق محكومة مغلوقة على أمرها ، بعد تدريبها على الآلات الميكانيكية وتضلعها في العلوم الفنية، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها وأن تبرز القيادة العالمية في أماكن زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيكية حربية .

يقول ميك كارل الباحث الاقتصادي :

« إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلًا حتى يطالعوا على حقيقة ما يراودهم ، ثم لا ينفرونه لأهل الغرب لأنه استثمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الازدهار والخلف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها . وإن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا للبلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتحل في نفس الوقت بالعلوم الفنية . »

• • •

ويشير العلامة غلال الغاسي في بحث مستفيض عن الوادية : إلى أهمية أساسية هي . « أن أكبر الخطر أن تدرس هذه الحركة منفصلة عن سياقها السياسي والتاريخي » . « فإذا أضفنا إلى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليه . وخلق حركات

داخل لكل بلد عربي وإسلامي من الأقليات التي يصل بها التنبأ أحياناً إلى المطالبة بالانفصال عن الوطن الولد عرفنا أن التقيص في عدد المواليد لا يخدم الامصلحة الاستعمارية والصهيونية.

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى إعداد القوى التي تحافظ على الكيان ومواجهة التحديات الخارجية وتقديم عدد من أبناء المسلمين للعمل على صفوف خط النار والجهاد وحماية الثغور بما يفرض الخوف والحذر على خصومهم من غزوم.

(١٢)

## الإسلام ووحدة الجنس البشري

« جاء الإسلام الحنيف يعلن الأخوة الإنسانية ويشير بالدعوة إلى العالمية ويطلب كل عصبية فقد قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعاً ، فالناس لأدم ولا فضل لعربي على عجمي ولا لآسود على أحر إلا بالقوى ، وحكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هي لتعارف لا التخالف والتعاون لا التخاذل والتفاضل بالقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد والله رب الجميع يرب هذه الأخوة ويرعاها ويطلب عبادته جميعاً بتقريبها ورعايتها والشعور بحقوقها والسير في حدودها . يعلن القرآن الكريم هذه المعاني جميعاً في بيان ووضوح فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساملون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً »<sup>(١)</sup> ويقول : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله

أنتقامكم إن الله عليم خبير<sup>(١)</sup> ، ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « إن الله قد أذهب عنكم عمية الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد : الناس لآدم وآدم من تراب ، لأفضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحر إلا بالتقوى ، ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية ، وهذا التقرير قضى الإسلام تماماً على العصب للجنس أو الألوان في الوقت الذي لا تزال فيه الأمم المتحضرة من أوروبا وأمريكا تقيم كل وزن لذلك ، وتخصص أماكن يشاها البيض ويحرم منها السود حتى في معابد الله ، وتضع القوائم الطويلة للتفريق بين الأجناس الآرية والسامية وتدعى كل أمة أن جلسا فوق الجميع<sup>(٢)</sup> .

### (١٣)

لقد كانت العنصرية من أبرز الركائز التي اتخذها الفكر البشري أداة لمعارضة الفكر الإنساني وهي « عملة قديمة عرفت في الحضارة الرومانية والفكر اليوناني وكانت مصدراً أساسياً من مصادر انهيارها ثم حمت الحضارة الغربية نفس النظرية ، نظرية تفوق الأجناس على نفس المفاهيم والأسس التي هاجمها به الإسلام وإن كانت قد نمتها بصورة أشد قوة وعنفاً ، أما الإسلام فقد قرر وحدة الجنس البشري ، وأقام الوحدة على أساس الفكر لا على أساس الدم ولقد اعتبر الاختلافات في الصفات الجسمية من شكل الجمجمة أو الوجه أو الأيدي أو غيرها اختلافات فرعية كما اعتبر اختلافات الأمم والقبائل والأوطان اختلافات يسيرة لا تحول دون الحقيقة الأساسية وهو أن الإنسان البشري في كل زمان ومكان وعصر وبيئة هو الإنسان بتركيبه الكامل : روحاً ونفساً وعقلاً وجسماً وإن محاولة أخذ الإنسان من جانب واحد من هذه

(١) سورة المجرات الآية ١٣ .

(٢) صاحب الشهاب (يوم الأول ١٣٦٧) .

الجوانب دون النظرية الكلية لا يحقق صدق الحكم عليه وقد قرر الإسلام وحدة الجنس البشري أساساً للتعامل حتى لا يستعمل مذهب من مذاهب الألوان أو الأنساب والأديان ، وفي نطاق الإسلام أقام الإسلام وحدة العقيدة والفكر بديلاً عن نظام القبيلة وربط المجتمع الإسلامي بين الفارسي والرومي والحبشي والعربي جميعاً ، أمة واحدة من دون الناس ، ، وكشف رسول الإسلام عن حقيقة أساسية في هذا النطاق هي : « من تكلم العربية فهو عربي » وبذلك أصبحت العربية هي مصدر وحدة الفكر وقد اتجه الفكر الإسلامي هذا الانحياز وعقده فأقر الفقه الإسلامي كفاية الأجنبي للعربي فتصاهر المسلمون في الأقطار المفتوحة واختلطوا أو امتزجوا امتزاجاً كلياً ولا كذلك فعل الرومان أو المستعمرون في العصر الحديث .

ومن مفهوم القرآن في نفى العنصرية نفياً صريحاً واعترافه بوحدة الإنسانية وبأنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل . وأنه لا تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم أو ألوانهم أو أنسابهم إتجه التاريخ الإسلامي وجهة واضحة عمقت هذا المفهوم وأكدت ، فتقاربت الأجناس الإسلامية وتداخلت بالزواج المختلط أو التوليد حيث أقبل الخلفاء والعرب على التزوج بنهر العربيات من فارسيات وروميات وصقليات وصيبليات وهنديات ، ونشأ عن هذا الاختلاط جيل جديد من المولودين يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلطة التي ولدته من جثمانية وعقلية وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة ، لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد وتكلم لغة واحدة .

وقد كان ، هذا الاتحاد هو مصدر تلك النهضة العلمية التي امتدت من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، وهي نهضة عامة شملت كل نواحي التفكير الإنساني من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا وهي إحدى النهضةات العلمية الكبرى للمعدودة في تاريخ

الحضارة على الإطلاق ، وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية وإخلاص العناصر غير العربية للدين الإسلامي واللغة العربية . ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا يلتحلونها من قبل من حيائية ومجوسية وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية ( أى اللغة ) بفزارة مادتها وروعة أدبها وأنها قبل كل شيء : لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد جرم في النهاية هذا الإعجاب بالدين الاسلامى واللغة العربية إلى الإعجاب بالعرب أنفسهم فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذى قلوبهم وأذهانهم فتصيرت الحال عما كانت عليه من قبل فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحيزة للعرب على غير العرب ولا كراهية من الموالى لتفوذ العرب السياسى بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالى والأعاجم إلى انتحال النسب العربى تشرفاً به وتعظيماً ، بل أن بعض الشعوب غير العربية أخذت تمتد أصولها إلى العرب كما قبل في البربر اذ نسبهم إلى قبس عيلان ،<sup>(١)</sup> .

## (١٤)

ومن الحق أن نظرية العنصرية قد استخدمت في العالم الإسلامى في مرحلة الاستعمار استعمالاً خطيراً :

(أولاً) فقد حيل بها بين العرب والمسلمين باسم الأجناس فبى إلى أشاعت الاضطراب في العلاقة الجندرية القائمة بين العروبة والإسلام ، وثانياً : بين العرب أنفسهم بالدهوة إلى الإقليمية والوطنية . وإثارة الفروق المتصلة بالواقع الجغرافية وقد طرحت نظرية العنصرية في العالم الإسلامى من أجل : فكرة الرابطة وحل العروة وكان لأساليب التعلم التي أنشأتها الإرساليات والأنظمة

(١) راجع للرحوم عبد الحميد المبادئ في بحته القيم عن الاسلام وللشككة العنصرية

السياسية والفكرية الوافدة أثرها في اعلاء الإقليمية والقومية الضعيفة ، فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضعيفة في مواجهة الوحدة وكانت عاملاً هاماً في تمزيق تلك الحزام الرابطة . ومن ثم غلبت مفاهيم القبطية في لبنان والأشورية والكلدانية في العراق والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والونجية في أفريقيا أما البدائل الجديدة من الوطنية والقومية فإنها قد عجزت عن أن تحقق شيئاً لأنها قامت على مفهوم مفرغ من القيم الروحية والنفسية والأخلاقية التي هي لمة الرابطة الفكرية الكبرى وسداها ، كما قامت مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لا غير ديننا والعقيدة الإسلامية توحى الاعتقاد بالأمل والثقة في الغد ، « بينا العقيدة الوطنية المجردة لا تنظر إلا إلى المحسوس فقط ، ولا تجد أمامها شيئاً توحى به من قدرة على مصارعة الأوبى لأن المحسوس مخالف لذلك »<sup>(١)</sup> وفارق بين هؤلاء المحسوس وعطاء الإيمان ، وكذلك الأمر في القومية بعد الوطنية ذلك أن الفكرة الوطنية أو القومية المجردة التي لا ترتبط في حقايق متصلة مع وحدة الفكر ، هذه الفكرة :

(أولاً) لا تحول دون الانتماء أو الذوبان في الغرب ، أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثانياً) لا تحول دون انحلال الخلق التي هي من أدعائهم الأمم أما وحدة الفكر فإنها تحول .

(ثالثاً) لا تبث الآمال في غد أحسن وإنما الوحدة الفكرية هي التي تبث الأمل .

(رابعاً) لا تزرع في صدور أهلها هوة النفس والاعتماد على الله والاستعلاء بالذاتية والكرامة ولكن وحدة الفكر هي التي تزرع .



( خلاصا ) المقيدة الوطنية المتحررة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط بما يقدم قوة لاهوض لهم عنها .

( سادسا ) لاتروع الاستعمار والنفوذ الاجنبى وحده غير الوحدة القائمة على الفكر وهى مايتخشاها ويعمل جهده للحيولة دون قيامها .

( ١٥ )

يقول ارنولد توينبى : « ان دعاة التعصب العنصرى فى تزايد وإذا قدر لحركتهم هذه أن تطفى فان ذلك سيؤدى إلى وقوع كارثة عامة » .

ثم يعود فيقول : « المقول أن يكون روح الإسلام هى تلك القوة المدخرة التى قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام » ، ومن هنا ينكشف بوضوح أصالة مفهوم الإسلام فى مواجهة العنصرية ومعارضها يقول توينبى : « ان انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية فى الإسلام » .

« وفى العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموما أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة فى طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سينت الالحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزا وبارزا بشدة لدى الشعوب القوية التى استطاعت أن تقتطع لنفسها - ولو مؤقتا على الأقل - حق الأسد من ميراث الأرض - خلال التنافس الذى قامت به الدول الغربية فى القرون الأربعة الأخيرة ، ا.هـ .

• • •

ولا ريب أن النفوذ الاجنبى قد كان له أثر كبير فى تعزيز دابطة الاخوة

الإسلامية التي كانت قائمة قبيل جائحة الاحتلال والاستعمار الحديث وأبرز الأخطار قد ركزت على الدولة العثمانية بالذات باعتبارها الوحدة الكبرى للمسلمين ومن خلالها أثيرت الدعوة النصرانية على نحو غاية في العنف والحدة فمن طريق المستشرقين ودعاة ليسوا من الأتراك بدأت الدعوة إلى الطورانية لتضرب في كل سبيل، التاريخ والوحدة والإسلام والعرب وتثير الحفاظ وتقلب الأرض وترد الأتراك المسلمين منذ مئات السنين إلى طوران وإلى تاريخ قديم عني عليه الزمن. وتمزق الوحدة القائمة تحت ظل الخلافة والدولة العثمانية بين العرب والترك. ثم ظهرت دعوات إعلاء النصرانية في الهند وفارس وأندونيسيا وكل المناطق الإسلامية بالدعوة إلى العودة التاريخية إلى الإسلام، وقد جاء ذلك بأسماء مختلفة منها الوطنية والقومية الضيقة، فنشأت عوامل الصراع والتفرقة وجرت محاولات التفكك التي تحول دون الالتقاء على أسلوب واحد من العمل بين جماعة موحدة تربطها وحدة فكر أصيل وعميق الجذور.

غير أن فشل النصرانية في أوروبا نفسها قد فتح الأبصار على حقائق كثيرة أهمها:

- ١ - استحالة عودة المسلمين إلى الجذور القديمة قبل الإسلام تخطيطاً الواقع القريب الذي شكل الذاتية والمزاج على نحو من العسير نزعه أو تغييره.
- ٢ - لما كانت الإلحامية والنصرانية القومية ترتبط باللايدلية أو تلتقي أثر الدين في الفكر والمجتمع فإن العالم الإسلامي يرفض هذه القاعدة أساساً.
- حيث يرى أن الإسلام أساس مكين في الثقافة والتاريخ واللغة والوجود الاجتماعي نفسه.

٣ - كان لظهور الصراع في الغرب بين الأبية والنصرانية، وبين فكرة

الشعب في الديمقراطية وفكرة العرق في العنصرية وفكرة الطبقة الماركسية  
أثر بعيد في الفكر الإسلامى الحديث فقد عاد الفكر الغربى إلى الدعوة إلى  
الوحدة عن طريق الفكر ، كالدعوة التى يقودها الفكر الليبرالى إلى عالمية  
الثقافة أو الفكر الماركسى إلى وحدة الطبقة .

كل هذا يكشف عن أصالة الفكر الإسلامى فى إيمانه بالوحدة البشرية  
أصلاً قائمة على أساس أن الناس جميعاً من آدم ولافضل لأبيض على أسود  
إلا بالعمل .

## الحق : ضوء من الإسلام

يقول ابن خلكان : «إن البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر» .

ولا ريب أن الإسلام يؤكد أهمية الإنسان وقيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته كما يبنى العدالة الاجتماعية على أساس :

● الحرية الكاملة في العبادة .

● المساواة التامة بين جميع الناس .

● المسؤولية الدائمة والمتبادلة للمجتمع .

ولقد أقام الإسلام فكرة الفرد في إطار المجتمع . ولم يذهب مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما أنه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع ، ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت وكلهم تجمعهم دعوة الله فإن وحدة الهدف أمر طبيعي حيث يتم الترابط بين المؤمنين ويتصرفون في أعمالهم تلقائياً ، تصرف رجل واحد . وقد انفرد الإسلام بأن رعى الفرد وكرمه في إطار الجماعة فيما ركز به على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسئولية ارتقاء سلم الكمال .

( ولا تزر وازرة وزر أخرى ) - ( كل امرئ بما كسب رهين ) ، ولا ريب أن « البناء الإسلامى مصبوب في لبنات قوية في تكوينها الداخلى مترابطة في تجمعها بلا اختلاف ، كما هو شأن الجدار المرسوم » .

ومسئولية الإنسان الفردية هي أساس الإيمان بالجواز والبعث والآخرة ،

فقد اعتبر الاسلام الانسان صاحب إرادة كاملة ، وعده مسئولاً عن كل فعل من أفعاله وعن كل سكتة من سكتاته .

[ ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ] .

وبذلك أقر قانون المسؤولية الفردية : وأنكر الاسلام مفهوم وحدة الوجود ومفهوم الخطيئة كلاهما لأنه يؤدي إلى نزاع هذه المسؤولية ورأى أن لا يفدى الانسان سوى عمله وليس التضحية من نبى أو رسول وأن خطأ أى إنسان مرتبط به وحده .

## (٢)

ومن ناحية أخرى فإن الاسلام فى نظامه المتكامل : ديناً ودولة ، وفى تطبيقه لهذا النظام لم يعرف ( الدولة الثيوقراطية ) التى عرفتها أوربا فى القرون الوسطى عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا .

وهذا مما لا يقره الاسلام أو يعترف به فضلاً عن أن الاسلام لا يعترف بنظام الكهانة ولا يقر وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما ، يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً . والنظام الاسلامى الاجتماعى نظام خاص يختلف من وجوه عدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ولذلك فالقول بأن الدولة الاسلامية دولة ثيوقراطية ، قول باطل ، ذلك أن النظام الاسلامى هو نظام شامل للأمة جميعاً يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع ، وفيما لم يرد فيه نص ويقوم على إشارات واسعة مرنة ، قادرة على استيعاب قضايا العصور وأمور اليناث المختلفة ومواجهتها دون أن يكون الاسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات .

والتشريع الاسلامي لا يقر مذهبا يفرض مفهوما ماديا خالصا ، أو روحيا خالصا ، على المجتمعات ، أو مفهوما يقدم الاقتصاد على الأخلاق أو العقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو المهيوط بالانسان إلى تجارب الحيوان أو التسليم بالإباحية المطلقة أو التطور المطلق ، خارجا في مفهومه عن ضوابط المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي . كما أنه يقيم الحركة والتطور من داخل دائرة الشهاب .

## الباب الرابع

### الفلسفة الاجتماعية

الفصل الأول : نظرية النفس والجلس ( النظرية الجلسية : فرويد )

( ٢ ) مصادر فرويد

( ٣ ) نظرية الكظم في الإسلام

الفصل الثاني : ( ١ ) نظرية النسبية الأخلاقية

( ٢ ) الأخلاق في ضوء الإسلام

الفصل الثالث : ( ١ ) الفلسفة الاجتماعية

( ٢ ) فلسفة المرأة في الفكر الغربي

الفصل الرابع : فلسفة الأدب المكتشف .

الفصل الخامس : الفلسفة الوجودية .

الفصل السادس : الفلسفة الهيكلية .

الفصل السابع : فلسفة وحدة الحضارة ( أو الحضارة الواحدة ) .

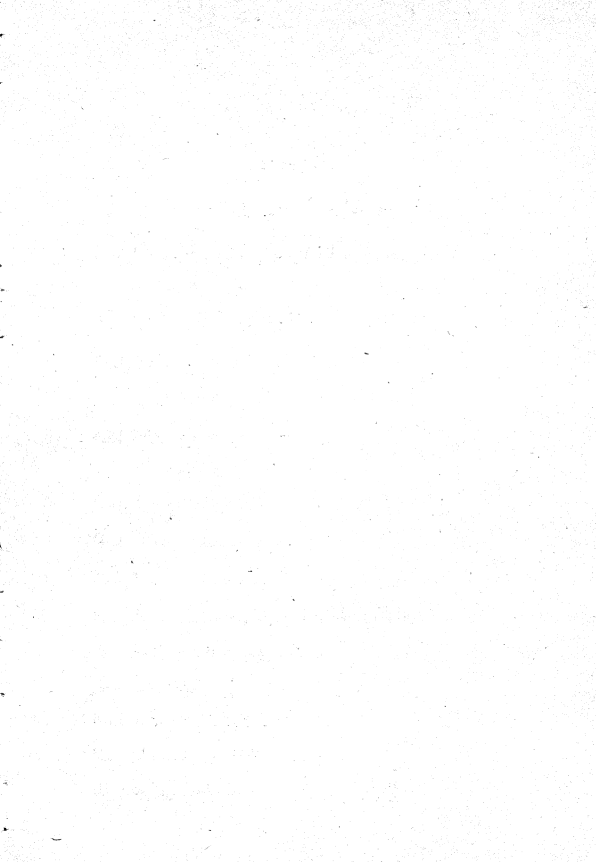
الفصل الثامن : الفلسفة الروحية الحديثة .

الفصل التاسع : التيوصوفية .

الفصل العاشر : الفلسفة البهائية .

الفصل الحادى عشر : فلسفة التربية .

لحق : ضوء من الإسلام .





## الفصل الأول

### نظرية النفس والجنس

النظرية الجنسية (فرويد)

(أولا) مضامين النظرية :

كانت نظريات علم النفس الحديث القائمة على أسس النظرية المادية بمثابة رد فعل على المفاهيم التي أقامها الفكر الأوربي المسيحي القائمة على كبح الشهوات والرهابية وإعتزال الحياة وكبت النوازع الفطرية . بيد أن نظرية فرويد جاوزت هذا الحد حيث وصلت إلى أقصى حدود التطرف بإعتقاد الجنس ، وحده مصدراً لكل التصرفات والنوازع ، وهو تحول خطير من طرف الجمود الذي لا تقبله النفس الإنسانية ولا تقره الفطرة إلى طرف الإباحية الذي ترفضه النفس الإنسانية ويجافى الفطرة وهو موقف لم يقر فرويد عليه زميائه أدلر ويونج اللذين مارسا إقراره كمصدر وحيد والتسا إلى جواره وسائل أخرى .

ولم تكن المسيحية في مصادرهما الأساسية هامل من عوامل نشر التزمت أو الرهبانية أو دعوة إلى الزهادة جملة ، ولكنها كانت مكتملة لدين بني إسرائيل مصححة لإنحرافهم إلى المادية ، غير أن مفاهيمها لم تلبث أن أدخل إليها بعض النظريات الوثنية والفلسفات المعددة ، فدفعت طبيعتها الرهبانية السمحة ، إلى الغلو في إنكار الدنيا ومجاافتها على النحو الذي عارض الفطرة والطبيعة الإنسانية في محاولة قاسية للضئط على الجسد البشري وتحمله ما لا يطيق من الانصراف عن طبيات الحياة بما أحل له ، إلى نوع من الزهادة والحرمان والتعذيب

ومحافة قسوانه الطبيعية إلى الطعام والزواج ، والافضاء عن مطالب الغرائز  
واعتبارها نوع من الدنس الذى يحرم تليته وبالغت في ذلك حتى عدت مثل  
هذه المحافة دليل سمو وقربى إلى الله ، وأنها كلما ازدادت قوة كانت أقرب إلى  
منازل القديسين والمقربين وكان من الطليعى بعد أن عبر الفكر الإسلامى إلى  
أوروبا بمفاهيمه الربانية الأصلية ومقرراته الجارية مع الفطرة ، الدافعة إلى مقاربة  
الحياة والاستجابة لطبيعة الإنسان وغرائزه في إطار من الحكمة ، وفي حدود  
ضوابط تنظم تلك الاستجابة وتجعلها في وضع كريم بعيداً عن الإباحية والزنا  
كان طبعياً أن يهتز الفكر الغربى الذى قام على تلك المفاهيم وأن يتحرك  
لتحرير نفسه من قيود قاسية تأبأها الطبيعة البشرية ، قد فرضتها قوى عابثة  
وأسرفت في دفع الناس إليها ، على نحو يفمّد النفس الانسانية ويزرى بها .

ومن هنا بدأت مفاهيم الاسلام في النفس والأخلاق والاجتماع تنفذ إلى  
الفكر الأوروبى وتحطم قيود الجود وتخلق صراعاً ضخماً بين مفاهيم الفطرة  
ومفاهيم القسر والاعنات .

غير أن إستلاء النظرية المادية من بعد ومحاولتها السيطرة على كل القيم  
والمفاهيم في مختلف المجالات قد مضت تحت تأثير الظلمات التى تجرى إليها إلى  
تفريغ القيم من مضامينها وإتخاذها وجهاً واحداً ، وإنكار الوجه الآخر المرتبط  
به فالتطور هو تطور مطلق لا يقر وجود قوى الثبات .

والحياة مادة لا تقر وجود عالم الغيب والفكر حسى يقف عند حدود  
ما يرى ويسمع ولا يدخل في حسابه الروح أو العاطفة أو البصيرة .

والعقل هو مصدر المعرفة دون أى مصدر آخر من وحى أو غيره  
والإنسان سيد مطلق للكون لا يخضع لأى مقررات .

وليس هناك قيود أو ضوابط أو حدود يقف عنها السلوك .

والأخلاق قيم متغيرة ترتبط بالمجموعات والبيئات. وهكذا فقد جرى الفسك  
الغربي شوطاً بعيداً في الخروج من القيود وتحطيم الضوابط ، وإمتحان القيم التي  
عرفتها البشرية منذ بعيد مستمدة إياها من الأديان والوحي والتوحيد والإيمان  
ثم التمس لنفسه طريقاً آخر أخذ به يندش عن حفرات الوثنيات القديمة وفي  
مقدمتها الهلينية والغنوصية ويحدد الأساطير والحرافات والأوهام والسمم  
وأصول الأعداد ومعارفته المجوسية والفرعونية والبوذية من أفكار ومفاهيم  
ليبعثها من جديد في قالب على ويضعها في إطار عقل ، متخسداً من كل  
قيم الأديان والتوحيد أساساً معارضاً ، وطريقاً مخالفاً ومنهجاً حكسياً .

ومن هنا جاءت نظرية فرويد في إعلاء الجنس وإعتباره مصدراً أساسياً  
وواحداً لكل نوازع الإنسان وتصرفاته متسقاً مع هذا التحدى الخطير الذي  
واجه به الفكر الغربي في مرحلته الأخيرة المسيحية وللدن عامة نتيجة لمفاهيم  
دخيلة لم تكن من المسيحية المنزلة أصلاً . وإنما كانت مجموعة من الزيوف  
أضافتها الفلسفات والمذاهب خلال الأجيال الطويلة .

## (٢)

تقوم نظرية فرويد على أسس خمسة :

(أولاً) أن الحياة النفسية للإنسان ليست حيوانية لحسب ، ولكنها  
تتبع كلها من الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان وأن مرد السلوك الإنساني  
إلى الغريزة الجنسية .

(ثانياً) إن غزائر الإنسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه وأن الجانب  
المسمى بالروح لا وجود له على الإطلاق .

(ثالثاً) الدين والأخلاق ليسا قيميا أصيلة في الحياة البشرية .

(رابعاً) الكبت الجنسي يصيب النفس بالعقد والاضطرابات ، وأن المرض العصبي ينشأ من الأمور الجنسية المكبوتة .

(خامساً) القيم العليا في نظر فرويد كلها خرافة وكذلك دعوته الرسل والأنبياء والمصلحين .

ولا ريب أن هذه الأسس الخمسة لنظرية فرويد إنما تمثل معارضة كاملة للفطرة الانسانية .

### (٣)

وقد اختلف مع فرويد زملائه الذين وضعوا معه نظرية التحليل النفسي (أدلر ويونج) في نقطة رد النوازع كلها إلى الجنس وانفصلوا عنه .

وتتلخص نظرية أدلر في النقاط الآتية :

أن الدافع هو الرغبة الملحة في النفوق .

أن الغريزة السائدة في الإنسان هي الرغبة في النفوق والسيادة وليس الحب إلا وسيلة لتحقيق هذه السيادة ، وهناك وسائل أخرى تتحقق بها هذه السيادة أيضاً لا علاقة لها بالحب الجنسي .

وإن لكل إنسان قصداً في الحياة وأن لكل إنسان تقريباً نقصاً جسيماً أو اجتماعياً هو الذي يدفعه إلى أن يعتاض عنه بكفاية أخرى إذا لم يستطع تصحيحه وأن العواطف لا تسوق الإنسان وإنما الإنسان هو الذي يخترع العواطف .

وهند أدلر أن الشعور بالنقص أم في الأمراض العصبية من الأمور الجلسية التي بالغ فرويد في خطورتها . فالشعور بالنقص هو مصدر الأمراض العصبية .

ويقول أدلر : أن حافز تركيز الذات وليس الدافع الجلسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . فهو يتعرض للتثبيط من قبل المحيط ، ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة كما يكون مصدر السلوك الخاطئ . وعدم التلاؤم من جهة أخرى <sup>(١)</sup> .

#### (٤)

أما يونج فإنه ينكر أن تكون الليد (الطاقة) جدياً بكيته ، فهو يبتدى مرة في شكل رغبة جنسية وأخرى في شكل ميل الى التفوق، وعنده أن فرويد ميز شكلاً واحداً وميز أدلر شكلاً آخر ، وأن الليد يحد متنفسه الأول عند الطفل في أعمال التغذية ، إن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو الليد، ولكن يجب ألا يوصف بأنه «جنسي» أبداً على اعتبار أن الدافع الجلسي لم يميز نفسه بعد عن الميل الابتدائي للحياة . يقول يونج : كان فرويد يرجع سبب وجود العقل الباطن إلى كبت محتويات العقل الواعي غير المقبولة ، وهو بذلك يجعل الباطن مجرد مستقر للذكريات المكبوتة والجنسية . وعند فرويد أن مسألة الجنس هي صانعة المتاهب .

ويرى يونج أنه لا توجد قاعدة واحدة تصلح للتطبيق في جميع الحالات النفسية .

وأن لكل نفس بشرية قاعدتها التي يصلح لمعالجتها ولا يلتقي اثنان في حالة واحدة وأن ظهر للنظرة الأولى أن الأعراض بينهما متشابهة والأقوال متماثلة وجملة رأى يونج : أن الجلس ليس إلا دافعاً واحداً من دوافع عديدة

• • •

وهكذا اختار أدلر ويونج مع فرويد في نظريته في الجنس : ورفضاً رأيه في الغريزة الجنسية في الطفولة وعقدة أوديب . فقد نبذ أطر أهمية الغريزة الجنسية البذلة حيث أرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العقلية إلى مجرد الرغبة في القوة ودافع الإنسان إلى التعويض عن نقص في كيانه .

( ٥ )

وهناك تحفظات أخرى كثيرة على نظرية فرويد ومفهومه للجنس أوردوها الكثيرون من العلماء . والبعض يرى أن نقطة الضعف الأساسية في فرويد كعلم هي أنه أخذ من دراسة نفسه وطفوانه قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة ، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه ، وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهوامسه ومشاكل صباه كيهودى في النساء المتعصبة ضد اليهود - قاعدة كل تصميماته<sup>(١)</sup> ويرى البعض بأن خلقه ليس خلق العلماء ، أنه أشبه بمثلي منه بعالم .

وهو من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه بمجرىها لها ( وقد وسعحت هذه الشبهة إلى ماركس أيضاً ) وقد أكدت الدراسات العلمية أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى : كالدافع إلى الهواء والشراب والطعام .

ثم تبين أن الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحسب بضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً لحسب بل ضرورياً . وقد نظمت مسائل تصريف الشهوة

وضوابطها بحيث تستطيع كثير من الوسائل الروحية أو الرياضية أو الشعرية أو الموسيقى تنظيمها .

(٦)

راجع العلماء رأى فرويد في أن القول بأن ضرب الطفل أو إرهابه مما يؤدي إلى كراهية الدرس أو كراهية الأهل ورددوا هذا الرأى ، وأكدوا بالبحث الميدانى أن ما قاله فرويد من أن معارضة رغبات الطفل في صفه ومحاولة الأهل في أن يوضوه على النظام وأصول السلوك المتعارف عليه يؤثر في تصرفاته إذا ما كبر . وخرج العلماء بعد دراسات طويلة بمعارضة هذه الآراء وبعدها عن الواقع ، وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث بمعرفة فريق من الاطباء النفسيين انتهى فيها إلى « أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة » .

ويقول العلماء في تقريرهم أنهم درسوا أحوال ( ١٥٨ طفلاً ) فبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود العكسية التي فرضت عليهم ، ودل ذلك على أن هناك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وأن ما يوصف بالفقر عند فرويد لم يكن له أى أثر في حياتهم ، وقد أقر أحد العلماء الأمريكين بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل .

(٧)

إن دعوى فرويد الأساسية هي أن العصاب ( المرض العصبي ) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوتة قد رد عليها بعض العلماء بأن الأمور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفاً على الذين أصيبوا بعصاب في وقت ما في حياتهم ولكنها موجودة عند كل إنسان وتشكل عاملاً هاماً في حياته وقد تبين من الدراسات العلمية أن « الكبت » ليس هو بالصورة العنيفة الذي يصوره بها

فرويد . وأن الأديان والأخلاق دعنا إلى كبت الغرائز وضميلها وتوجيهها كما دعنا إلى معارضة كل النزوات والشهوات والمحرمات . .

وأن فرويد إنما يقصد بأثارته تلك المشاعر المتفجرة الواهمة حول الكبت إلى معارضة تعاليم الدين والأخلاق التي أقرت منذ القديم سلامة كظم الشعور ومعارضة الشرور ولم تؤيد أبحاث الأطباء والعلماء ماذهب إليه فرويد من امتناع الإنسان عن إشباع الشهوة الجنسية أبصيه بالمستبريا . أو أنه إذا صد عن المرأة فإنه يتحول إلى الأم كما جاء في أسطورة أوديب أو إلى حب النفس على نحو ما جاء في أسطورة ( نارسيس ) .

وقد ثبت على التاريخ أن كثيرين لم يحققوا المطلب الجنسي ومع ذلك فإنهم لم يصابوا بالعصاب أو المستبريا .

## ( ٨ )

من الأعمدة التي قامت عليها نظرية فرويد « مسألة الكبت » .

وقد قال العلماء أن « الكبت » أمر عادي عند كل إنسان . ففمن نكبت كل حين ، ولا نستطيع أن نتطلق وراء كل نزوة وتنبع كل رغبة . ولكن هناك استعدادات خاصة وبنيات مهيأة « لكبت مرضي » ولا يمكن للكبت أن يحدث رجة في الكيان إلا إذا كان الأمر المكبوت جسيما وكانت البنية مستعدة .

## ( ٩ )

ويقول فلوجل<sup>(١)</sup> في مواجهة التحول الخطير الذي أحدثه فرويد في مهمة

(١) جون كارل فلوجل في كتابه : الإنسان والأخلاق والمجتمع .



علم النفس : « إن موقف علم النفس الآن أشبه بموقف الطبيب شهد مريضاً بين الموت والحياة دون أن يستطيع تشخيص الداء عن غير طريق الحدس والتخمين .

« إن مكتشفات التحليل النفسى ونظرياته فى ميدان الغريزة الجنسية ، قد صدمت شعور كثير من الناس ، فعلماء النفس يحاولون فهم البواعث التى ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية والجمالية وإنهم فى خلال المحاولة قد يحطمون هذه القيم حينما يل علمهم يعملون فعلاً على تحطيمها . فالحذر من النتائج وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد القديمة المقدسة وقيل أن علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بتلك العقدة التى يحاولون الحل الحديث عنها ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى قائمة على معرفة مبسرة .

« و علم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها فلا شأن له بالقيم ذاتها ،

### (١٠)

أثبت العلماء أن ظاهرة « عقدة أوديب » والعقد الأخرى ليست طبيعية المنشأ وأنها ظاهرة اجتماعية قد تكون فى مجتمع وتندم فى آخر ، وقد أثار مالىوفسكى إلى أنه لم يجد لعقدة أوديب أثراً يشير بوجودها فى قبائل جزر تروبريانند أو جزر الميلانيزيا .

### (١١)

أعلن العلماء خطأ افتراض فرويد أن الانسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات أو أن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى الأساس المادى الصلب لسلوكه فى الحياة .

كما أعلن العلماء خطأ محاولة فرويد في إثبات أن الإنسان هيد زواته  
وغرائزه الجنسية أو أن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان .

### (١٢)

تعددت وجهات النظر التي ترفض افتراض فرويد إن للفريزة الجنسية  
المتزلة الأولى ، وحد تلاميذه من افتراضه بتسمية هذه الطاقة : « اللبيد » التي  
دعاهها الطاقة الجنسية فسموها بأسماء مختلفة : منها قوة الحياة ، أو الدافع الحيوى ،  
كما سماها بـ « إرادة القوة » وأعظمها ووجهت به نظرية فرويد من معارضة :  
إن الحضارة قد عملت بالسعى المنظم على مدى العصور لتحديد الفريزة  
الجنسية وضبطها والإفادة منها .

وقد كشف العلماء عن أن هناك غرائز ثلاث أخرى أقوى من الفريزة  
الجنسية هي البغض والتحدى والتحدى وهي تسبب بتوترها جميع الاضطرابات  
العقلية في العالم .

### (١٣)

أعلن إيفان بافلوف أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الإنسان من  
انحراف نفسى أو عقلى . وقال إن نظرية العالم اليهودى « فرويد » التي ترجع جميع  
الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة : هذه النظرية ليست سوى معول  
هدام لعقول الشباب ومخدر يميت لنفوس الناس وقد أعلن الدكتور ناتان كلاين  
الأمريكى هذا في مؤتمر قدمه إلى أكاديمية العلوم الأمريكية .

### ثانيا : مصادر فرويد

ما هي المصادر التي اعتمد عليها فرويد في فروضه وبنواته :  
ولماذا ركزت الدعايات على آراء فرويد وحده دون غيره .

لكنني نمتكشف هذه الجوانب علينا أن نعرف أن فرويد كان يعيش في  
النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في مجتمع والنساء  
وهو مجتمع مسيحي متعصب يكره اليهود ويحتقرهم وقد أقام فرويد أكثر من  
سبعين عاماً في مدينة فيينا لا يفلت منها (وسكن في منزل واحد أربعين سنة)  
ورحل عنها بعد ما ضمت ألمانيا النمسا إليها وفرض النازيون في هذه البلاد سلطتهم  
على اليهود وقد عاش حياة صارمة انفصل فيها عن كل الناس فلم يعاشر سوى  
بعض ضاه كما انفصل عنه كل من إتصل به من العلماء بعد قليل من الزمن لأنه كان  
صارماً لا يقبل مراجعة آرائه ولا يهتدي في تفكيره إلا بآرائه الخاصة (١).

وقد أشار كثيرون إلى أن يهودية فرويد كان لها دخل كبير في صيلفة  
الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته، ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكرهة  
بحكم صفاتها المعروفة التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانفلاق والتعصب  
ولطمع بين القويعة والدين والمصالح الاقتصادية والحنين إلى الماضي، فإذا  
أضفنا إلى هذا الأثر الواضح في فكره أنه سلخ خمسين عاماً من حياته لا يقابل فيها  
غير من ضاه ولا يعرف من الإنسانية غير أفرادها المضلين الناعسين، عرفنا من  
ثم كيف نظر إلى الحياة نظرة مليئة بالتشاوم. أما شخصية فرويد نفسها فإنها  
لا تثبت لما يثبت له شخصيات العلماء المتجردون للعلم حتى وصف بأنه «كان مجموعة  
من العقد النفسية والعادات الغريبة ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد  
النفسية إلى آخر حياته»، كان ينسى الأسماء ونها اسم أحد معارفه الدكتور  
فرويد، وكان يتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فحرقها وكان يؤمن بأنه  
سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فمات في بداية الحرب العالمية الثانية،  
وكان يندخن هشرين سيجارة في النهار ليهدى من سوراته العصبية.

(١) صديق شيبوب «بحثه عن فرويد (الرسالة ١٩٤٠)

(٢) دكتور فاخر عاقر في بحثه عن فرويد.

وكان هرصة للاغواء على أثر بعض المفاجآت، وكانت مرارة طبعه خلة ملازمة له في علاقاته مع غيره، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى دلائلها في سريرته الباطنة، وكان له ضروب من القلق تنم على باعث من بواعث الحيرة المكتومة، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث بالعقائد الدينية والمعادن الخلقية ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والمعادات تشبثاً يربى في حرارة إيمانه وشدة على تعصب المتعصب للدود لمذهبه ودينه : « ومن قوله ليونج : عدنى أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية غير أن يونج لم يلبث أن تزحزح تفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الإغراق في المعصية الجنسية التي تحيط بكل طله وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج،<sup>(١)</sup> .

## (٢)

كان إصرار فرويد على توجيه نقده المر وخصومته العنيفة لكل ما يتصل بالفطرة الإنسانية هو مصدر الشبهة التي دفعت العلماء إلى البحث وراء خلفيات ودوافع نظرياته التي حاول أن يصوغها صياغة علمية براقعة وخاصة حملته على الأخلاق : حيث قرر في عنف وعناد أن الأخلاق تنقسم بطابع القسوة حتى في صورتها العادية، وهي محاولة تضع الإنسان في درجة الحيوان من حيث غرائزه وميوله وحاجاته العنصرية .

وقد بلغ ذلك بأقرب الناس إليه إلى الانصراف عنه : أدلر ويونج وفي مصر قال تلميذه الأول سلامه موسى عنه : إن ماتعلمناه من فرويد لا يمكن أن يسمى علماً، وإنما أكثره فلسفة وأقله علم . وقد وجه كلاهما ( العالم النفسى المعروف ) انتقاداً لأراء فرويد في التحليل النفسى وشبه قائلها واتباعه باليوم لأنهم لا يرون

(١) من نصوس الاستاذ عباس عمارة العقاد في كتابه ( يوميات ) .

اللا فاشتمل عليه كهوف اللا شعور. ووصف هذا أحد الباحثين أصدق وصف حين قال : « هناك الكتاب الذين تملككم فكرة الجنس ويندفعون فيها إلى حد بعيد، وهناك الكتاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عالماً شاذاً ليس فيه شيء سليم ، ومن الحق أن فرويد في كتابيه : مستقبل وهم وعلة المدنية حاول أن يفسر منهجه في فهم كل القيم ، والأخلاق من منطلق مادي صرف .

وقد رسم من خلال كتاباته صورة قائمة للبشرية : حين افترض أن الإنسانية مثلت أباه الأول ليستمتع الأولاد بهم في شهوة وجنس وذنس مسعور ، ولكن ما كادوا يصنعون ذلك ويرون إياهم جثة هامدة حتى اعترام الندم على فعلتهم الآثمة . ثم نظروا الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده ، إلا إذا قتل الآخرين ، ومن ثم نشبت معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصالحة المنشودة فانفقوا فيما بينهم على أن يتركوا أمهم .. الخ .

وقد كانت هذه إحدى نقاط الضعف في فرويد : اعتياده على الأساطير الإغريقية في محاولة تصوير واقع مجتمع بعد خمسة آلاف من السنين . وقد أخذ العلماء عليه ذلك وأخذوا عليه أنه كعالم قد اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة .

وقد عارض يوجن مكندوجل نظرية فرويد في العقل الباطن وأثبت أنه ليس إلا خرافة . وقد نوّقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما أخيراً . وأن آراءه في التحليل النفسي والأرواح والرؤيا كانت مثار اضطراب حتى في نفسه هو .

### (٣)

كانت هناك محاولات طليقة في البحث المقارن تحاول أن تربط فرويد

باليهودية التلمودية وأهدافها البعيدة . ولكن هذه المحاولات لم تكن تجد من الدليل المسمى ، ما يؤكد دعواها ، غير أنها كانت تجد من « القرائن » ما يؤكد ذلك ، غير أن الوثائق التي تسربت في السنوات التالية للنصف الثاني من هذا القرن قد كشفت هذه العلاقة وأكدتها .

وكانت القرينة الأولى لهذه العلاقة ما جاء في بروتوكولات صهيون :

« يجب أن نعمل لتنازل الأخلاق في كل مكان فيسهل سيطرتنا . إن « فرويد » منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبق في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إدواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » . ومن هنا ظهر أن فرويد يهدف في طريق مخطط الصهيونية العالمية إلى القضاء على الدين والأخلاق مكملاً حلقة واسعة :

× ماركس في مجال التاريخ والاقتصاد .

× دوركايم في مجال الاجتماع .

× لينين بريل في مجال الأخلاق .

× فرويد في مجال النفس .

وفريد هو الذي قال أن التسامى نوع من الشذوذ وأن الأخلاق تنسم بالقسوة وهو الذي أثار شبهة انطلقت كالقذيفة : هل الأخلاق تعوق التطور أو النهضة أو الحضارة .

وقد صور خلفية أهداف نظرية فرويد عالماً من كبار العلماء فقال :

« ولما كان من أهداف الصهيونية القضاء على النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم والسيطرة عليه وتسخيره ، لابد من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه عن طريق الجمعيات السرية المسماة الماسونية ، وكذلك

السيطرة على الفكر الغربي واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيوني وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية واستغلال الثقافة والحضارة في تحقيق هذه الأهداف .

« وذلك بمحاربة الأديان جميعاً والكثلكة بنوع خاص والعمل المنظم على بث روح الإلحاد في العالم .

« وتنظيم جماعة من الناس يرونها أحراراً لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدينة المسيحية موقفاً عادياً ، وترى أن المسيحية تقف في وجهاً عائقاً أخلاقياً يحول دون نجاح دعوتهم فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتعلمهم مبادئ تقديس أعضائهم التناسلية ووقفت أداب المسيحية في وجههم ، صنعوا رجال الدين المسيحيين الأماجيب من قتل وتخويف .

« وجعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل يحدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي ويحوّلها إلى حياة مرحلية سحيقة من التخلف .

ويقول الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمة كتابه عن بروتوكولات صهيون :

« مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأي العام المسيحي ابتداء من ظهور الكثلكة منذ ٤٥٢ سنة واستخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائية في أعقاب حركة الإصلاح الديني بالعالم الغربي الحديث . ووقفت وراء الزعامات العليا ، ووراء عالم الطبيعيات دارون ونقلت مذهبه إلى تشكيل المجتمع الإنساني في طبيعة « الخلق » كما وقفت وراء رأي فرويد في نظرية الجنس ووراء أدوركيم الذي يقول ان توازن نظام الأسرة نظام مصطنع .

ووراء نيتشه وهو ينادى بسيادة القوة واللارحمة . وكان مهم السيطرة على الفلسفة والفكر ، فالأغلبية الساحقة من هيئات التدريس من اليهود . والعمل على السيطرة على الفكر العالمى عن طريق التعليم والاعلام ، والقضاء على كل فكر سليم وزرع الشك والريبة للوصول بالفكر البشرى إلى مرحلة الحيرة .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود فى ذلك :

« لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل » .

ومن يتابع تاريخ الفلسفة يرى دور اليهود (واضحاً) فى ذلك فهم يشرون الفلسفات التى تحطم وتدمر القيم الإنسانية .

« وسيجموند فرويد : هذا الرجل أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطياً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يصم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل ينطوى على أسوأ وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه وبني فلسفته ومذهبه على هذه القاعدة الرئيسية حتى جعل الناس جميعاً يشكون فى كل فضيلة وكل أمر وكل عاطفة رقيقة .

( ٤ )

إذا كانت محاولات ربط فرويد والفكر الفرويدى باليهودية التلويديّة فى أول أمرها قرائن فأنها فى سنوات ما بعد ١٩٤٨ قد أصبحت «حقائق» فقد كشفت كتابات كثيرة بعد ذلك عن هذه الرابطة بأكثر من وثيقة وسند ودليل وبرهان .

من أبرز هؤلاء « داغد باكان » الذى كشف عن الفكر الفرويدى من



أثار التراث اليهودي الصهيوني ، مما كان بداية أساسية لتأكيد هذه الصلة ، ثم جاء كتاب ( ترود وايز روز مارين ) « البقاء اليهودي ، مصوراً للأسلوب التي حاولت به اليهودية الصهيونية احتواء العقل الغربي .

ومن هنا ظهر بوضوح الصلة العضوية بين فكر فرويد وأهداف نظريته وبين المخطط الذي رسمته بروتوكولات صهيون .

يقول الدكتور صبرى جرجس فى كتابه ( التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدى ) .

« وإذا خشى فرويد ما قد يؤدى إليه مفاهيم النظرية الحديثة من اصطدام بالصورة التى ألفها الناس عن أنفسهم فقد أسرع يعلن عن موضوعيته الكاملة وتحرره من أى ميل أو انحياز دينى أو حضارى ، بل هو خروجا على أصول اليهودية التقليدية ، قد أعلن عن إلحاده وعدم إيمانه بالله والدين ، إمعاناً منه فى التدليل على موضوعيته وتحرره من جميع المؤثرات الارغبة البحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها .

« وقد يكون فرويد أراد الموضوعية حقاً ، ولكن مع الافتراض بأنه أرادها ، فإن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : هل كان بوسع أن يحققها ؟

هل كان من الميسور له ، وهو يخطط للإنسان شخصية ويرسم له طريق حياته ، أن يتحرر من يهوديته ومن أثر التراث اليهودي الصهيوني الذى كان سائداً على نحو قوى فى البيئة التى نشأ وعاش فيها ، هل كان مستطعياً وهو ينقد الأسس الدينية والاجتماعية والخلقية التى قامت عليها حضارة الغرب وهى التى تسمى أحيانا الحضارة المسيحية أن ينسلخ عن التراث اليهودي الصهيوني الذى نضح على الفكر اليهودي فى مختلف العصور .

ثم يقول : إن يهودية فرويد كانت أقوى بكثير من رغبته في الموضوعية أو على الأقل قدرته عليها ، لأن حركة التحليل النفسي التي أنشأها إنما استمدت جذورها من التراث اليهودي الصهيوني . بل إنه يرجو أيضاً أن يبين أن المفاهيم الرئيسية لهذه الحركة إنما استقت من نفس النبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقها وتوجيهها . وإن الحركتين سارنا بعد ذلك جنباً إلى جنب لكي تصلا آخر الأمر إلى غاية واحدة : الالتقاء بشعب الله المختار على أرض الميعاد .

ويقول : إن كثيراً من مفاهيم التحليل النفسي وإن عزيت إلى فرويد في الاعتقاد الشائع فإنما هي قد استمدت منابعها من الفكر اليهودي الصهيوني . ويقول : أما أنا وقد تجمعت لدى هذه الحقائق مركزة غير مخففة فقد جذبت انتباهي حقيقتها الكبرى : تلك هي العلاقة الوثيقة بين فرويد رجلاً العلم والتحليل النفسي : الفكر العلمي من ناحية وبين التراث اليهودي الصهيوني والصيونيّة : العمل السياسي الديني العنصري من ناحية أخرى . وهي كما تبدو لي ، ليست علاقة مصادفة ولكنها هي علاقة أصل ومسار وهدف .

ثم قال : كيف لم ينتبه أحد وقد ناهز محر التحليل الفرويدي سبعين عاماً : كيف لم ينتبه أحد إلى هذا الأمر من قبل . كيف فانت هذه العلاقة بين الفكر التحليلي والفكر الصهيوني جميع من شغاهم التحليل ثم حاول الإجابة على هذا السؤال فقال : لما بدأت مفاهيم التحليل في الظهور في أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العشرين ، كان الإطار الذي قدمت فيه إطاراً علمانياً له صورة الموضوعية العلمية ، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت بهذا الفكر وصاحبه بهالة من النزاهة الفكرية منعت حتى أعنف معارضته من أن يستريوا في أصوله وإن أنكروا مفاهيمه . ومن ثم انصب النقد لمفاهيم التحليل عليها من حيث إنها مفاهيم « علمية » تخضع

لقواعد النقاش الموضوعي . وعلى الرغم مما تسرب من كتابات فرويد وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب .

وكان خليقاً أن تستثير الريبة فيما تخفى وراءها ، فقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس ، حتى رفضت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التي كانت تستتر وراءها وظهرت واضحة لاختفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى أن هدف الفكر الفرويدي المنبع أصلاً من التراث اليهودي الصهيوني والمتجه إليها هو « تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب » .

ثم يقول إنه إنما أراد أن يكشف حقيقة أساسية هي أن التحليل النفسي الذي يعرفه العالم أجمع « علماً ، ولا شيء غير العلم » ، لاكتشف مفاهيمية الجهرية كلها رجل واحد هو فرويد ، إنما هو في مضمونه الحقيقي « داخل الإطار اليهودي الصهيوني الممتد مساراً عبر الأجيال » . ثم يشير الدكتور صبرى جرجس إلى حقيقة أخرى هي أن هرتزل وفرويد كانا صديقان وإنيهما طاملا تلاقيا في مجال الفكر والعمل ، وإنهما عاشا في عصر واحد .

ويحاول الكاتب أن يربط بين دور فرويد في مخطط هرتزل بما يوحى بأن مخطط فرويد كان حقيقة تنصراً أساسياً في العملية كلها .

## ( ٥ )

لم تكن مدرسة التحليل النفسي هي المدرسة الوحيدة في علم النفس المعاصر . بل هي واحدة من خمس مدارس . ( هي مدرسة التأمل الباطني

وللمدرسة السلوكية والجشطلت (مدرسة الشكل) والمدرسة الغائية ومدرسة التحليل النفسي) . ولم يكن فرويد هو كل شيء في مدرسة التحليل النفسي فقد ظهر الى جواره ادلر ويونج وغيرهم . وهي نظريات متعددة متضاربة تذهب الى كل بعد من الأبعاد؛ فلماذا هذا الاهتمام البالغ بأراء فرويد وحدها ، ولماذا هذا التركيز عليها وإذاعتها ونشرها مع أنها أبعد الآراء عن الفطرة وأعقدها وادعائها لإثارة الطبايع الإنسانية وإفسادها .

ذلك هو الهدف من المخطط الذى يدفع هذه الآراء ويفرضها على الآداب والفنون والمجتمعات ومناهج الدراسة . ومع ذلك فقد وجدت آراء فرويد معارضة واسعة ، وكشفت أبحاث العلماء المتخصصين فى نفس الميدان إلى أنه يعيق الطبايع ويعارض أبسط بسائط النفوس ويغوض بالبشرية طريقاً مظلاً قاسياً إلى الكهوف والمقاويز .

وقد شهد فرويد هذه المعارضة فى حياته ثم لم تلبث نظريته مع الزمن أن فقدت لمعانها الخاطف ، وتكشفت الحقائق التى تعارضها سواء عن طريق عمليات التجريب والإحصاء ، أو عن طريق العلم نفسه . ومن أبرز هذه المثل ، أن الأطباء الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد فى مدينة شيكاغو وعدتهم نحو أربعة آلاف طبيب قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسئول عن مركزه العلمى والرسمى هو الدكتور برسيغال بيل مدير معهد النفسيات بولاية إلينوا .

وبخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها وإن آرائه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن . ويحمل جانبها المنطقى الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتنوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة وأنه لمن العجيب أن يكون الدكتور أرنتس

بيوتس تليذه الوحيد من غير اليهود،<sup>(١)</sup> .

• • •

كما ألقى العالم النفسى (أيليوت سليتر) عام ١٩٧٠ فى المحاضرة السنوية للجمعية الطبية النفسانية فى انكلترا فى لندن بحثاً كان بمثابة تحول خطير فى نظرة السيكولوجيين إلى فرويد ومفاهيمه .

قال : ان التحليل النفسى ليس علماً بل أسطورة (ميتولوجيا) ولدت فى رحم خصب من اللاعالية ، وهو الرحم الذى ترهعت فيه كل فروع العلوم .

وأشار الى أن علم الأمراض العقلية كسكل العلوم الطبية الأخرى يتطور كعلم ولكنه سيعيش كفن . ودعا الى الملاحظ الصادقة العلمية للظواهر الحقيقية من أجل علم نفسى دقيق مثلاً دعا ما يؤثر من قبل الى نبذ الملاحظات الدقيقة التى يمارسها أتباع فرويد فى تحليلاتهم للجهول وغير المرئى .

وهاجم سليتر التحليل النفسى الفرويدى قائلاً : انه سوف لن يكون له مستقبل ولن يكون له مكان حتى فى الحلم الذى يراود العلماء وهو التوصل الى انصهار جميع علوم الحياة فى علم واحد .

• • •

وفى الحلقة الدراسية التى نظمتها أكاديمية العلوم فى نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً استنتت الحلقة علم التحليل النفسى لفرويد من ميدان العلوم .

وكانت وكانت وجهة النظر أن نظرية خلاصة نظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكانته وأساسه ، ولكنها لا تزال تدعو للحنين والرتاء لأنها لم تعد حدود النظرية . هذا بالإضافة الى هجمات ( ايزنك الشهيرة ) وهجمات ( ميداوار ) على الفرويدية ، فإن ( رنسور ) الذى كان من أتباع فرويد المخلصين خرج مؤخراً بأن التحليل النفسى لا يمكن أن يعتبر علماً وأنه مجرد نشاط استبطائى وتأويلى .

وقال ستيلر : ان نظرية فرويد مزقت علماء النفس ، وان علم الأمراض النفسية يعاني من جرح عميق أحدثه جسم غريب هو نظرية فرويد وهو جسم غريب لسببين :

الاول : انه لا يمت للعلم بصلة .

الثانى : لأن ما يقدمه ويحققه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبى فى أى فرع من فروع ، فإزالة هذا الجسم الغريب كقيل باندمال جرح العلوم النفسية .

وبالجملة فالتنازع الاستاذى الذى استمرض هذه الآراء فى مقاله : الفرويدية وهل قاربت الزوال : حيث يقول :

من كل ما تقدم زى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ، ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة ، وانها أحدثت الفقرة والنزاع من علماء النفس وانما أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والاتباع والمعالجون على طريقتها .

وقد اعترف فرويد فى مناسبات عديدة أنه لم يكمل البحث ولم يدع أن نظريته كاملة مكيفة بذاتها .

وومن الطبيعي ألا تتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية كما قال مهاجموها  
فليلة هذه السنين دون تصدع أو إنحدار أو تدهور .

(٢)

ثالثاً : نظرية الكظم في الاسلام

نحاول نظرية فرويد في علم النفس أن تصور الكظم ، بأنه أخطر  
الأمراض النفسية التي يتعرض لها الانسان والتي تؤدي به إلى أمراض  
النورستانيا والجنون ويحيط فرويد هذه القضية بهويل كبير ويعزو إليها  
مخاوف كثيرة من وراء الوصول إلى القول بإطلاق الغرائز وإطلاق التبرية من  
جميع قيود التوجيه والعقوبة والزجر والتخويف .

وهدف فرويد واضح ومعروف وقد تحققت نتائجها في ظاهرة التفريط  
الواضحة التي تأثر بها كثير من الأسر والآباء في مواجهة الأبناء خوفاً من  
خطر غير محقق وقد أطلق فرويد على الكظم اصطلاح « الكبت » ، وقد دعا  
الاسلام إلى الكظم ولكنه لم يعرف الكبت بمفهوم فرويد ذلك أن الكبت  
نفسه ،ضاد لفكرة الاسلام عن الانسان جملة ، فالاسلام يعترف بالانسان  
على حقيقة ، ويعترف بغرائزه ورغباته ولا يحرمه من تحقيقها ولكنه ينظمها  
على نحو يحفظ للانسان وجوده ويحول بينه وبين أن يقتل نفسه أو يقتحم  
حق غيره .

وإذا كانت رغائب الانسان هي لذة الطعام ولذة الجنس ولذة البقاء  
وغرائزه ولا تعدو هذا فإن الاسلام قد قبل هذا وأقره ووضع له الضوابط  
والمعايير وأباح له التحرك من داخلها ، ولذلك فليس في الاسلام « كبت »  
يحمي من ناحية ، وإنما جاء الكبت في نظرية النفس الحديثة وفي رأي فلاسفة  
الغرب مصدر الفكر المسيحي الأوربي الذي كان مسيطراً على المجتمع الغربي

والذى آزرته مفاهيم حادة لا تقبل المعارضة أو المناقشة أو الخروج عنها ؛ تلك هى مفاهيم الرهبانية والمعزوف عن الطعام والجنس والبقاء .

وقد حملت حقائق التاريخ صوراً غريبة غاية الغرابة فى سريان هذا التيار واستشرافه وإتساعه حتى أصبح ظاهرة خطيرة غاية الخطورة ، على المجتمع كله غير أن النظرة العقلية والعالية لم تلبث أن واجهت هذا الاتجاه واكتشفت أنه ليس من الفطرة أو بما تقبله النفس الانسانية .

ومن هنا كان الهجوم عليه ومعارضته ، بعد أن أقيمت إلى الفكر الأوربي حقائق الاسلام ومفاهيمه ، فلقد فهم الاسلام حقيقة السكان البشرى ولم يطلب منه ما هو فوق مستطاع طبيعته وتكوينه الخلقى ، بل دعاه إلى ترويض الوحش السكّان فيه ، ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى الكظم .

ولما كانت النفس الانسانية قادرة على أن تدافع أهوائها وأن ترد بعض رغائبها من خلال إيمانها بالله وخشيته ومن خلال إيمانها بالمسئولية والمحاسبة والالتزام الأخلاقى ، وتقدير الجواز الآخر فى يوم البعث والحساب فإن الاسلام يلقنها دائماً إلى هذا ويدعوها إلى أن تتحقق من غلواء إنذاقها وراء مطالبها .

ويرى الباحثون أن تهذيب طبيعة السكان الانسانى طريقين :

إحدهما : كبت نوازعه ، وهو ما عرفته الفلسفة المسيحية الأوربية أو إعطائه هذه النوازع فرصة الممارسة مع تمكينها من الفضيلة وإشراجها لإياها وهو ما طبقه الاسلام (١) .

(١) الانسان بين المادية والاسلام \*

(٢) يتصرف نفس المصغر \*



(٢)

وحين دعا الاسلام إلا الزواج إنما كان يضع الأساس المكين لضبط  
الغريزة الجنسية والحيلولة بينها وبين الكبت ، فهو الأسلوب الواقعي في  
مواجهة طبيعة الانسان وغرائزه على نحو منظم نقي . بما يحقق دفعة الجسد  
المتجددة ، ويرفع النفس الانسانية عن البحث حول تصرف الطاقة بأسلوب أو  
بآخر بما لا يرقى إلى مستوى الزواج .

ولقد رفض الاسلام في صراحة أسلوب إخماد شهوة الجسد ، أو القضاء  
عليها وضرب الرسول المثل بنفسه فقال أنه ينام ويأكل ويتزوج النساء وأنه  
بسلوكه هذا يرسم للمسلمين الصورة المعارضة لكل مفهوم الانقطاع أو الرهبانية  
أو الزهادة التي تضاد الطبيعة البشرية والتي توجد مقاومتها « الصراع » أو  
الكبت وما ذهبت إليه الفلسفة المسيحية في هذا المجال لم يكن هو الدين الحق  
المزول ، وإنما كان التفسير البشري والتحول التي طرأ على المفاهيم فنقلها من  
الفطرة الخالصة إلى تعقيدات المضادة للنفس البشرية .

و أن نظرة الاسلام إلى النفس البشرية هي النظرة التي ستبقى مع الطبيعة البشرية  
وتسايرها ، والاسلام يعترف بالكائن البشري كما هو بنوازه وميوله الفطرية  
ولكنه يهذبها ويضع لها الحدود في الدائرة التي تحقق مصالح المجتمع ومصلح  
الفرد ، ثم هو يطلب من النفوس أن تتسامى وتدفع ولا يفرض ذلك فرضاً  
بل يفرض إلى الحد الأدنى الذي لا تصلح الحياة بدونه ويترك المجال بعد  
ذلك للسمو والتطهير تقوياً لا فرضاً ،<sup>(١)</sup>

• • •

والاسلام على هذا النحو لا يتعرض لمفهوم الكبت التي تفرضه الرهبانية

أو عدم إباحة الطلاق ، أو قمع الجسد وقهر الشهوات على نحو لا تقبله النفس البشرية ولا تستريح إليه .

والمسلم حين يعترف بالطاقة الجنسية يتحرر من الكبت ، ولكنه حين يكظمها لظرف أو لآخر فإنه لا يتعرض لخطر ما ، وقد دعا الاسلام إلى الكظم في حالات عدم القدرة على الزواج ، أو غيرها ، ولقد أثبت العلم الحديث أن هذه الطاقة - بخلاف طاقة الطعام - يمكن تأجيلها ويمكن صرف النظر عنها ، فترة ما أو طيلة الحياة . ولقد دعا الاسلام إلى احتمال الكظم بالإعلاء والتسلي ، وفي مقدمة الإعلاء الصوم . فالاسلام يقرر حقيقة وجود الطاقة ، ويقرر قدرة الانسان على تأجيلها حتى تتاح له الظروف الملائمة ، وينظر إلى إطلاق الطاقة إلى غير الطريق الطبيعي - الذي هو الزواج - عمل مجرم ، ومخالف لحدود الله ومن ثم فإن الإيمان قادر على أن يكسب المسلم الصبر عليه والكظم عنه .

ولا تكون الطاقة رجس من عمل الشيطان إلا في حالة الخروج بها عن الأسلوب الصحيح الذي قرره الاسلام ، إلى أسلوب آخر يخرج عن حدود الله .

وحيث يؤمن الانسان في عماق نفسه أن هذه الطاقة حقيقة وأن كظمها مستطاع وطبيعي فإنه لا يحس بمقعدة ما أو بمخطر ما . وحين يعترف الاسلام بواقع النفس البشرية وطبيعتها يفسح لها المجال الحقيقي للحركة ، عن الطريق المشروع ، وليست تلك الضوابط قيوداً بقدر ما عليه خطط للمحافظة على النفس وعلى الغرض وعلى المجتمع نفسه من اضطرابه بمخطر ما حق له أثره البعيد في تكوين الأفراد وتشكيل المجتمعات وهو الزنا الذي حرمه الاسلام تحريماً قاطعاً ولم يجعل في أي نص من نصوصه أي بادرة إلى تقبله ، وشأنه في ذلك شأن الربا في المعاملات الاقتصادية .

وقد نظر الاسلام في هذه المحرمات والضوابط إلى مصالح الفرد من حيث

هو فرد له طابعه الأصيل في المحافظة على كيانه وأن نظرة إلى المجتمعات التي  
تهاوت تحت تأثير خطأ التحريم والمنع، وخطأ الإباحة، والإنطلاق لتكشف  
بوضوح حقوق أسلوب الإسلام، ومنهجه في بناء المجتمع السليم القادر على  
الحياة ومغالبة التحديات والاستعلاء على مفاهيم الحيوان في نفس الوقت الذي  
يستعمل فيه على مفاهيم الزهادة والرهانية.

ولقد حرص الإسلام بهذا التنظيم وهذه الضوابط على حماية الجسم  
الإنساني من التدمير الذي يجيء نتيجة الانففاع وراء الاشباع الدائم، وفتح  
باب التفرغ للطاقة الحيوية، فهي في إطلاقها والاسراف في إنفاقها تفسد العقل  
وتجعل الفرد عرضة للانهايار ثم هي في نفس الوقت تحافظ على كيان المجتمع  
وتماسكه وقدرته على مغالبة الأحداث.

ولا شك أن لشهوة الجنس غاية هي تحدد المجتمعات بالسل وليس هي  
غاية في ذاتها، وحفظ النوع البشري. ومن هنا كانت عملية الكظم والاعلاء  
والضبط التي تحفظ للفرد كيانه وللمجتمع بقاءه.

## الفصل الثاني

### نظرية النسبية الأخلاقية

تطورت الفلسفة الأخلاقية في الفكر الغربي والمجتمع الأوروبي على مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى : مرحلة الخروج من الفكر المسيحي الأوربي إلى مفاهيم العلم : وذلك بخلق ذاتية خاصة للأخلاق مستمدة من العقل والحياة لا من الدين .

المرحلة الثانية : مرحلة الخروج من كل القيم والمفاهيم الثابتة الفطرية الإنسانية الطابع إلى التحرر الكامل والدعوة إلى نسبة ربط الأخلاق بالمجتمعات والمصور من ناحية التطور والتغير وعدم الثبات وقد بدأت الدعوة بفصل الأخلاق عن الدين ، بعد أن تعرض الدين في الغرب إلى حملات عنيفة . وبعد أن عجز الدين فعلا عن أن يعطي البشرية زادها في مرحلة التحول الخطيرة التي مرت بها أوروبا منذ عصر النهضة ولقد كان للأخلاق السلبية التي فرضتها أوروبا عن المسيحية (منفصلة عن أصولها وجنورها) أثرها في أنها أعطت صورة الإسلام والرهانية وكرامية الدنيا والعزوف عنها والحروب في المغاور والكهوف ، كان لهذه الأخلاق أثرها في رد الفعل الخطير الذي بدأ بصيحة نيتشه ، بالدعوة إلى العودة لأخلاق الإغريق والرومان وبلغت ذروتها بدعوات « لينى بريل » ودوركايم وفرويد وسارتر في أن الأخلاق ليست فطرة وأنها في أقل صورها قاسية .

وأنها مسألة نسبية تتشكل في كل عصر وأمه من خلال الظروف والعوامل الاجتماعية، وهذا هو قوة رد الفعل، وقوة الانحراف. وقد هاجم الفكر الغربي [ في تطوره من الفكر المسيحي إلى الفكر الوثنى الهليني، إلى الفكر المادى الخالص ] كل القيم التي عرقها الأديان جرياً وراء الخروج من قيود الأديان تحت ضغط عوامل متعددة أهمها السيطرة الربوية وما يتبعها من محاولات لتعزير أسبابه من حيث أن الأخلاق هي أكبر عوامل معارضته أو القضاء على الحاجة إليها.

ومن هنا فقد كان على اليهودية التلويحية دفع المجتمعات في طريق الربا بدفعها إلى الأهواء والاسراف والترف والحرب وكلها من معارضات الأخلاق.

ثم جاءت مرحلة أعلاء حيوانية الإنسان ومادية البشر.

فكانت تلك النظريات المتشابهة التي حصرت الفكر الغربي في إطار لايفلت منه : مادية العيش، ونسبية الأخلاق، وإعلاء الجنس، وسيطرة العنصرية.

## ( ٢ )

أن الأخلاق التي أقامتها المسيحية في الغرب وتشكلت في إطار الفكر الغربي كانت قاصرة عن أن تمنح الناس القدرة على مقارفة الحياة، لسليتها ومعارضتها لاقتحام الحياة والعمل والكشف عن مقدراتها وثرواتها، وهذا هو الجانب الذي دخل على الدين من الفلسفات القديمة الوثنية والجبرية، غير أنه في الوقت نفسه كانت هناك بقايا من المفاهيم الأصلية التي جاء بها الدين من عند الله.

وقد تدافعت هذه القيم والمفاهيم إلى أوروبا بعد الاسلام من خلال منافذ أسبانيا وجزيرة قبرص وغيرها، وقد أكسبت هذه المفاهيم - لانبعاثها من

القطر - تقيلاً كان عاملاً من عوامل النجاح الذى عرفه المجتمع الأوروبى فى مجال العمل وحسن التعامل .

ولاريب أن النظرة الإيجابية للحياة والانطلاق إلى مجال الكشف والبحث كان من معطيات الاسلام أساساً غير أن نتائجه إلى تحول إليها من بعد ، حين فصل بين الأخلاق والدين ، وفصل بين مفاهيم الاسلام فى الأخلاق والعلم وبين الحياة الاجتماعية التى تشكلت على أساس الوثنية الاغريقية ، هذا التحول له عوامله وتحدياته التى كانت المسيحية الغربية إحداها وكانت محاولة عصر التنوير والفكر اليهودى التلودى أبعد الأثر فيه .

وهنا بدأت عملية الانحراف بفصل الأخلاق عن أصلها الاصيل بالدين ، إلى الارتباط بمفهوم التطور الذى نقلها من مفهوم الثبات ودفعها إلى مفهوم جديد هو قوة الخطر الذى واجهته الفلسفة الأخلاقية المعاصرة : تلك هى الدعوى : بأن الأخلاق تختلف باختلاف العصور وأن الخير والشر والطيب والخبيث يتباين ويختلف مع تباين المجتمعات والبيئات . وأن ما يعد أخلاقاً فى مجتمع لا يعد كذلك بالنسبة لمجتمع آخر .

ولاريب كان أثر الفكر اليونانى الوثنى كبيراً فى هذا التحول الذى واجهه المجتمع الأوروبى والفكر الغربى تحولاً من الفكر المسيحى الغربى إلى الفكر الإسلامى ، ثم العودة السريعة إلى الفكر العلمى والاستقرار عنده . وكان لبطريرك دارون : والتطور الاجتماعى الذى شكله سبنسر وغيره ، والنظرية المادية كلها أكبر مصادر هذا التحول الذى استقر على هذه الصورة من النسبية الأخلاقية التى تحاول أن تفصل مفهوم الأخلاق عن الإنسان .

ويتصل هذا المفهوم أساساً بالأيولوجية اليهودية التلودية التى تعمل على دفع المجتمع البشرى إلى الإباحة والكشف واعلاء المجلس . وهذه النظرية فى

بمجموعها جزء مكمل لنظرية ماركس في التفسير المادى للتاريخ والإنتاج ومكمل  
لنظرية فرويد في التفسير الجسمى للإنسان ومكمل لنظرية العنصريات والأجناس  
البشرية ، وكلها تسير في طريق واحد وتستهدف غاية واحدة .

( ٣ )

في أوائل النهضة وفي ظل التحول في الفكر الغربى من مفاهيم المسيحية إلى  
مفاهيم النظرية المادية ، وضعت أول نظرية للأخلاق على أنها دراسة الخير  
الاسمى للإنسان .

وجرى البحث عن مقومات الخير وشروطه عند الناس باعتبارهم أفراداً  
كما جرى البحث عن طبيعة الفضيلة أو اللذة ، وتحديد مبادئ الواجب أو القانون  
الخالق ، وكان هذا أول تحول من الأخلاق المسيحية إلى الأخلاق العقلية وكان  
ينتشر قد حكم على الأخلاق المسيحية بأنها أخلاق العبيد وأنها من صنع الإنسان .  
وهنا اتجه الرأى إلى التحرر من علاقة الأخلاق بالدين ، وإقامة أخلاق مستقلة  
ولم يكن أمام الفكر الغربى إلا اقتباس النظرية الإغريقية الوثنية : وهى فكرة  
بناء قواعد الأخلاق على أساس السعادة أو اللذة أو العقل ومع ذلك فقد رأى  
الفلاسفة أن قوانين الأخلاق عامة لا تتأثر بحدود الزمان أو المكان . وقد توزعت  
مناهج الفلسفة حول مذهب السعادة ومذهب الواجب ومذهب اللقائه وكلها  
مذاهب تفصل الأخلاق عن العقائد . وتقيمها على مفاهيم عقلية محضة فذهب  
الواجب الذى يقول به كانت : يقول : اعمل ما يجب أن يكون قانوناً عاماً ،  
ومذهب السعادة يرى أن هدف الأخلاق هو تحقيق السعادة الشخصية : ومذهب  
اللقائه يرى أن الخير خير فى ذاته والشر شر فى ذاته ثم جاء سبنسر فقال أن  
غريزة حفظ النوع هى أساس الأخلاق وجاء ينتشر ليقول بمذهب القوة الذى  
يعتقد أن الأخلاق اخترعها الضعفاء ليقيدوا بها الأقوياء .

وكانت هناك الفلسفة النيرية : التى تقول ( عش من أجل غيرك ) وقد

غلب على الفلسفة الأخلاقية في هذه المرحلة مفهوم اليونان : فما قال به أفلاطون وسقراط وأرسطو وهو ( لا يخرج من دائرة السعادة التي هي راحة النفس والضمير وسرور الفرد وغبطة الجماعة ، ولقد كانت الفلسفة اليونانية في الأخلاق تقوم على أن الخير هو وسط بين شرين ، وأن الأخلاق نظرية وبجموعة من المبادئ. والمثل دون أن يكون هناك إلزام في التطبيق . وجاءت النظرية الغربية تجرد الأخلاق من فكرة الإلزام ثم لم تلبث أن ظهرت دعوة تقول أن الأمم ليست بحاجة إلى الأديان ولكنها بحاجة إلى الأخلاق . وكان ذلك علامة على فصل الدين على الأخلاق وقيام أخلاق مستقلة منفصلة وقالت الفلسفة الغربية: إن الأخلاق تختلف عن الدين ، وليس من الضروري أن كل من يعتقد في دين أن يصبح أخلاقياً ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ملحد لا أخلاق له .

\* \* \*

وكان هذا التحول خروجاً من مفاهيم الكنيسة التي استقرت في أوروبا ألف سنة والتي كانت مزيجاً من مبادئ الإغريق والرومان والعهد القديم والجديد .

( ٤ )

عندما فصل الفكر الغربي الأخلاق عن الدين واستقلت واستمدت مفهومها من العقل وحده بدأ انقسامها في مذهبين أساسيين :

أحدهما يجعل الخير أمراً مطلقاً لا يتغير بتغير الزمان والمكان والآخر يجعله أمراً نسبياً يختلف باختلاف الظروف القائمة ويرى أصحاب الرأي الأول أن الواجب الخلقى معروض بحكم العقل لا بدافع العواطف ولذلك فهو واجب على كل إنسان مهما تكن ظروفه ويرى الآخرون أن خيرية الخير



مرهونة بغايته ، فالخير هو ما يؤدي إلى السعادة وإلى اللذة وإلى المنفعة ثم يرد من خلال ذلك المثاليون والتجريبيون : المثاليون يقولون بالواجب وهو عندهم مبدأ عام مطلق ينبغي أن يلتزم به كل إنسان في كل زمان ومكان أما التجريبيون أو الواقعيون فيرون أن الأخلاق نسبية « تتغير بتغير الزمان والمكان وتختلف باختلاف الظروف والأحوال ولا تكون قط غاية في ذاتها وإنما هي وسائل لتحقيق غايات : هي تحقيق المنافع ودفع المضار »<sup>(١)</sup>.

ثم جاء تحول خطير : هو قصر الدراسات الأخلاقية على الظواهر الخلقية، ومهمة هذه المدرسة أن تصنف هذه المثل وتقرر حالتها دون أن تتجاوز مرحلة الوصف التقريرى إلى إصدار أحكام تقييمية كأن تقول هذا خير وذاك شر أو حسن ووردي. ونحو ذلك مما يخرج الباحث من نطاق العلم . فهم يرفضون البحث فيما ينبغي أن يكون لأنه غير كائن بالفعل « وجاء ليني بريل (اليهودى) وانتهى إلى رفض الأخلاق علماً معيارياً يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنسانى وأكد الأخلاق علماً واقعياً وضعياً وبهذا ينصرف من التشريع المثالى إلى دراسة الحقائق الخلقية دراسة وضعية تقريرية وبهذا تتلاشى الأخلاق النظرية وتبقى الأخلاق العملية »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

ومن حق أن يقال أن المنهج الاجتماعى أو المدرسة الاجتماعية قد أحدثت تحولاً خطيراً فى مفاهيم الأخلاق ، وهو تحول جرى بتوقيت منظم واضح مع دعوات العنصرية والتفسير المادى للتاريخ ونظرية الجلس الفرويدية وكلها نظريات سيطر عليها الفلاسفة الجدد « فلاسفة البروتوكولات » ، فى مجال التعبير الذى فرضته اليهودية التلمودية على الفكر البشرى واحتواء الفكر العربى كله

(١) دكتور توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق .

(٢) أراجيم كتاب الفلسفة الخلقية : تشابهاً وتطورها للدكتور توفيق الطويل .

بفلسفة متكاملة في جميع الجوانب : الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والنفس والأخلاق] مستمدة جميعها من النظرية المادية ، ومحاولة وضع الإنسان في صورة التجربة التي تتم على الأجناس غير البشرية (أى الحيوان) مع إعلاء الجنس واللذة والشهوات ومن هنا فقد كان منهج الأخلاق في ظل مفاهيم المسيحية ، وفي مرحلة فصل الأخلاق عن الدين ، إنما يستهدف السمو بالنفس الإنسانية وإقامة « أسلوب ، واضح وكيان » ثابت ، يفصل بين الخير والشر ، ويعلى شأن الخير وإن استمد مفاهيمه من العقل وحده . أما مدرسة المنهج الاجتماعى فقد عمدت إلى ضرب هذه الحلقة الباقية لدفع منظومة الأخلاق إلى الانفراط الكامل . وقد بدأ ذلك حين طرح ( ليفى بريل ) اليهودى نظريته فى كتابه « الأخلاق وعلم الظواهر الأخلاقية » ، فقد هاجم بريل المفهوم القديم للأخلاق وطرح منها للفصل بين المعرفة النظرية والتقدير العلية . وأعلن أن البحث الجديد للأخلاق يقتصر على دراسة الظواهر الخلقية ومعنى ذلك هو أن يتلاشى مفهوم فلسفة الأخلاق بمعنى التوجيه أو إلقاء الضوء على الخير والشر أو إقامة مثل أهلى للجمع . وهذا هو أخطر ما عمدت إليه اليهودية التلمودية لتحطيم الأخلاق فى المجتمعات وقد أشار الباحثون إلى أن هذه النظرية قد ووجهت منذ اللحظة الأولى بعواصف من النقد والاستهجان<sup>(١)</sup> فقد وجدوا فيها مساسا بقديسية الأخلاق : وكان رأيهم أن دراسة النظم الأخلاقية بطريقة العلوم الوضعية من شأنه أن يقضى على ما تكتنه النفس البشرية من احترام وتقديس لفكرة الأخلاق وكان معنى هذا أن علم الأخلاق بعد علم النفس قد سقط فى متاحف المذاهب المادية وتحت سيطرتها . ولما كانت غاية الأخلاق « إعلاء القيم التى تسمو على عالم الحس ، أى القيم الروحية ، وهى « غالباً ما تتعارض مع القيم الحسية ، فإن خضوع مثل هذا العلم للنظرية المادية من شأنه أن يحطمه نهائياً وأن يدفع إلى التحلل من كما يفسح

(١) السيد محمد بدوى : كتابه لمطور

المجال واسماً أمام تبرير الشهوات واعمال الفرائز . ولقد كان أخطر ما طرحه المنهج الاجتماعي في هذا الصدد هو : نسبية الأخلاق إلى المجتمعات والعصور ومحاولة إيجاد مبررات من التاريخ والحفريات وغيرها للقول بأن الأخلاق تختلف بين العصور وبين اليبثات .

\* \* \*

ولا ريب أن النظرية التي حل لوانها « لينى بريل » قد مرت في حلقات متعددة ، منها نظرية التطور التي وجهها سبنسر إلى التطور الاجتماعي ، وعمل على ربط « فكرة الضمير الأخلاقي » بالفكرة العامة التي تسيطر على مبدأ التطور وهي فكرة بقاء الأصلح . ووفقاً لهذا التفسير المادى يرون أن التغيرات النافعة إلى الأخلاق الخيرة التي تعود فائدتها على الأجناس البشرية فإنها تصبح استعدادات وراثية فى سلالتهم ، فالضمير الأخلاقي فى نظر أصحاب مذهب التطور قد نشأ من التغيرات التي اعترت الجنس بمحض الصدفة وتأصلت فى طريق الوراثة .

ومن ثم فقد جرى تفسير (الضمير الأخلاقي) بالرجوع إلى الحالات الجسمية للانسان .

ومن خلال مفهوم يقول : إن الفرائز هي الجنود التي تتفرغ منها الأخلاق وهذه الفرائز وراثية كشكل الجسم سواء بسواء .

\* \* \*

ومن هنا فقد أصبحت الأخلاق جبرية ، ووضعية فى نفس الوقت : يعنى أنها نسبية ( تنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا كما يتصور أن يكون ) . يقول الدكتور : السيد محمد بدوى فى معرض تصوير هذه المرحلة « ما لبثت

هذه الفكرة الجريئة أن أوضحت كثير آ من العقول التي رأت فيها انحدار أنحو  
نقى الأخلاق برمتها فإما أن يكون الخير مطلقاً وحسب مايتصورون .

ولما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر وليس هناك حل وسط ،

وكان لاريب ، للذاهب التطورية والبيولوجية أكبر الأثر فى الجنوح بهذا  
التفكير نحو الغلو والشطط فى تفسير النزعة الأخلاقية .

\* \* \*

وقد عارض ليني بريل القول بأن الطبيعة البشرية هى دائماً لاتتغير بتغير  
الزمان والمكان ، وادعى أن التفكير العلمى الحديث ( وهو يقصد بالعلمى هنا  
الفلسفات المادية ) لايقبل أن يكون الإنسان المعاصر هو الإنسان الذى يمثل الإنسان  
كله تمثيلاً صحيحاً ، ويرى العكس من ذلك : أنه إنسان من جنس خاص وفى  
عصر معين . وهو ( أى الكاتب ) بذلك يسبح ضد التيار ، وضد الفطرة دون تقدير لآى  
مفهوم عقلى أو أسلوب علمى صحيح : متجاهلاً حقيقة كبرى لا سبيل إلى تجاوزها  
هى : أن جميع أفراد الجنس البشرى توجد معهم صفات نفسية وخلقية عامة  
وأن الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا فى الصفات العرضية أما الصفات  
الجمهورية أو الطبيعية للأفراد فأنها ثابتة (١)

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت هذه الفلسفة تبرر واقع المجتمعات ، وتبرر  
الجريمة وتزين الشر بصورة الخير ، وتزخرف الإباحة وتعرض على قبولها  
دون حرج أو خوف .

ولقد عارض الباحثون المنصفون والعلماء من غير طائفة الفلسفة المادية  
واتباع اليهودية التلويديّة خطأ القول : « بنظام خاق لكل عصر » .

ولاريب أن الهدف واضح من وراء هذا التيار : هو هدم الأخلاق الدينية ودفع البشرية إلى طريق التحرر نهائياً من كل قيم الخير والفضيلة والحياة والغيرية وبذلك تتجه الفلسفة الأخلاقية للمدرسة الاجتماعية إلى هدم القانون الأخلاقي نهائياً واستباحة كل محرم .

ولاريب أن هذا هو نهاية مرحلة بدأت منذ تحولت نظرية التطور البيولوجية إلى نظرية اجتماعية ، فقد استهدفت تحرير الأخلاق من جذورها الدينية ، أو إبعادها عما يتصل بتعاليم الكنيسة وإقامتها على ما اصطلاح على تسميته بالقاعدة المستقلة . ويرى البعض أن التطوريون لم يفعلوا أكثر من استبدال « تبعية » بتبعية فقد استبدلوا علم الحياة باللاهوت كأساس للأخلاق ، وأن ذلك كان جرماً وراء صيحة نشئة في دعوته إلى أخلاق الأقوياء وأخلاق السادة ، في مواجهة ما أطلق عليه « أخلاق العبيد » ، غير أن عدداً من علماء التاريخ الطبيعي عارضوا أن يكون « التطور » مصدراً للأخلاق وفي مقدمتهم الدكتور مانيزو الذي قال أنه خطأ يفضي إلى كارثة أن ندعى أن العلم الطبيعي يستطيع أن يحل مشكلة الأخلاق ( وقد تابعه في ذلك العالم آر كيث ) وإذا كانت المسيحية تقول أن هدف وجود الإنسان في هذا العالم وفي الحياة هو تمجيد الله وتأمل حكمته فإن اليهود رجال التطور يقولون : إن كل جماعة انصرفت إلى هذا الغرض وحده تلاشت من على ظهر الأرض ومن الطبيعي أن نظرة المسيحية ليست سليمة تماماً على الوجه الأصيل لمفهوم الدين الحق وليس تفسير التطوريون اليهود صحيحاً على إطلاقه .

ويشير التطوريون إلى أن مادها إليه القديس أوغسطين من أن هدف الدين ( المسيحية ) هو إقامة مدينة الله وإرساء السلام الدائم ، أن هذا الهدف وقد مضى عليه أثنى سنة في محاولة الكنيسة المسيحية فإنه لم يتحقق . ويجب اليهود دعاة التطور : أن القوانين الإنسانية يجب أن تكون ملائمة للطبيعة البشرية وقد عارض العلماء أس الأساس في البحث كله هو أن العلم ( أى

العلم المادى ) وحده لا يستطيع الاجابة على سؤال : لماذا وجد الإنسان على ظهر الأرض .

وأن الذين يتخذون العلم وحده أسلوباً للمعرفة لا يستطيعون أن يصلوا إلى شئ. في هذا الصدد ويقول العالم البيولوجى ليونارد دارون ( حفيد دارون الجدل ) أنى أشعر أن العالم يصبح مشروها عديم الجدوى إذا كانت جهودنا المضنية لفعل الخير لا تخفى شيئاً وراءها ، أن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك إرادة حرة فلا بد أن يكون هناك شئ خارج العلم .

(٢)

### الأخلاق فى ضوء الاسلام

ينطلق مفهوم الأخلاق فى الاسلام من قيم ثابتة أساسية ترتبط بالإنسان أساساً وهى قيم لا تتغير فى أصولها لأنها ترتبط بالنفس الانسانية التى تنطلق من معتقدها فى الايمان بالله إلى التقوى والايمان والعمل ، فالأخلاق هى طابع السلوك كله وبمجموع التصرفات فى مختلف المجالات ، تقوم على العطاء والمفو والسماحة والرحمة فلا تختلف من جيل إلى جيل أو من عصر إلى عصر أو من بيئة إلى بيئة وإنما تتماثل لأنها ترتبط بالنفس الانسانية فى علاقتها بالله :

وليس فى مفهوم الاسلام أن تتطور الأخلاق أو تتغير تبعاً للأحوال الاقتصادية أو ظروف المجتمعات . وإنما الذى يتغير هى العادات وهناك تفرقة واضحة وعميقة فى الاسلام بين الأخلاق والعادات وبين القيم الأخلاقية المرتبطة بالمعقيدة وأصولها الثابتة الباقية على مدى الزمن والمترتبة بالإنسان من حيث هو مخلوق من روح ومادة وجسد ونفس ومن حيث دوافعه وخصائصه وأشواقه ، معترفة بكل ما يتصل بغيره ورغباته محقة لها فى إطار الأخلاق ، وفى دائرة واسعة مرة تكفل للنفس تأكيد

مطامعها دون أن يجرها ذلك إلى الإباحة أو التحلل أو يوقها عند الحرمان أو الكبت .

والإسلام أساساً يبنى النفس الإنسانية على الإيمان ومخافه الله ، وعلى اليسر والتوسط ، وبحول بينها وبين أن تتعدى حقوقها وحرمانها ثم يحقق مطامعها في كل مجالات الرغبة على النحو الذى لا يجاوز بها إلى الفساد والتدمير ، وبغير أن يحملها على الزهادة أو الحرمان أو المنع أو كراهية الغرائز والمطالب الجسدية وقل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، فهو أولاً يعترف بالمطالب المادية أو الغريزية ثم هو ثانياً يحققها ويكره أن ينصرف الناس عن تحقيقها بالزهادة فيها ثم هو ثالثاً يضع لها ضوابط تقي الشخصية الإنسانية شر التدمير والتحلل وبحول بينها وبين الترف .

ومن هنا فإن أزمة ما مما يسمى أزمت القلق أو الترقق لا يمكن أن تقع فى نطاق مفهوم الإسلام وتطبيقه الصحيح ومرد الاضطراب التى وقع فيه الفكر الغربى أنه انفصل عن الدين أساساً ولكنه انفصل تحت ضغط مفهوم ' غاطىء ' أضيف عليه بالزهادة وكراهية الأحاسيس الطبيعية ، ثم هو لم يعالج الأمر بالحكمة ولكنه اندفع إلى طريق أشد عنفاً ، حين اتقل من المع المقدس إلى الإباحة المطلقة .

وقد كره الإسلام الرهينة ودها إلى التقوى ، والتقوى لإباحة فى إطار الضوابط التى تحفظ النفس الإنسانية من التدمير فالإسلام لا يكبج الغرائز ولكنه يضبطها ويجعل من الأسلوب الكريم وهو الزواج منطلقاً مفتوحاً وإطاراً سليماً ولكنه يدعو إلى التزكية والترويض والتسميد والسمو بالنفس دون أن يقيمها أو يحطم فيها واحداً من أصول تركيب الإنسان ولا ريب أن فكرة تصعيد الغرائز على النحو الذى عرفته الفلسفات الحديثة مستفاد من القرآن الكريم ، ونفس ماسواها فألهما فجورها وتقواها ، قد أفاح من زكاها وقد خاب من دساها .

والأخلاق في الإسلام : لا تنفصل عن العقيدة ، فإذا انفصلت فقدت قيمتها الحقيقية وفقدت محورها الأصيل . وقد جرى بعض الباحثين المتابعين للفكر الغربي وراء القول بالحاجة إلى الأخلاق دون الحاجة إلى الدين . أو بالأخلاق منفصلة عن الدين وتلك شبهة باطلة وفدت مع المفهوم الغربي الذي أقام أخلاقاً وضعية .

أما في الإسلام فالأخلاق قاسم مشترك على المجتمع والقانون والاقتصاد والاجتماع . وهي ليست أخلاق شعادة ك مفهوم الفلسفة اليونانية ولكنها دعوة إلى بلوغ شعادة النفس بالتقوى والجمع بين العمل للدنيا والناس الجزاء في الآخرة ومبدأ الأخلاق الإسلامى قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطهير النفس وأساسه الإرادة والمسئولية والجزاء . فالأخلاق اختيار وإرادة ، وقد أطلق عليها الإسلام : الكسب والاختيار وجعلها مناهج التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقى متصفا بالطوعية ويكون صادراً عن إرادة تحب الخير . ويقرر الإسلام إن العقيدة مهما صحت وقويت فهي شيء عديم القيمة إذ لم تصبح دافعاً إلى السلوك والخلق ، ومن هنا كانت العبادات مصدراً للتهذيب الخلقى وقد وصفت الصلاة في القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولقد كان الإنسان موضع عناية رسالات السماء والكتب المنزلّة، وما يقال من أن الكتب السماوية لم تهتم به لا ينطبق على الإسلام وهو بالتالى لا يمكن الإقرار به لأن واحداً من الكتب السماوية الأخرى ليس موجوداً على صورته الأصلية. وإذا كانت الفلسفات قد غيّبت بالإنسان، فإنها قد عجزت عن استيعاب أمره فهي أما نظرت إليه نظرة مادية صرفة وحاكته إلى تجارب الحيوان والحشرات وإما إنها حاربت أهواءه وحاولت أن تدفعه إلى تحطيم ضوابطه وقيمه .



(٣)

يقرر العلماء المسلمون أن الأخلاق قواعد ثابتة لا يحددها زمان أو مكان لا تخضع لظروف ولا تغيرها أوضاع فجورها هو جوهر الكون، وهو أزلي وقاعدة أساسية، بل هي القاعدة الأساسية لنظام الكون الكبير فجور الأخلاق في الإسلام ثابت غير قابل للخضوع لأي عامل إقتصادي أو اجتماعي أو سياسي.

« وكل عقيدة لا ترتفع بمفهومها الأخلاقي إلى المستوى الكوني تسقط وتنهار وتعجز عن أن تتولد حضارة تقترب بالإنسان إلى جوهر الوجود للكون »<sup>(١)</sup>.

« إن الإنسان لا يستطيع إلا عن طريق الأخلاق والأخلاق وحدها أن ينفذ إلى الإيمان بالله، وبالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون، ويوفق بين سلوكه ونظام الكون. ولذلك فإن كل عقيدة أصيلة ثابتة الجوهر لا يمكن أن تنافي الدين أو تتعارض معه أو تنبذ الإيمان بالله.

\* \* \*

وقد صور الدكتور أحمد قواد الأهلاني الأخلاق الإسلامية فقال: إنها أخلاق تقوى بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية: أي تجنب الحرام والاقبال على الحلال: والإيثار والتقوى هما لحمه الأخلاق الإسلامية وسداها وأن هذا شيء لم يفتن له الذين ألفوا في الأخلاق الإسلامية، ووازنوا بينها وبين الأخلاق اليونانية أو الأخلاق المسيحية وكلاهما يختلفان اختلافا أساسيا عن الأخلاق الإسلامية.

ذلك أن الأساس الذي تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية يختلف عن

أساس الأخلاق الإسلامية. فالأخلاق الإسلامية ليست أخلاق سعادة وهي بغية اليونانية ولكنها أخلاق تقوى لأنها أخلاق دينية .

إن المصدر الأساسي للأخلاق الإسلامية هو القرآن والتطبيق العملي هو حياة الرسول .

وأخلاق القرآن أخلاق اجتماعية لأخلاق فردية والقرآن ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع فإذا تضاربت المصلحتان يؤثر الفرد مصالحة المجتمع ويضحى بنفسه في سبيله وأخلاق القرآن أخلاق تقوى .

ويختلف مفهوم الاسلام عن الزهد : ذلك لأن الاسلام لم يته عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيها ولم يحرم زينة الله .

وليس معنى ضوابط الاسلام الأخلاق أن يفسرها في إطارات ضيقة تجعلها جامدة تحول دون الحركة أو العمل بل رجة متسعة حتى تضمن الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية التي لو انمحت لصارت حياة الأمم متائلة جامدة لا روح فيها ولا حياة .

« والقواعد الأخلاقية الإسلامية تقيم حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشرامة ، وتبقى مرنة لكي تترك للأجيال المتعاقبة إختيار العصور التي توفق فيها بين المثل القرآنية الحازمة التي لا تقبل التزلزل ، والحالات التي تقدمها الحياة من طريق التجارب المتوالية ، والأحداث الزمنية المتعاقبة لكي تسمح للأمم بتحقيق تطوراتها من أساليب التقدم على أتم ما تكون الحرية الفكرية ، والتعبير عنها بالعبارات التي لا تلائمها دون إهمال أي جانب من جوانب المبادئ الإسلامية . »

وتقوم الأخلاق في الاسلام على أساس « الالتزام الخلقى » :

والالزام هو معقد بالمسئولية التى تتمثل فى الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة ، فاسقاط الالزام الخلقى انما يرتبط أساسا بالدعوة المادية التى تنسكرك البعث والجزاء ، والتى ترى أن الحياة الدنيا هى نهاية كل حى .

ولذلك فإن الدعاة إلى وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد أو من يتكرونها الغيبيات وأهمها اليوم الآخر ، إنما يحاولون هدم القاعدة الأخلاقية الأساسية وهى المسئولية المترتبة على الالتزام الخلقى فى الحياة الدنيا .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : « الالتزام هو العنصر الاساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية . وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها ، فإذا عدم الإلزام عدمت المسئولية وإذا عدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة .

« والخير الأخلاقى يتصف بتلك السلطة الملزمة التى يتقيد بها الجميع وتلك الضرورة التى يشعر بها المرء من وجوب تنفيذ أوامر محددة » (١) .

• • •

(١)

ويقرر القرآن الالتزام الخلقى إنطلاقاً من قاعدة ثابتة :

إن النفس الانسانية ليست شريرة فى أصلها وإن هناك قوى ومواهب إذا استخدمها الانسان وضعت فى مجال الترقية والسكالك .

---

(١) أخلاق القرآن رسالة دكتوراه بالفرنسية عام ١٩٣٦  
Lo Morale du Koran

( قد أفلح من زكّاهها وقد غاب من دساها )

وإن النفس الإنسانية قد عرفت في تكوينها الأول معنى الخير والشر :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر فإن الإنسان قادر من خلال الإيمان والتقوى والتطلع إلى رضا الله وإلى كمال الشخصية أن يكبح جماح شهواته . وهناك نداء في أعماق النفس ينهى ويأمر ، وقوة كامنة هي بمثابة قوة كاشفة .

والقرآن يدعونا إلى أن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمتها ومن خير هذه القوى : قوة الأسوة الحسنة الممثلة في الرسول صلى الله عليه وسلم « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وقد أقر الإسلام في هذا طابع المجاهدة : والنفس اللوامة ، وفتح باب المغفرة للخطأ ، ودعا إلى التيسير في الأمر فأذن للنفس بقدر طاقتها ، ولم يكلفها إلا وسعها ، وقبل منها الخطأ والاضطرار ، الخطأ دون أن يكون متعمداً والاضطرار إذا لم يكن منه بد .

\* \* \*

ويرى الدكتور دزار أنه إذا كان القانون الأخلاقي عاماً تعين أن تكون قواعد السلوك التي يفرضها علينا ثابتة لا تتغير .

والالتزام الأخلاقي في الإسلام يقوم على مراعاة حقيقة هامة تختلف عن نظريات الفلاسفة في بناء قواعد الأخلاق التي يقيمونها على مبدأ وحيد هو السعادة ( اللذة ) أو العقل . بينما لا يتحقق للأخلاق إيجابيتها إلا أن تقوم على

التوفيق بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوى ، وبين الحقيقة الواقعية التي يعيشها الناس ، أى بين المثالى والواقعى ، وبين المطلق والنسبى بحيث يتحقق للفعل الأخلاقى الثبات الذى يميز كل قانون عام ، والتنوع الذى يلائم ظروف الحياة ويشعر الإنسان بذاتيته وبحريته فى التصرف .

والالتزام الخلقى فى القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة (١) .  
فالقرآن يقرر : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

أى اعملوا ما يتردى لكم إنه الأحسن بحسب وحى الساعة .

« ليس فى الصيغة صفة الأمر الصارم الذى لا يقبل استثناءً ولا تعديلاً ، فلا يحدد تحديداً صارماً ولا يترك الجبل على الغارب » ، ومع ذلك فقد جمعت بين الاتهامين .

« من هذه الكلمات الموزونة يدعونا القرآن إلى توجيه أنظارنا نحو الله وأن نطيع أوامره وأن نعمل ما فى وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضات الحقيقة الواقعة . ومن ذلك سيحقق : (١) اتصال الحلقات . (٢) تحقيق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ما تقتضيه الطبيعة الإنسانية . (٣) تحقق الخضوع للقانون وحرية الإرادة .

« إن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة لا يحصى عنها ، وفى هذه الحال لا يؤاخذ بما فعل ، كما أن الله يصفح عنه إذا أخطأ عن غير عمد .

« وليس هليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » . هناك أشياء لم تفصل تفصيلاً واضحاً وفى هذه الحالة قد نخطئ فى تفسيرها أو تعريفها .

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : أخلاق القرآن .

و هذا الاحتمال هو نتيجة طبيعية لانسانيتنا وحرية الاختيار والتصرف التي منحناها ، وواجب المؤمن هو أن يحاول في حال الشك أن يتبين بإخلاص ما يتق من أوامر الله ، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضروري الذي وسعه . وعلى أن الأمور إذا اشتبهت علينا فمن الخير أن نتق الشبهات .

ولما سئل الرسول عن تعريف الخير والشر قال : استفت قلبك واستفت نفسك : البر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

هذا هو موقف القرآن من الالتزام الخلقي : دعوة إلى اتباع القواعد العامة التي أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للبر في نطاق التفاصيل التي تعرض لنا تبعاً لتغير ظروف الحياة .

فلا يدعى القانون الأخلاقي في القرآن أن هناك طريقة واحدة لقهم القاعدة ، وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها وأن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينهما وبين القواعد الأخرى ، فالقاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام تتزك أحياناً بعض التفاصيل دون تحديد وهنا يظهر مجال الاجتهاد الشخصي والتفسير المستقل الحر والاعتماد على ملكة العقل التي أودعها الله للناس .

فالجهود الفردية واجب في نطاق الأخلاق وهو مجهود يحبه القرآن ويدعو إليه .

و الخلاصة أن القواعد العامة للأخلاق ليست من صنعنا ، بل ، أننا قد تلقيناها من المشرع الأسمى ونستطيع أن نستنبطها من كتابه العزيز وسنة رسوله . أما الواجبات الخاصة فاتها نكيفية تبعاً لظروف حياتنا على شرط ألا نخرج بها عما رسمه لنا المثال الأعلى وأن نبذل فيها الجهد لتبين وجه الحق .

ويعرض الدكتور دراز لرأى المدرسة الاجتماعية التي تقول بأن الإنسان الذي يعيش في مجتمع معين لابد أن يعكس المبادئ الأخلاقية والعادات السائدة في مجتمعه وأن الإنسان يحكم على الأفعال والتصرفات لامن خلال ضميره فحسب بل من خلال ضمير المجتمع .

ويعجب بأن سمة الأخلاق في الإسلام : « ثبات الأخلاق ، القائم الأزلي على الخير والشر ، والعمل الطيب والعمل الخبيث .

## الفصل الثالث

### الفلسفة الاجتماعية

إذا كان (فرويد) قد تخصص في إعلاء الجنس ، (ليني بريل) في معارضة ثبات الأخلاق [ وكلاهما من عشيرة اليهودية التلودية ] فإن ثالثاً منهم هو (دوركايم) قد تخصص في إنكار نظرية الأسرة والزواج والدين والقول بأنها - أى الثلاثة - دخيلة على فطرة الإنسان .

• • •

إن الفلسفة اليهودية التلودية تعرض الشئ وحده : المنصرية والعالية ، تفسير التاريخ تفسيراً مادياً وتفسيره عن طريق علم النفس ، وتفسره عن طريق العقل الجمعي مضاداً للتفسير النفسى . وذلك من أجل إيجاد بلبلة وصراع ومن أجل تقسيم الناس إلى مصسكرات تتضارب وتتعدى ، حول أشياء خارجة عن الفطرة والعلم والعقل ، وذاهبة في ضباب الفلسفة والصياغة العلية البراقة .

فهذا يهدم الدين وهذا يهدم الأخلاق وهذا يهدم الأسرة وهو تطبيق صريح لما جاء في البروتوكولات : ولقد ربنا نجاح دارون وماركس ونيشة بالترويج لأرائهم . وأن الأثر المهدم للأخلاق الذى تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودى واضح بكل تأكيد ، وإذا كان ماركس قد رد كل شئ إلى الاقتصاد والإنتاج وجعل الفكر والثقافة والأخلاق انعكاساً لهما ، وجعل أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يحدد صورة الاجتماع ، فإن المدرسة الاجتماعية ترد كل شئ إلى المجتمع . وتلقى أثر الفرد إلغاءً كاملاً .



ومن ثم فإن دور كايم تأسيساً على ماركس وتكميلاً للبني بريل (أحدهما  
لآخر) يحاول في منهجه الاجتماعي أن يطرح ثلاث فرضيات لنظريته :

الأولى : أن الدين ليس فطرياً .

الثانية : أن الزواج والأسرة ليسا فطرين .

الثالثة : أن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها ولا هي ثابتة على وضع  
معين وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد منه .

ذلك : أن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر وليس الإنسان ويتلخص  
ما يذهب إليه إلى : أن بعض العلماء يقول بوجود عاطفة ديدية فطرية لدى  
الإنسان وأنه مزود بجد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين وحب الأبناء  
وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج  
والأسرة على هذا النحو .

ولكن : التاريخ يوقفنا على إن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان  
(ص ١٧٣ - قواعد المنهج في علم الاجتماع) .

ومن هنا [ يرب دور كايم ] : بأن مجموعة القواعد الخلقية (التي لا وجود  
لها في ذاتها) ليس من الممكن أن تصبح موضوعاً لعم الأخلاق وهو يذهب  
في هذا إلى نقطة التناقض مع ما تقول به الأديان والمناهج العلمية الأصيلة التي  
تقررت في البشرية منذ قرون طويلة : فهو يشكر أن الكيان النفسي للفرد هو  
أساس الحياة الاجتماعية ويحاول أن يفرض أن العكس هو الصواب وأن  
الحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد ، ويدعو إلى التفرقة بين الظاهرة  
النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملاً : على أساس أن تفسير الحياة من نفسية  
الفرد . وهذه محاولة لإرساء قاعدة تتعارض مع الفطرة البشرية ولا يجد دور كايم

لها من شتاد علمي أو عقلي إلا عباوته العائرة والتاريخ، والتاريخ مادة يمكن أن يأخذ منها كل باحث ما يراه مناسباً لوجهة نظره ويحجب الباقي .

## ( ٢ )

ويرد الباحثون المدرسة الاجتماعية إلى ( كانت ) الذي حاول : استناداً إلى خصومته للكنيسة الكاثوليكية أن يوجد أخلاقاً وضعية ، بعيدة عن كل فكرة دينية أو لاهوتية ، خالصة من كل مصدر ميتافيزيقي موهج ( اميل دوركايم ) متابعاً له ، في كتابه عن التربية الأخلاقية حيث أعلن الاستقلال الكامل والفصل التام للأخلاق عند الدين ، وذهب إلى ضرورة التأكيد على أن تكون التربية الأخلاقية ذات صبغة دينية محضة لا تستند إلى الديانات المنزلة . وبذلك رفضت المدرسة الاجتماعية : الأخلاق المطلقة . ونادت بأخلاق وضعية وفسيقية ثم خطا أنصار الفلسفة المادية عامة خطوة حاسمة بعد ذلك عندما أعلنوا : بأنه لا حاجة للناس إلى الدين أو إلى الأخلاق .

## ( ٣ )

واجهت فكرة إحلال علم النفس بديلاً لفلسفة الأخلاق معارضة من كثير من الباحثين فقد <sup>(١)</sup> كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مسيراً تذهب فلا ينتهي عند مجرد التفكير وإنما يمتد إلى العمل والتنفيذ ، فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك . ولا يكون لها أثر خلقى حتى يثقل إلى هذا السلوك . ولكن علم النفس حل في تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق فلهذا بين شطري الفكر وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل وبين بين العقيدة والسلوك . وقال الباحثون : إن علم النفس الحديث وضع الإنسان موضع المجبرة أمام جملة من العوامل . ودعا إلى الشك في العقيدة فلم يعد لها نفس

السلطان الذى كان فيما مضى . كذلك فإن العلماء يرون : « إن علم النفس لا يستطيع أن يخلق ( مثلاً أعلى ) لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ، ذلك لأنه علم وصنى يسير فى نطاق ضيق من التجارب التى تختلف على عقل الإنسان وحسبه » . « ولأنه علم تجريبي فقد عاجل حالات ( شاذة أو غير شاذة ) من غير أن يقيم معايير يستطيع المرأ أن يتخذها لنفسه غاية أو سيلاً . » « حينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التى كان قد استقر على الإيمان بها » واستشرى قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكون فى مبلغ عقائدهم من أنفسهم ، « فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير مستقل لأنه يتخذ من وجوده فى الجماعة ذريعة للتركة والتبرؤ ، وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يزهج إيمان الناس فى سمو المثل الأعلى . » ولم ينفرد علم النفس بين العلوم فى إنتاج هذا الجو المشبك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث والتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يعاونه فى ذلك ، ولقد تنسك التاريخ العلمى لفلسفة الخلق وجافا فكرة السلوك وأزوره من تقدير الفرد وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة ، « وقل منذ ذلك فى علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشياً فى الإرادة العامة والى تظل من أصول خلقية ، » « والحق أن علم النفس والتاريخ والاجتماع كل أولئك علوم تجريبية لاخير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها « مثلاً أعلى » ، فبى لن نريد إيماننا على سمو الفكرة ولا عقيدتنا فى سيطرة العقل على العمل .

وكلما أمعنا فى دراستنا زادتنا شكاً فى أصول الخلق وفى فلسفة الحياة فبى « تعالج » ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية ، ولكنها لا تأتى بمجديد فى قيم الأشياء ، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق .

وهى لا نبحثنا الإيمان فى فكرة من الأفكار .

« لقد أنكر العلماء قوة الخلق فى الفرد وقوة الخلق فى الجماعة . »

(٢)

## فلسفة المرأة في الفكر الغربي

ما هو مفهوم المرأة في الفكر الغربي . هذا المفهوم الذي قام عليه تعليمها وعملها وحركتها داخل المجتمع والحضارة مما أطلق عليه « تحرير المرأة » .

إن هذا المفهوم يظهر بوضوح في التفسير النفسي والاجتماعي الذي تشكله المذاهب والفلسفات المعاصرة وهو يتقرر على أسس ثلاث :

(أولاً) إن الأسرة ليست هي مفهوم الفطرة ، ولكن الاتصال الحريين الرجل والمرأة هو الفطرة .

(ثانياً) إن إطلاق حريات المرأة هو الطريق الصحيح لحركتها في المجتمع .

(ثالثاً) إن عمل المرأة هو العامل الأكبر في قدرتها على امتلاك إرادتها لإزاء الرجل .

(رابعاً) إن المرأة على قدم المساواة مع الرجل في كل الخصائص ولكن العمر في ضعفها هو الجبلولة بينها في العصور الماضية وبين ممارسة حرياتها .

(خامساً) إن من حق المرأة أن تبشر رغبتها دون حاجة إلى الزواج أو الولادة فإن هناك من وسائل الطب ما يمنع الحمل .

(سادساً) المرأة بهجة المجتمع ، ولا يتشكل المجتمع إلا باشتراكها فيه ولا تولد القصة إلا بتحرر المرأة حيث تولد القضاها والمآسى والأزمات والأحداث .

(سابعاً) إنكار الدهوة ذات الثمرة العالية إلى العفاف والبكارة وقيود البيت وإفساد الحمل والولادة لجسد المرأة .

(ثامناً) عدم التفريق بين امرأة المجتمع وبين الغانية والراقصة ، وجعل الأخيرة نموذجاً للأزلياء الحديثة وأدوات الزينة تقلدة امرأة المجتمع .

(تاسعاً) إعلاء شأن العقود المدنية في الزواج وظهور نظريات الترابط بين الرجل والمرأة بدون عقد مكتوب .

(عاشرأ) ظهور هيادات الأطباء التي تملن عن إجراء عمليات الإجهاض .

(حادى عشر) ظهور أندية المرأة ، ومشاركة الرجال والنساء في أحواض السباحة وظهور غلاطات شواطئ البحار ومسابقات جمال السيقان والقنود .

(ثاني عشر) استئراء أدب المجلس والأدب المكشوف وقصص الإباحة باعتبارها ظاهرة طبيعية في المجتمع .

(ثالث عشر) ظهور حق المرأة المستقلة اقتصادياً في حق التحرر واختيار الزوج .

(رابع عشر) الدعوة إلى إجراء تجارب اختيار الزوج قبل الزواج ويتعلق تمام الزواج بنجاح التجربة .

(خامس عشر) ظهور الدعوة إلى حق المرأة في الإثراء عن طريق التماس الرجل الباحث عن متاع الجسد .

(سادس عشر) ظهور الدعوة إلى ما يدعى صديق العائلة ، والقول بأن طوال فترة الحياة الزوجية تبعث على الملل وتدهو إلى المبادلات بين زوجات الرجال والتنوع وظهور نظرية الخليلة إلى جوار الخليلة .

(سابع عشر) إباحة الدور الخاصة لأداء الرغبة الجنسية وحمايتها ووضعها في إطار القانون والعرف الاجتماعي .

## (٢)

لأرب أن هذه المقام والأسس التي تقوم عليها فلسفة المرأة في الفكر الغربي تعطي صورة لأخطر تمويه يستهدف تدمير الأسرة وإستبعاد المرأة تحت اسم تحرير المرأة . وتكشف أهداف هذه الدعوة على أيدي الفيلسفات الحديثة التي بدأت من خلال عصر التنوير وفي ظلال الفلسفة الماسونية ومن خلال مقررات النظرية المادية أصلاً .

فإن هذه العلاقة الجديدة المقامة بين الرجل والمرأة هي على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأسرة والليت والأجيال القادمة . لقد كانت النظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودوركايم وليني بريل هي الإطار الذي شكل هذه المفاهيم ، ذلك أن محاولة تصوير الفرد البشري بصورة الحيوان والقول بأن دوافعه الأولى هي الجنس على النحو الذي طرحه فرويد كانت عاملاً لاختياراً في فلسفة المرأة التي صورتها مذاهب الفكر الغربي ونظرياته الاجتماعية المطروحة من خلال التحليل النفسي والوجودية والهلينية . إنها ليست المرأة التي كرمتها الأديان وأعل شأنها الفكر الإنساني بل هي الأداة المبدولة على نحو ما في إطار براق من الروم والمادة وبريق الذهب وتحت اسم الحرية التي لا حدود لها .

ومن هنا استطاعت هذه الفلسفة خلق عقلية جديدة للمرأة ، تصورها بصورة القادر على الحياة في المجتمع متحررة من سلطة الأب والأميرة والأوحد أيضاً ومن حيث هي قادرة على الإنفاق مادياً على نفسها ومن حيث أنها تجد مواردها التي تعيش بها فإن من حقها أن تختار الأسلوب الذي ترضاه والطريق الذي تقرره لسلكها الاجتماعي وعلاقتها بالرجل في الحياة الاجتماعية ، سواء داخل الأسرة أو خارجها كذلك فإن اختيار موانع الحمل وأدوات الأجهاض قد كفلت تأمين الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم أصبحت الفتاة قبل الزواج أو بعده قادرة على ممارسة كل رغباتها في ظل متاعه طيبة مقررته ومشروعة تعيد

دم البسكرة الأحمر إلى مكانه وتحول في نفس الوقت دون حدوث الحمل أو إزالته .

وفي هذا الاطلاق ما فيه من آثار لها نتائجها في صرف الرجل عن الزواج أو تراخيه في تكوين الأسرة أو استمرارها بعد تكوينها .

وبقرارول ديورانت مدى الآثار المترتبة على هذا الاتجاه الخطير فيقول :

« نحن غارقون في تيار من التغيير سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اجتيازها ، وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت في مدتنا الكبرى في الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر ( المقصور ) على واحدة جاذبيته الهامة ولا ريب أن زواج المتعة سيقطر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون اللسل مقصوراً وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً أم غير مباح ، ومع أن حريتها إلى جانب الرجل أميل ؛ فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من هزلة عقيمة تقضيها في ألام لا يفانها أحد ، سينهار المستوى المزدوج ، وستحت المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتردحم المدن بعضحابا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة ، وعند ما يتم تصنع المرأة ويصبح ضبط الحمل سراً شاملاً في كل طبقة يضفى الحمل أسراً عارضاً في حياة المرأة . »

\* \* \*

ومكنا يكشف واحد منهم (تلاميذ اليهودية التلمودية) الأهداف والنتائج

وبصور المستقبل الذي يطلعون إليه نتيجة هذه التجربة كلها فهو يتلى وكلمهم متبنون بما سيقع بعد أن خرجت المرأة عن منطلق الفطرة وأسلوب الفكر الإنساني الذي رسمته لها الأديان المنزلة ووصفه الإسلام في أرق الصور وأعلها قدرأ للمرأة حماية لها من أن تكون سلعة أو أداة أو وسيلة من وسائل بناء د امبراطورية الرها .

### (٣)

أن أى مراجعة صحيحة لهذه المقررات تكشف بوضوح عن أنها تتخطى الحقائق العامة وتحاول أن تفرض مفهوماً مخالفاً كل المخالفة للفطرة والحقي .

وأن الفكر الغربي حين أراد أن يتحرر من آثار المفاهيم التي كانت مفروضة عليه في ظل المسيحية والكنيسة قد تجاوز ذلك كله تجاوزاً كبيراً وذهب من النقيض إلى النقيض وعجز عن أن يوجد ذلك التوازن ذلك كله أن المسيحية كانت تجعل بذور المعادلة الصعبة التي فرضتها اليهودية التلمودية بالإتجاه المنادي بالبالغ الخطر الذي تردت فيه البشرية من قبلها فجاءت تدعو إلى الأخلاق وإلى تطهير النفس من الفساد في مواجهة الإنحلال والابتذال والفساد الذي كان مفروضاً على المجتمع الروماني .

غير أن هذه المفاهيم لم تلبث أن خرجت عن أصولها فأصبحت رهانية وتقييداً للطلاق ، ودعوة إلى الزهد وكبح الجسد ، ولعنة المرأة .

وبعد أن كانت المرأة في الدولة الرومانية تبدل أزواج ثمان في خمس سنوات فتحت أبواب الأديرة لعديد من النساء الذين آثرن الرهانية . وانتقل الأمر من النقيض إلى النقيض من تهالك على الشهوات إلى احتقار للزواج وانصراف عنه وامتهان للمرأة وإنتقاص لها في حقوقها الطبيعية وما تملك .

ثم جاء الإسلام بمفهومه الصحيح الواضح ، فانتقل إلى الغرب هنيهة بدأ



يخرج الحياة الاجتماعية والزوجية من قيودها غير أن بعض القوى التي تملك  
التغيير لم يلبث أن تجاوزت بها تجاوزاً خطيراً إلى ما وصلت إليه فلسفة المرأة  
من إلغاء الأسرة وإنكار طابعها الفطري وإلحاقها بالإجهاض وإخراج الزواج  
من وظيفته الأساسية إلى نوع من المتعة التي لا تقيدها قيود .

ودعت بعض المذاهب إلى هدم الأسرة ، وأعلنت أن نظام الأسرة نظام  
أوثق بالاعتقال والنفوذ الرأسمالي . وجاءت اليهودية التلودية فقررت مساواة  
المرأة بالرجل ، وعملت على إخراج المرأة إلى العمل وإلى الحياة الاجتماعية وإلى  
مؤسسات المسرح والسينما والأزياء وغيرها أما الإسلام فقد وضع المرأة في  
مكانها الصحيح ، وقسم العمل بين الرجل والمرأة ، ولم يفرق بينهما في الخطاب  
والثبته ، ودخل للمرأة حق التعامل والولاية على أطفالها ومنها ضمان الرجل  
لمعيشة المرأة .

وجعل للرجل القوام على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا  
من أموالهم بحيث سوى بين الرجل والمرأة ، قضى للرجل ببعض الزيادة .

[ ونحن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ] .

وهذه الزيادة مستمدة من التفوق الطبيعي في إستعداد الرجل ومن قيامه  
بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة .

ولما أحاط الإسلام تصديق الزوجات مع اشتراط العدل بينهما ، ورجح  
الاكتفاء بالزوجة الواحدة تمسك العدل بين الزوجات المتعددات [ وأن  
تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ] وقد كان تعدد الزوجات لا أحد  
له قبل الإسلام لحدده الإسلام ووضع قاعدة تجعله مستحيلاً ، وارتفع  
الإسلام بالزواج من عقد التجارة أو متعة الجسد إلى أواصر المودة والرحمة .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

وأوجب الاسلام العلم على الرجل والمرأة :

بوضع حدودا لما يكشف من جسد المرأة كالوجه والكفين .

ودعا إلى « حماية المرأة والبيت من طغيان الشهوات » ، ، وضمن الاسلام للمرأة حقوق المعاملة ، وضمن لها حقوق الميثقة بكفالة الآباء والأبناء والزواج وجعل الدرجة التي للرجل على النساء منوطة بزيادة النجعة وزيادة التكليف ، وضمن الاسلام للزواج والطلاق وحقوق المرأة أحكاما واضحة في جانب التشريع ، كما سن أحكاما واضحة في جانب الأخلاق ، .

وهكذا تبدو مفاهيم الاسلام للمرأة في مجال تحريرها الحقيقي ، ورفع شأنها وتكريمها بوصفها في مكانها الاصيل : من إقامة الأسرة وحماية البيت وتربية الأجيال .

وحال بينها وبين محاولة إخراجها عن رسالتها أو إزالتها عن مكانتها العالية أو دفعها إلى المجال المحظور لتسكن سلامة أو أداة أو كوسيلة من وسائل الشهوات .

ولقد حاولت الفلسفة المسادية النيل من نظام الأسرة ووصفه بأنه معارض للقطرة عملا للتخلص منه وجريا في طريق تدمير هذه القيم ، ولكن الأسرة كانت ومازالت وستظل أساسا متينا في النظام البشري في تقدير جميع علماء الاجتماع ومن وظائفها استمرار النوع والمحافظة عليه .

ولقد يبدو من محاولة الأغضاء عن الفوارق الطبيعية عن الرجل والمرأة ، بل الإمعان في القول بعدم وجود هذه الفوارق ، الهدف الواضح الذي يفرحه تقسيم الفصل بين الرجل والمرأة ، ذلك أن إختلاف الجنسين يلزمه إختلاف في الوظيفة .

ولا ريب إن إخراج المرأة من دورها الطبيعي إنما هو محاولة جادة للقضاء على الأجيال الجديدة وتدميرها بحيث لا تصبح قادرة على أداء دورها في الحياة . ويؤكد المؤرخون والباحثون على تلاشي أعظم المدينات إنما جله نتيجة هذا الإنحراف في فهم وظيفة المرأة وإخراجها من طبيعتها ، وقد حدث هذا بإرادة جماعة من الناس كان مهمهم إستغلال المرأة ماديا وجسديا .

ويقرر الباحثون أن المدينة الرومانية التي ورثت المدينات العالمية التي تقدمتها قد سقطت نتيجة لهذا الانحراف . وفقد وصلت إلى أوجها الأعلى ونساؤها محجبات وأعراضهن مصونة ، فلما أنس أهلها أنهم إنفردوا بالسيادة على الأرض ، مالت نفوسهم إلى الترف فأخرجوا النساء من خدروهن معارضين مع ذلك تصائح حكماهنم ، فوقعوا في الإباحة ، فأثروا الشهوات والملاذ على كل شيء فضاعت فيهم الفضائل التي أنالتهن المكانة التي حصلوا عليها فأخذوا يتدهرون حتى لم يبق فيهم جلد على تحمل أعباء الحياة وقد أفرد العلماء لبيان سقوطهم المؤلفات .

قال العلامة (لويز برول) . م . مجلة المجلات الفرنسية تحت عنوان : الفساد السياسي : « أن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان ومن الغريب المدهش أن مظاهره في الزمن السابق مشابهة تماما لمظاهره في الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة .

وقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون

بصحبة النسوة ذات الطابع الخفيفة اللاتي كان عددهن بالغاً - العدد الكثرة فصارت الحال اليوم كما كان في ذلك العهد، فترى النساء اندفن في تيار الافراط البالغ حد الجنون وراء التبرج والذات . وتشير دائرة معارف لادوس إلى هذا المعنى فتقول تحت اسم « امرأة » .

لم يسد هذا الحب الجنوني للترف النسوي الا في عهد الامبراطورية الرومانية ، أما في الأيام الاولى للجمهورية ( أى في أيام عظيمة الرومانيون ) فقد كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل الصوف ولكن البذخ تسرب الى روما يسيراً يسيراً حتى قام ( كاتون ) ينذر قومه بالخطر المحقق الذي سيلتهم كل شيء .

وبعد ذلك بمقاييل لم يقف البذخ والترف عند حد .

وقد أشار الباحثون إلى أن ما يستهدفه إخراج المرأة من فطرتها وطبيعتها ورسالتها إنما يستهدف هدم الأسرة وهو هدف أصيل من أكبر أهداف اليهودية التلودية في طريق تنفيذ مقررات بروتوكولات صهيون .

وقد حقق هذا التحول نتائج هامة ( أوردتها العلامة فريد وجدي ) وادى إلى نشوء سبع علل اجتماعية :

( أولاً ) هدم التوازن الاقتصادي والانهاء إلى أزمة شديدة الخطر تدفع الجياع لقبول المذاهب المتطرفة .

( ثانياً ) هدم الحياة البيئية وإفساد العلاقات الزوجية .

( ثالثاً ) إنتشار العروبة بسبب فساد العلاقات الزوجية .

(رابعاً) ذبوع آفة البغاء بين المجلس وقطرف النساء في التهنك والتبرج .

(خامساً) لإهمال تربية الأبناء .

(سادساً) وقوع المجلس النسوى في الفاقة (حين لا يجد العمل الخارجى ولا يمكن العودة إلى النظام البقى) .

(سابعاً) لإغراق النساء فى عرض أنفسهن الى حدافساد الأخلاق وإشاعة الفحشاء .

ولقد أشار اليكس كاريل فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) - وهو العالم البيولوجى المتحرر من نظريات الفلسفة - الى الاختلافات الطبيعية بين الرجل والمرأة فقال :

إن هذه الاختلافات لا تأتى فى الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، من وجود الرحم أو الحمل أو من طريقة التعليم ، اذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ، أنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الإنسان تعليماً واحداً وأن يمنح سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمـر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شئ بالنسبة لجهازها العصبى فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الامكان اخلال الرغبات الانسانية محلها .

ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هى فلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن فى تقدم

المحصنة أسمى من دور الرجال فيجب عاين ألا يتخاين عن وظائفهن المحددة .

وهذه هي شهادة العلم في مواجهة أخطار الفلسفة البشرية التي لا تستهدف إلا اخراج المرأة عن طبيعتها وفطرتها ووظيفتها لدفعها لتكون أداة اغراء وليتحقق بذلك هدم الأسرة وافساد الأجيال القادمة بحرمانها من رعاية الأم الكاملة .

## الفصل الرابع

### فلسفة الأدب المكشوف

كان لنظرية فرويد في النفس والجلس أنزها البعيد في الآداب والفنون ، ولم يكن الأدب المكشوف قبل ذلك غريباً على الفكر الغربي الذي يدين بمجذور قديمة تمتد إلى الفلسفة اليونانية والأدب الإغريقي .

غير أنه يمكن القول أن العصور الحديثة أعطت للأدب المكشوف طابعاً جديداً أشد عمقاً وأكثر شمولاً . فقد اعتبرت نظرية فرويد في إصلاء الجلس أساساً لكل تصرفات أبطال القصة ، واتخذت فروع النظرية صورة الحوار على نحو أريد أن تثبت هذه الآراء في الأذهان وتصبح حقائق واقعة .

ومن ثم فقد اتخذت النظرية ذات الطابع العلمي مجالاً لها في عالم الأدب والفن كمرحلة على طريق التطبيق العلمي الذي عرفته دعوتى الوجودية والهلينية .

وقد ظهر في الأدب الأوروبي على طريق الجلس : لورنس وهافلوك اليس ثم تتابع كتاب الجلس من شعراء وقصاصون وتقوم كتاباتهم على أساس فلسفة الجسم العادى والشهوات ومحاولة تقديس الجلس ومعارضة كليات العرض والشرف والشمم والآفة .

وقد قامت هذه الكتابات على أساس فلسفة تقيم الصراع بين العقل والجسم حيث يقول لورنس : أن العقل يحترق الجسم ويخشاه كما أن الجسم يمتد العقل ويعاونه .

ثم يدهو إلى تحرير الجسم من إرادة العقل (أو الدين) الذي يكبح جماحه أو يطلق له العنان حسبما يشاء .

وهو يشير إلى تجاهل الإنسان حاجات الجسد ويدعو إلى حياة جديدة للإنسان في الغابات ظنًا منه أن الحضارة قد قضت على الفطرة ولا ريب أن لورنس كان بطبيعة حياته موصوماً منحرفاً ، قد عجز عن أن يكون رجلاً ومن هنا كانت صرخته ثم جاءت أبواق الدعاية والشهرة فقذفته في ضجيج عنيف ووضعت كعبه في أيدي البنات والشباب المراهق على السواء .

حتى تقول أنتوني بيل : مؤلف كتاب لورنس : أن قصة ليدى تشارلي كتاب يدعى أن يقدم للبنات في طور التفتح ويدبغى أن يرغمن على قرائته .

والحق أن لورنس كان مضطرباً ، وكان عاجزاً عن الرجولة ، وكان السل يغزو صدره بعنف ومن هنا كانت صحبته وكتابات التي جاءت على طريق فرويد :

طريق تمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة : بل القاعدة الوحيدة وخطأ لورنس ، هو أنه عدّها القاعدة الأولى الوحيدة للحياة ، بل أن لورنس قد حاول أن يتخذها ديناً ، ونصب نفسه لهذا الدين كاهناً ومبشراً ، وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الأول ، ربما كان هذا التعصب ومداه صادراً عن هلة نفسه ، فهي ليست الإغراق في معرفة اللذة ، وإنما هي الحرمان من معرفة اللذة ،

• • •

والحقيقة أن لورنس وغيره إنما ينطلقون من المجتمع الأوربي ، ومن قيود الكنيسة ونظرة الفكر الغربي المسيحي إلى الجسد والذات وهي نظرة متمسفة تدعو إلى الرفض وتقدم هذا الجانب الطبيعي من الإنسان تقديمًا خاطئاً . كما كانت الصيحة المضادة لكل ما جاءت به الأديان والاندياع في الاتجاه المضاد .



وأن هذا أساساً هو مصدر تلك الصيحة العنيفة التي حملها فرويد ولورنس  
والتي صاحبتهما ورافقتها تعديلات خاصة استمدت أثرها من الظروف الشخصية  
لكل من هؤلاء، ويصور هذا المعنى كثير من الباحثين : « أن التعاليم الأخلاقية  
المسيحية القائمة على بعض الجسد وعلى العلو في كبح شهوات البدن الطبيعية  
لا يمكن أن تؤدي إلا إلى افساد أخلاق الأفراد وتعليمهم النفاق والكذب  
وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة الزائفة ، بينما يباشرون  
في الخفاء أوضاع وأحوال الشهوات » .

غير أن إضافة هذه النظرة إلى الفلسفة المسيحية - التي لم تكن من حقيقة  
الدين السليبي - وإنما من إضافات بعض قاداته ، لم يكن عاملاً في البحث عن  
المفهوم الصحيح لعلاقة الإنسان بمواعظه وغرآزءه وهى نظرة واجهها الاسلام  
مواجهة صريحة وحاسمة ، ومهد لها الطريق الصحيح للارواء والممارسة دون  
الوقوع فى خطأ الكبت أو فى خطأ الانحراف ، أما الذين هاجموا النظرة  
الفلسفية المسيحية فانهم كانوا إنما يلسونها ليتخذوها قنطرة ومعبراً إلى غاية بعيدة  
تمكن من وراء الدهوات الهدامة الإباحية التي حملت لوائها « اليهودية  
التلمودية » .

ومن هنا كانت تلك الدعوة إلى الحرية فى معالجة الشؤون الجنسية ،  
والدعوة إلى الحرية فى التمتع بالجسم وعبادة الجسد ، وعبادة اللذة وأطلق على  
ذلك أنه قريب من الفطرة وإن كان هو فى الحق قريب من حياة الغابات وتعديد  
المفاهيم الهليلية الإغريقية الوثنية المناهضة لطبيعة الإنسان المتوازنة .

ودعوة إلى التحرر من العقل والقيم والأخلاق وقد سارت الدعوة إلى  
تمجيد الشهوة واللذة والجمال الجسدى إلى غايتها فى شعر بودلير وجان ريشيان  
ومحاولة دفع هذه المحاولة إلى صورة من صور إعلاء عبادة الجسد فيها يشبه  
الصوفية الصالة .

غير أن هذه الدعوة المتحرقة لم تلق قبولا في محيطها نفسه ، كما وجدت معارضة في خارج محيطها ، لأنها تتعارض مع الفطرة والعقل وكل القيم الإنسانية فقد عالج الكاتب الفرنسى رومان رولان نكبة فرنسا في الحرب العالمية الأخيرة وانتهى في تحليله إلى نتيجة فلسفية رائعة : هي أن الأمم الضعيفة الأخلاق الماخنة التفكير في أدبها وخيالها يتسرب إليها الخول والاستسلام تسرب الإنحلال في الشجرة النخرة فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الويل قضت عليها جرائمه الفناكة وعرض ( اسين بلاسيوس ) فى بحثه عن تاريخ الشعب للفارسى القديم فمزا سقوط الفرس بعد أن دوخوا الأمصار إلى الضعف الخلقى الذى تمشى فى آدابهم وضروب معيشتهم منبتا صحة رأيه بشواهد عديدة تشير كلها إلى أنواع الدعارة والفحشاء والانحطاط النفسى الذى تمرغوا فى أوحالها فى سبيل ارضاء حواسهم يهدم كل قانون سام ونظام اجتماعى .

وقد كتب السياسى الأشهر مازريك إلى الوزير الفرنسى ( لويس بارثو ) ( ١٩٣١ ) ينذر بأخطار الأدب الفرنسى المكشوف فى عبادة واجهة الدلالة :

« إن أبطال قصصكم الجديدة عامة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجلىنى الشره ، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا بل قد اجتئنا هذا الضرب المأفون من الروايات العاطفية السقيمة التى لا تطلعنا فيها سوى امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذى تخدعه بشئ الحيل وهكذا فى دائرة بنسیر إنتهاء » .

وهكذا نرى أن كتاب الغرب أنفسهم عارضوا هذه النزعة ، على الصورة التى تحركت بها بالرغم من كثير من العوامل التى تحيط بهساحى قالت كاتبة أمريكية فى مؤتمر برلين : « إن الأدب الغربى مرآة فى سقف بيت الدعارة » .  
ومها حاول المبررون لهذه النزعة من أن يصورها بصورة انسانية أو يميزوا

بين أدبين أحدهما زائف يروج للتهتك ويتاجر بالشهوات وآخر يحاول أن يعطوه صفته التعبير والكشف عن المشاعر والميول فإن الأمر كله لا يخرج عن أهدافه المرسومة وغاياته المقصودة ودوافعه الآتية ، وكلها ترمى إلى أن يجعل هذه الألوان مشروعة وسائدة وهل يمكن أن يوصف الأدب المكشوف في أى صورة من صوره بأنه متصل بالميل الإنساني أو الغايات النبيلة ، وهل يمكن أن تكون الأقلام الآتية التي تنطق عن النفوس الفاحشة من أمثال لورنس وهافلوك أليس هل يمكن أن تعرف النبل أو الإنسانية وهى غريقة فى حماة الإثم والهووى ، مدرعة بمفاهيم فلسفية تبرر بها دعواها وتحاول أن تخدع بها الضعفاء والمرضى .

### (٣)

إن قضية المجلس لاتعالج من طريق الكتابة والأدب ، وإنما تعالج من طريق المتخصصين من الأطباء والعلماء . وهى من مسائل التناسليات التي يجرى تناولها بأسلوب خاص ، ولا تكون أداة في يد كل شاعر أو قصاص يحاول أن يصور ندوة طارئة أو حالة عارضة . وأن المسائل الجنسية والتناسليات تتناول أسراراً وتصف كثيراً من حالات الانحطاط والشذوذ وتلك شئون يؤدى انتشارها وذبوعها بين العامة إلى كارثة إجماعية وحقيقية مؤكدة . وهؤلاء التناسليات يشخصون الداء ويكتمون هذه الصور من وجوه النقص وضروب الشذوذ<sup>(١)</sup> .

ومن هنا فقد وجه الأطباء والعلماء النظر إلى خطر إلحاح الصحف في الحديث عن الشذوذ الجنسي وصور الحب وأحداث الأسر مما يحمل اسم الفضاخ ، لأن ذلك يلقح هواطف المجتمع بسموم خلقية شر من المخدرات<sup>(٢)</sup> ويشير الباحثون إلى أن هذا الاتجاه هو الخطر الذى ابتليت به الامبراطوريات

(١) دكتور عبد المجيد سميد .

(٢) دكتور زكي هاشمي .

الغابة كالرومانية والبيزنطية فدمرها وأنه لا بد من أن يتولى دراسات علم التناسلية إخصائون يهتمون بالمخاطر في مواضعها بما يمكن تجنبه أو الإشارة إليه . وأن هؤلاء العلماء هم الموكول إليه وظيفة الحراسة الخلقية التي تحافظ على صيانة الرغبات التناسلية من التلوث توجيه غريزة الناشئين إلى الطريق الصحيح .

### (٤)

ولربما يظن بعض الناس أن هذا التيار الذى شقه فرويد وجرى فيه الكتاب والقصاصون ، هو الغالب المسيطر ، أو أنه الحقيقة التى أصبحت المجتمعات الأوربية تسلم بها . فهناك طائفة كبيرة من العلماء لا يرون رأى فرويد ولا يجمعون جموحه . ولقد عرضوا آرائهم فى معارضة فرويد واتجاهه ومنهم الدكتور لويس بيش الطيب النفس الذى نقل عنه وجهة نظره :

يقول : إن دوافع الغريزة الجنسية دوافع غريزية فطرية تحاول أن تعبّر عن نفسها ، ولكن هذا لا يعنى أبداً أن عدم الإشباع أو على الأصح وضع هذا الإشباع فى المقام الأول من حياتنا يؤدى إلى دمار البشرية .

والواقع أن هناك ثمة رجالاً ونساءً أفلحوا فى تجنب الجنس والحياة بدونه نهائياً . وهناك آلاف النساء لم يتزوجن لأن فرصة الزواج لم تتح لهن أو لأسباب أخرى .

• والقول نفسه يسرى على رجال كثيرين لم يتزوجوا أيضاً .

• إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة . وليس هناك ثمة ضرر جسمى أو عقلى ينتج عن الامتناع عن الجنس • وقد سألتنى إحدى السيدات : هل

الجلس ضرورى لكي يتم للإنسان اتزانة العقلى ، قلت وأنا أعنى كل حرف مما أقول : بالطبع لا - إن كل ما سمعته من لغو الحديث ، إن السعادة ليست ممكنة فقط فى الزواج فهناك رجال ونساء عاشوا سعداء دون أن يمارسوا الجنس .

« ودعوني أكرر مرة أخرى أن الجنس فى أصله «مسألة عقلية» ، قبل كل شيء ، وبالرغم من أن الدافع الجنسي غريزى فينا ، وغالباً ما يطلب الإشباع إلا أنه فى معظمه ينشأ فى عقولنا قبل كل شيء ، والتفكير هو الذى يدفع الجسم إلى العمل .

« ورغم أن أغلب إجراء المثير الجنسي تتكون بتأثير العالم الخارجى ، إلا أن العقل يلعب فى ذلك دوراً كبيراً يفوق فى أغلب الأحيان الدور الذى يلعبه المثير الاصلى ، وبعبارة أخرى : إن ما تنخيله عقولنا من الجنس يكون أشد إثارة من الجنس فى واقعه الموضوعى الخارجى . « ومن ثم نستطيع أن نقول أن الكتب الجنسية وأفلام السينما والنكات الخارجية وما إلى ذلك هى المسئول الأول عن إثارة الحيوان الكامن فى أعماقنا وليس الجنس فى حد ذاته . « وفى إمكان الفرد أن يظل أسبوعاً أو شهراً دون أن يفكر فى الجنس ، ولقد اكتشفت أن الجنس ليس إلا فكرة فى رأسى ، أن التخيل هو من نتاج الذهن يلعب دوره الرئيسى بالنسبة لدوافع الإنسان الجنسية ، وما أكثر الصور المحمومة غير الواقعة التى يقدمها لنا . « إن العقل هو مفتاح الطريق لحل المشاكل الجنسية ، وهو الوسيلة الفعالة التى فى إمكانك تسخيرها لمصلحتك . « وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذى لن يضر شيئاً . »

ولأريب أن هذه الصورة التي يمكن أن يقال أن العلم فيها كان  
 متحرراً من كل القيود والخلقيات تصور مفهوماً قريباً من مفهوم الدين  
 الذي قرر أن الكظم لاشيء فيه مطلقاً وأن الإنسان قادر بالتحكم في عقله  
 ونفسه وبالتقوى والخوف من الله ومراعاة حدوده وعدم تخطيها أن يواجه  
 أزمة المجلس على النحو الذي يجعل كل ما كتب عنه عبارة من صرخات الشواذ  
 أو أصحاب الدوافع الخطيرة.

## الفصل الخامس

### الفلسفة الوجودية

من خلال مفاهيم فرويد في الجنس والنفس ودور كايم ولبني بربل في الاجتماع والأخلاق نشأت فلسفة تطبيقية : هي الفلسفة الوجودية التي تحولت الى حركة واتخذت من الكهوف وأندية العرى وغيرها مجالا لإبراز أجيال من الذين اتخذوا من هذه المفاهيم منطلقاً لحياتهم وعقائد لساوكمهم . وقدمرت الفلسفة الوجودية في مرحلتين : مرحلة الرفض للمجتمعات ثم مرحلة الغنيان والتمرد والغربة والعيب واللامعقول وكانت الفلسفة الوجودية في مجموعها وهي المنطلق للدعوة التي جاءت بعدها وهي : « الهيبة » التي أخذت تسود المجتمعات الغربية في السبعينات من القرن العشرين .

\* \* \*

تركز الفلسفة الوجودية على الإنسان حيث تركز الفلسفة السيكولوجية على النفس والجنس ، بينما تركز الفلسفات الاجتماعية على الأخلاق والمجتمع ، وحيث تركز الماركسية على الإقتصاد والإنتاج وهي في مجموعها تحاول خلق تضارب وصراع شديدين : ولا يجمعها جامع في الأصل انها جميعاً تستمد جذورها من الفلسفة المادية ومفهوم التطور . وتقوم نظرتها الى الإنسان على أنه جسد تنطبق عليه تجارب الحشرات والأنعام .

وتهتم الفلسفة الوجودية بالدعوة الى تحرير الإنسان من كل القيود :

قيود المجتمع وقبود الأديان والأخلاق في محاولة للوصول به الى الغربة

والأبأس . وان الحياة لا معنى لها ولا قيمة فالوجودية هى محاولة للانفصال التام عن كل قيم الدين والمجتمعات ومسئولياتها لكي يصبح الإنسان حراً طليقاً سيد نفسه ويستمد سارتر فلسفته من داخل نفسه ، ومن تحدياته الشخصية ، التى تعرضت لها حياته ( كما استمد فرويد فلسفته ومفاهيمه ) . يقول سارتر : لقد صنعت ذاتى لاقى لم أكن إبناً لأحد ، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه واليوم كغد والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشيء ولا لذة لشيء ولا أمل فى شيء . وتحاول الوجودية أن ترسم طريقاً للإنسان : تضع فيه الناس بوصفه سيد العالم ، الحر الطليق الذى ليست عليه رقابة لأحد ، ولا مسئولية عليه لأحد ، يفعل ما يشاء دون حدود ، وينطلق وراء رغباته وغرائزه فالإنسان محكوم أعليه بالحرية ، دون أن يكون خاضعاً لآية سلطة ، والإنسان وجد ذاتياً ويحميا ذاتياً وليس فعل فاعل ولا عبودية عليه لأحد وكل انسان يكيف نفسه حسب مشيئته ، وحتى ماضى الإنسان لا يسيطر عليه منه شيء الا ما يريد هو ، فهو الذى يحكم نفسه بنفسه وهو الذى يوجه نفسه لما يريد فى المستقبل . وأن كل انسان يستطيع أن يعيش على النحو الذى يريد غير متقيد بنية أو تربية أو أشياء ماضية وهكذا تسمى مفاهيم الوجودية كما صورها سارتر وكامى وغيرهم منطلقة الى أبعد مدى من تصور الحرية للإنسان الذى يعيش داخل مجتمعات ونظم وأوضاع وعقائد ليس من السهل عليه أن يتحرر منها على هذا النحو .

## (٢)

بدأت الفكرة الوجودية من خلال كتابات كيركجارد ثم تمحوات من خلال كتابات هيدجر نحو الإلحاد ثم جاء سارتر فوسع النظرية وعمقها وصحبها فى قالب روائى مسرحى . ومضى على الطريق كثيرون منهم البير كامى وغيره .

وتوصف وجودية كيركجارد بالوجودية المسيحية ، أو ثورة على المسيحية الغربية يمكن أن تؤصل تاريخياً بأن توضع فى صف تلك الثورات التى تعرضت لها المسيحية الغربية كثورة نيتشه وثورة ماركس .



فقد حمل كيركجارد في مؤلفاته العشرين على معتقدات مجتمعه الديني حلة عنيفة وهاجم الكنيسة ودعا الناس إلى الإيمان بأنفسهم .

ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية ومحاولة لهدمها وحرباً سافرة على الأديان كلها . ويربط بعض الباحثين الدعوة الوجودية أساساً منذ أغانها كيركجارد بمجموعة التحديات التي واجهت المسيحية الغربية والكنيسة .

يقول أحد الباحثين في هذا الصدد :<sup>(١)</sup>

« أن الحياة ليست بذات قيمة في النظر المسيحي . وعلى حساب الطبيعة البشرية صحنى المسيحي بحياته الأرضية ليكسب الخلود الإلهي ، واعتبر كل ما هو مادي خطيئة يجب بترها . وأول هذه الخطايا الجسد الإنساني « هذا جسمنا المجنون الشيطاني ذو الآلاف شهوة » .

أن مملكة المسيحي ليست في هذا العالم ، والحياة الحقيقية هي الحياة الخالدة وهي تبدأ بعيداً عن الأرض ، في السماء « انزوى وأصبح مثاله الأعلى هو التصوف : ذلك الرجل الذي نقي غرائزه في سقف ديره المنعزل وأقام من نفسه في قلب الصحراء شاهداً على سخف فكرة الإنسان » .

ومعنى هذا أن الوجودية إنما جاءت بمثابة رد على الزهادة المسيحية التي قاومها الفكر الغربي ذى الجذور الوثنية الإغريقية . ثم لم تلبث هذه الوجودية أن خرجت في صورتها التي حاول سارتر أن يرسم مخططها ، خروجاً كاملاً على الأديان وعلى المسيحية ومعارضاً لمسل فكرة تتصل بالعقائد الإلهية وواضحاً الإنسان في مقابل الله على حد تصويره وتعبيره : [ الإله موجود فالإنسان عدم وإذا كان وجود الله يلغى الإنسان وجب إذن إلغاء الله ليوحد الإنسان ] .

وقد ذهب سارتر إلى أبعد المدى في هذه المفاهيم التي لاتوافق الفطرة أو العقل أو أصول العلم ومناهجه في محاولة جريئة لطرح مفاهيم ملحدة ويستلهم سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ويمرر على نفس نهج فرويد في اتخاذ الأساطير اليونانية منطلقاً لأرائه .

ومن الحق أن هذا التيار الذي غلب على الفكر الغربي كله ، إنما جاء تبعاً للصورة الأخيرة التي فرضتها الكنيسة للسيحية الغربية هي ذلك النحو الذي بعد بها عن الاستجابة لطباع النفوس ، من خلال تعقيدات العقيدة ومن الإشارة إلى أسرار لاتعرفها إلا الكنيسة ومن جبرية ووصاية على الفكر البشري ، كل هذا باعدين الفكر الغربي بعد تحولاته تأثراً بالعلم ومقرراته إلى فلسفة حديثة مضطربة تحاول أن تخلق نهجاً فكرياً يحل محل الدين ، دون أن تصل إلى ذلك ، لأمرين : لأنها تتخذ منطلقها من خصومة عنيفة وتمسب بالغ في مواجهة كل ما يتصل بالدين ، ثم كان لما وراء ذلك من محاولات ( اليهودية التلويديّة ) وعدائها القديم للسيحية أبعد الأثر في تعمق هذا الاتجاه ، ومن ثم في سيطرة المفكرين اليهود على الفكر الغربي كله واحتواء الفكر الغربي للمسيحي والجملة عليه على هذا النحو الذي لم يدع منهجاً من مناهج الفكر :

سواء في الماركسية أو خلال علم النفس أو علوم الاجتماع أو من خلال الوجودية .

ولقد جاءت الوجودية في ظل تحديين خطرين : الأول هو الموت بالحرب على النحو الذي شهدته أوروبا في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وما لازال يهدد البشرية بحرب نووية . مما هز النفس الأوروبية التي كانت قد استغرقت كل علاقة لها بالدين والايمان . أما التحدي الآخر فهو هؤلاء الكتاب أنفسهم وسرائر حياتهم ودوافعهم البعيدة الأثر في إنتاجهم ، من أمثال نيتشه وكيركجارد وفرويد وسارتر ، وكلهم موصومون في حياتهم على نحو خافق في نفوسهم غصة وفي كتاباتهم مرارة .

ثم كان للقوى الأخرى التي حملت رياح هذه الأخطار والدعوات فنثرتها في كل مكان وأعلت من شأنها بالنسبة لأراء ونظريات أخرى أخفت أصواتها لأنها لا تتخمد أهداف اليهودية التلودية ومخططاتها الواسع العميق وأن إلقاء نظرة سريعة إلى حياة هؤلاء الكتاب لتؤكد أنهم في تقدير البحث العلمى غير صالحون لأن يكونوا من قادة الفكر . فلام في الطليعة من الأبرار الذين يحفزهم إيمان بالإنسانية أو يتطلعون إلى تقديم إضافات لرفع مستوى البشرية أو هداها ، وللام من العقل أو الحكمة في المحل الأول فانهم مضطربون عصبياء ، قد صدمتهم أحداث الحياة بكثير من الأزمات التي حملت نفوسهم المرارة والحقد على المجتمعات فاندفعوا إلى هدمها .

إن مثل هذه النظرة ضرورية للحكم على مثل هذه الصيحات التي تعارض رقى البشرية وتدفعها إلى ظلمات الغابات والجحور مرتدة بها عن التوحيد والايان إلى مناهج غاية في القسوة والضياع وسارتر كما تصفه سيمون دى بوفوار (ألقى الناس به) : كان يكره الحقوق والواجبات وكل شىء رصين في الحياة وهو لا يكاد يهضم أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون أبداً رب أسرة حق ولا رجلاً متزوجاً ، لم يكن سارتر يرى في الزواج شيئاً عظيماً ، كان فوضوياً أكثر منه ثورياً ، كان يمد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتقراً ، ويمكن القول بأن كل ماذهب إليه سارتر في فلسفة إنما استمدته من تحديات حياته الخاصة يقول أحد الباحثين : « لعل من أسباب نزعة سارتر ، أنه ولد حيث لا أب ولا أم ولا أسرة ، أبوه مات في شهره الثالث ، أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبداً بسلطان أمومتها ، والأسرة لا تعتمدى جدين صجوزين يؤيانه هو وأمه ويشعرانها بأنهما ضائعتان . » وكان ينظر إلى البشرية نظرية مائتة بمطاف مشوه أساسه الاحتمار

أنكر الكنيسة: يقول كنت كاثوليكيًا وفي نفس الوقت بروتستانتيًا، أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالة وهو الطفل المنبوذ في مجتمع بقية الأطفال العاديين .

هذا هو التحدى الذى دفع سارتر إلى أن يحمل تلك الحملات العنيفة على الدين، فقد عجز هذا الدين أن يعطيه فى حياته الأمن والطمأنينة، فاندفع يحول هذه الصيحة الذاتية إلى صيحة عامة، قد تجد لها صدى بعيد .

ولقد كان كيركجورد يقاسى مثل هذا التحدى : أمه خادمة تزوجها أبيه سراً وكان إلى ذلك أحداً ، مما ضاعف علته النفسية، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص، فاعتزل المجتمع وعاداه، وكانت مؤلفاته العشرين هجوماً على معتقدات مجتمعه .

ولم يكن نيتشه أسعد فى حياته من رساير وكيركجارد، ولا أقل منهما عقداً نفسية بسبب سوء صحته، وقد كتب ما كتب وهو طريح عليل فى المستشفيات داعياً إلى دين القوة ونبد فضائل الضعف من حذب ورحمة ورفق الضعفاء، وهجوم لا حد له على الدين وعلى المسجد بالذات .

ولقد كانت وجهة هؤلاء جميعاً مقاومة الاعتقاد بالله فى أديانهم، ولم تكن صورة « الله » فى عقائدهم هى الصورة المثلث ولا الصورة الحقيقية .

فقد اختلطت فيها البشرية بالالهوية، ثم علت البشرية، ومن ثم فتحت الطريق أمام افتراض أن يكون الإنسان هو الاله، وهو سيد نفسه، ومن هنا كانت صيحة الفلسفة الغربية إلى ما أسماه « إلغاء وجود الاله » .

وقد أشاح سارتر إلى محاولة تحليل وجود العالم، بين القول بأنه قديم أو محدث، ومضت تلك المراحل إلى القول : « بأن هذا العالم وجد بلا داع ويمضى لغير غاية » .

وقد صور سارتر هذه المعانى فى كتابه الكينونة والعدم، وقصة الغنيان، وإذا كانت تحديات الدين فى الغرب قد كانت بعيدة الأثر فى مأساة حياة سارتر وكيركجارد ونيتشه وفى فكرهما فإن أزمة العصر أيضاً قد امتدت إلى أهبام

أخرى في التقدم التكنولوجي نفسه الذي يتصور الإنسان ترسا في ملكية أو تملكة بغير في جهل .

لقد عجزت المعطيات الدينية والفكرية في الغرب أن تقدم شيئا للنفوس التي واجهت الفراغ الروحي بعد الحرب والفرع الشديد من أخطار الحروب النووية ، وكان الاتجاه مع الوجودية إلى أنكار كل مقدس ، أو فتح أبواب الحرية على مصاريعها دون أي قيد من العوامل التي حاولت اليهودية الصهيونية أن تفرى بها الأجيال كطريق للحياة ولكن السنوات التي مرت على هذه التجربة كشفت عن زيفها وعن أنها لم تحقق أكثر من أن زادت موجه البلبلة والفك والحريرة والحدود والمفترق ، ذلك أن الفلسفة الوجودية لم تقدم شيئا بناء بشكل النفوس من جديد أو يبعث فيها الطمأنينة ، وإنما قدمت مضمرا ما مشائما مغرقا الحقد على البشرية يصور مستقبلها مظلم حالك الظلام وجاوت أن تمت في النفوس أن الإنسان ضائع ، وأنه خلق ليقاسى العذاب . ويعيش في الفراغ ، فهي لم تزعج الأمل في النفوس ولم تعمل عملا إيجابيا أو جديدا يفتح الإفاق إلى ضياء جديد .

(٣٢)

تواجه الوجودية كل القيم البشرية المطروحة بالرفض ، فهي ترفض القديم والجديد معا ، وترفض التراث وتدعو إلى التحرر من القيم المتوارثة البالية ( ونعني هنا تراث المسيحية الغربية والكنيسة ) وهي في نفس الوقت ترفض سيطرة المادة وبقية التفكير العقلي وتنكر المبالغة في تأليه العلم وتقديره وتسخير في إشعال الحروب والتسابق الذري ، وهي في نفس الوقت التي تتهاجم فيه رجال الدين المسيحي الذين يقول عنهم سارتر ( الذين لا يعرفون من الدين إلا قدوره ، الذين تركوا مبادئه السامية وأخفوا ثقافتهم وراء ملابسهم الكهنوتية الفضفاضة والهاياب الملبى والكتاب المقدس ) وبينما يهاجم سارتر ( ١٣٢ - الأيديولوجيات والطقوس )

ما يستخدمونه من وسائل لما يصفه بأنه مخادعة الشعب وابتزاز أمواله ، بينما يقول هذا عما يفهم منه أن الدين حق وأن رجاله هم الذين أخطأوا ، نرى دلالة إيمان الناس في أقدم مقدساتها بالقول بأن الناس هم الذين خلقوا الله ( سبحانه جل وعلا ) وليس الله هو الذى خلقهم كذلك نجد الوجودية وهى تنسب قدرة العقل على تعدى حدود الظواهر والمحسوسات ثم هى فى نفس الوقت تدعو إلى التشاؤم فهى تهاجم المثالية والمادية فى نفس الوقت . وتهاجم الدين والحضارة . والعلم والأخلاق .

ولكنها تكشف حقائق لا بد منها فهى تقول أن اليأس والفرق النفسى الذى يمر به العالم اليوم إنما ولده الخواء الروحى والفراغ<sup>(١)</sup> ويمكن القول بأن الوجودية هى صيحة احتجاج ضد الدين كما فهمت أورها وضد طغيان الجماعية وتهوينها من شأن الفرد ، وأنها كشفت كثيراً من أخطار الفكر الغربى والمجتمع الغربى وتحدياته ، ولكنها لم تستطع أن تجد الطريق الصحيح ، وإنما انحرف بها الهدى فبلغت غاية الاضطراب حين دعت إلى رفض الحياة كلها ، وحين دعت إلى قطع آخر علاقات الضوابط ، والمثل والمقائد والقيم واتجهت إلى فلسفة الكهوف والغرائز وظلام المصور البدائية الشاذة .

#### (٤)

إن إلقاء نظرة واسعة مستفيضة إلى الفلسفة الوجودية تكشف عن حساسة العاطفة واندفاع الوجدان ، وضيق الأفق ، والعجز عن النظرة المستوعبة والإحساس بأن العالم يستطيع أن يغير نفسه أو أن يخرج عن إطاره العام سواء أكان هذا الإطار تاريخياً أو اجتماعياً . إذ كيف يعرف الإنسان نفسه بنفسه دون أن يستعين على ذلك بتاريخ أو فكر أو عقيدة أو منهج للمعرفة وكيف يستطيع

الإنسان أن ينتزع نفسه من ماضى البشرية كله وأن يعيد النظر من جديد في المجتمع الإنساني وقيم العالم الذى يعيش فيه دون أن يكون معه أداة ذلك من عقل أو دين أو تجربة سابقة أو خبرة العلم أو بضاعة الوجدان والفطرة . إن الدعوة إلى الانسلاخ من الأسيرة البشرية والشك فى التراث ، والتحلل من العقائد والتقاليد والقيم جميعاً لن تمكن الإنسان من معرفة نفسه بنفسه ولن تقدم له أى زاد للحياة أو أى أسلوب للفهم أو المعرفة . ولاشك أن هذه العبارات على سذاجتها تدل على اندفاع وحاس و غضب ولا تصور منهجاً فلسفياً يمكن أن ينظر إليه نظرة المراجعة أو التقييم الصحيح ، وكيف يمكن أن يتحرر الإنسان من كل رابطة أو علاقة أو عقيدة ، فإن ذلك كله لن يحقق الحرية المنشودة للإنسان، بل إن هذه الدعوة لن تحرر الإنسان من الأزمة التى يعانيها بل هى ستدفعه إلى هوة مظلمة من اليأس والقنوط . ومن هنا كانت معارضة الفلسفة الوجودية للفطرة الإنسانية ولمنطلقات البشرية إلى التقدم والبناء والحياة . وقد صدق دكتور روجيه جارودى : حين وصف الوجودية بأنها فلسفة هدم لآبناء ومحاولة لتدمير الشخصية الإنسانية وإسقاط النفس البشرية فى مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها .

ولقد كان ( جاز برك ) أعمق فهمها حين قال : إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يثبت الإنسان أن يخطاها وهى ليست روحاً ( Essence ) .

• • •

ولقد أجمع الباحثون على بواعث الفلسفة الوجودية ، وعلى مصادرها .

أما بواعثها فهى أنها لبنة فى مخطط اليهودية التلمودية التى تحاول أن تحطم القيم والأديان والأخلاق . أما مصادرها فهى الشخصيات الموصومة ، غير السوية المتميزة بالقلق والحيرة ، والله لها من تجاربها الذاتية تعديات شاه

أصحابها أن يفرضوها على الفكر ثم جاءت القوى المصدرة للفكر فأذاختها ودقت لها الطبول . وهي في مجموعها تقوم على اليأس من الحياة . ولذلك أطلق عليها اسم فلسفة الدم والانهلال وهي تقوم على التحلل من كل القيم والضوابط وتستمد وجودها من الفلسفة المادية تقوم كرد فعل للفلسفة الجماعية في محاولة لإعلاء الفردية على حد يعتبر بعض الباحثين : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ويعيش أصلاً في الوجودية . وهي في مواجهة قول ماركس : تضحية المجتمع في سبيل الفرد وتقوم على نفس الأسس التي قلمت على مختلف الفلسفات الماسونية اليهودية التلودية التي عمدت إلى احتواء الفكر الغربي والسيطرة عليه : إنكار للإله وإنكار البعث والجزاء وإنكار الأخلاق والمهمل من الموت . وهي تهاجم العقل بهجوماً تاماً ، وتدعو إلى قتل التفكير وإلغاء استخدام العقل . وترى أن أسلوب التمرد تقوم على قتل العقل والمنطق ، وترى أن الإنسان لا يستطيع أن يصيحه .

## (٥)

أجمعت المراجعات التي عرضت للوجودية على حقائق هامة :

(أولاً) إنكار الوجودية كل محصول البشرية من التجارب في الماضي ، فهي لا تطلب به وتنادى بضرورة تجاهله ، وأن يبدأ الإنسان من جديد تماماً كالإنسان البدائي . وهي تحقر العلم وتنكر قيمته . ولا تقدم مضموناً بناءاً بعد هدما لكل القيم .

(ثانياً) إنكارها للواقع الإنساني ، والتاريخ الاجتماعي كله لأنها تنطلق من مفهوم الوجود الذاتي الفردي . وهي تجعل الذات الفردية عنصراً منعزلاً ومستقلاً تماماً عن الوجود العام لأجزائه .



( ثانياً ) تقوم الأخلاق في الوجودية على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة في الموت والغموض والآتالية المفرطة .

( رابعاً ) دعت الوجودية من خلال كتابات قادتها إلى :

التفكير والتحليل والفوضوية واللااخلاقية ( كيركارد ) ثم انتقلوا إلى مرحلة أشد عنفاً في الاستنار بكل القيم والخروج من حيز الفكر إلى حيز التطبيق بمثابة في كهوف الوجوديين حيث يستعرض لونا مرضباً بشعاً من الحياة .

( خامساً ) ألهم الأدب الوجودي ( في القنوط والشعر ) والفن الوجودي في الرسم والسينما وكذلك الصحافة بطابع البدائية المفرقة في الإباحة . من أقلام جلية ومجلات عارية تحمل صورا غاية في الإباحة .

( سادساً ) ظهور الحقبة الدفين على الكنيسة فقد اتخذت الفلسفة الوجودية من الديانة هدفاً لجلالاتها .

( سابعاً ) مهدت الوجودية إلى عزل الإنسان عن الجماعة وركزت على إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية وأنكرت القيم الخالدة .

( ثامناً ) دعت إلى تحقيق الذات بإطلاق القوى النفسية والفردية بدون قيد .

( تاسعاً ) التجرد من القيم والمبادئ التي قدمتها الأديان المنزلة للبشرية في مجال العقيدة والأخلاق .

الفلسفة الوجودية حلقة من حلقات الفلسفة الماسونية اليهودية التلويديّة ؛ ومن هنا فعلينا أن نضعها في مكانها ونصنفها في هذه السلسلة المتتابعة من المدارس الحديثة في أوروبا<sup>(١)</sup> . ولن نفهم المدارس الحديثة في أوروبا ما لم نفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، وهي أن أصبغاً من الأصابع اليهودية كأمّة وراء كل دهوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترى إلى هدم القواعد التي يقوم على مجتمع الإنسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان . واليهودي دوركايم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب .

« واليهودي - أو النصف يهودي - سارتر وراء الوجودية التي جاءت ممززة لكرامة الفرد ، لجرح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بأفات القنوط والانحلال ، ومن الخير أن ندرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلها شاع في أوربه مذهب جديد ، ولكن من الشر أن تدرس بتأويلها وظواهرها دون ماوراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود . وقل مثل ذلك في العلامة سيجموند فرويد اليهودي الذي هو من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية والحلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي تبطل قداسها ويضلل الإنسان منها ويرده منها ويسلب الإنسان الإيمان بسموها مادامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه وبهذا تتخطى نظره صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وماوراءه ، ويرد البعض الوجودية إلى المسيحية : يقول الدكتور غلاب : إن منشأ القلق بل النعم أحياناً عند أولئك المفكرين

هو أن المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء، بل إن العقيدة التسليرية كثيراً ما تتطلب تخلي العكر عن رسالته، لأن بعض مبادئها تصطدم مع العقل الذي لم يعد لقبولها. وقال غلاب : إن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ وحياتهم الخاصة آتية بالاضطراب (كبير كجورد - جابريل مارسيل - سارتر).

• • •

ويرد بعض الباحثين ظاهرة القلق كلها إلى الفلسفات ، ويرى البعض أن الوجودية قد جاءت في خاتمة الفلسفات لترفض النظم الفلسفية جميعاً .

كانت هذه الحجة في رد على ما قلناه من ان الحياة ليست هي الحياة الحقيقية بل هي الحياة  
 الظاهرية ، وقد قلنا ان الحياة الحقيقية هي التي لا تموت ، والحياة الظاهرية هي التي تموت ،  
 فالحياة الحقيقية هي التي لا تموت ، والحياة الظاهرية هي التي تموت ، فالحياة الحقيقية هي التي لا تموت ،  
 والحياة الظاهرية هي التي تموت ، فالحياة الحقيقية هي التي لا تموت ، والحياة الظاهرية هي التي تموت ،  
**الفصل السابع**  
**الفلسفة الهيئية**

كان لابد أن تشر دعوات الجسد والنفس ، وكتابات الأدب  
 المكشوفة في القصة أولاً بعيدة الأثر في المجتمعات الأدبية ، فتمثلت في صورتين  
 متباينتين : إحداهما هي الفلسفة الهيئية ، والأخرى هي الفلسفة الأخلاقية ،  
 والوجودية والهيئية .

أما الوجودية فقد عاشت في غلام الكهوف أما الهيئية فقد تلتها لتفرض  
 وجودها على المجتمعات وتدفع بأقصى قوتها من خلال الأزياء والملابس ،  
 ومن خلال إطلاق النفوس والأجساد بما يشبه العودة إلى الصورة البدائية  
 لإنسان العصابة والعودة إلى صورة الحيوان وذلك استمداداً من فلسفة تقوم  
 على رفض المجتمعات والآداب والقيم والأخلاق . والدعوة إلى الانحلال  
 والإباحة .

وقد كان هذا التطور طبعياً في الفكر الغربي والمجتمع الغربي وأمر لابد  
 منه كنتيجة للفلسفة التي فرضتها عوامل كثيرة والتي توالت وتتابعت منذ وقت  
 طويل من خلال الفلسفة المادية وإنكار مختلف القيم المستمدة من الأديان  
 والقائمة على الاعتراف بالله والأنبياء واليوم الآخر وسميان روح الانسكار  
 والسخرية بكل ما يتصل بالغيب أو ما ليس محسوساً واستعلاء الفلسفة على العلم  
 وخروجهما من أيدي المفكرين الغربيين المسيحيين إلى اليهود ، الذين حملوها  
 ومعهم كثير من غيرهم من خلال المحافل الماسونية ، في نطاق أهداف

اليهودية التلويديّة الطامحة في السيطرة على العالم بعد تدميره، وخرابه وإيقاعه  
الانحلال به .

ولن أقلّ مراجعة لبروتوكولات صيئون لتكشف عن أن ما بلغت الفلسفة  
الهيبية وما أعلنته إنما هو واحدة من هذه الخطوات الجريئة في مخطط طويل  
يؤتى ثمرته مرحلة بعد مرحلة .

فالفلسفة الهيبية تقوم في الأساس على قوائم ثلاث .

× الفلسفة المادية .

× فلسفة الجنس والنفس الفرويدية .

× فلسفة دوركايم ولبني بريل القائلة بأن الأخلاق غير ثابتة .

فإذا تدرج الفكر الغربي من إنكار البحث فإن ما يتبع ذلك هو أن الحياة  
هي كل شيء ، وإذا كانت الحرية هي الانطلاق وما دام ليس هناك مسئولية أو  
جزاء فانه ليس هناك التزام أخلاقي ، وإذا كان الجنس في رأى فرويد هو مصدر  
كل المشاعر والتصرفات ، فإن الإنسان ليس سوى خيسوان ، وإذا كانت  
الأخلاق غير ثابتة على حد قولهم فإن المجتمعات أن تلتئم من الأخلاق  
ما يناسبها . كل هذا كان لابد أن يشكل حركة تندفع بالشباب الى كل رغبة  
وغاية ومطمح على النحو الذي دعت اليه الوجودية ، فإذا اندفعت المجموعات الى  
ذلك لم تلم أن تجد فراغاً عتيقاً ، ووحشة مقبضة ، تجعلها ترفض الحياة .

وهنا تكون الهيبية واقعاً لهذه المجموعات التي وصلت الى آخر حلقة من  
حلقات ذلك السباق الجنوني فإذا بها لا تجد شيئاً ، بل تجد الرفض الكامل للحياة  
والمجتمعات والقيم والأدب والفنون جميعاً .

وهنا نجد هذا الشعور بالفرقة والوحشة والتمزق والشك والتهتان ، ومن هنا

علت على سطح المجتمعات : جماعات أشبه بجماعات النور القديمة ، بمنزلة الملابس وقد تركت شعورها حتى نمت نموا كبيرا ، مع إنصراف عن الماء ، فتراكت الأقدار وبدت روائح كريهة من خلال الأجساد والملابس .

( ٢ )

إذا راجعت كلمة هيز في اللغة ( Hippism ) وجدنا أن معناها منطبق حقا على هذه الصورة : فهي تعني ( سوء الخلق ) وهو مأخوذ من اللغة اليونانية القديمة ( Hypochondriacal ) وهي صفة كل فرد يعاني اضطراباً عقلياً يؤدي به إلى الإنقباض والكآبة ويصل به إلى داء السوداء ( الميتاخولي ) وهو ما يشبه الجنون .

وتقوم فلسفة الهيبة على الرفض الكامل للمجتمعات والحياة ، والانقباض إزاء قيمه وأساليه ، مع ممارسة التحلل الصريح لكل القيم الروحية والاجتماعية ، ومع الانسحاب من المجتمع ، إلى العراء والصحراء وهذا يعني أن مضامين فلسفات ماركس وفرويد وسارتر ودوركايم وليني برييل التي فرضت على المجتمعات الغربية لتحل محل مفاهيمها المسيحية القديمة قد أثمرت هذا الجيل من مرضى النفس ومنحرفي السلوك ومن الساخطين والمتمردين ، الذين ينكرون كل شيء ، دون أن تدمم الفلسفة الهيبة بطريق التحرر ، أو تكشف لهم ضوءاً إلى البديل الصادق فقد غررت بهم الفلاسفات المسادية والجلسية ودفنتهم حركات الوجودية إلى الاندفاع إلى سطح الحياة الاجتماعية ليشكلوا ظاهرة معقدة شديدة التعقيد .

• • •

ويرى بعض الباحثين أن الهيبة هي انفجار في الوجودية حيث ظلت الوجودية أكثر من عشرين سنة تمارس نشاطها في الكهوف ، بإطلاق الشعور

واللهي، والعري، والاباحة، وإطالة الثمور والسوائف، والملابس المشجرة والضيقة والزاهية وإذا كانت الوجودية هي ثمرة الفلسفة الماسونية اليهودية التلمودية لتدمير القيم الدينية في الغرب، فإن هناك مجاولات أخرى للاستفادة منها عن طريق مستعمرات العري أو معسكرات الهيز التي تأخذ بها بعض القوى الرأسمالية كوسيلة لاستغلال السامعين.

وقد أثمرت حركة الهيبة، ثمرة في خروجها إلى المجتمع وانصافها بالشباب مما عرف في السنوات الأخيرة من مظاهرات صاخبة للشباب في عديد من عواصم الدول الأوروبية وفي فرنسا انطلقت الهيبة من السربون وخرجت من الكليات العملية كالعطب والهندسة، وليس من كليات الآداب والفنون، ويرد الباحثون الظاهرة كلها إلى اليهودية التلمودية الخفية، وإلى الصهيونية التي تعمل للقضاء على قيم المجتمعات وتحطيم كل تراث ديني أو أخلاقي ويجمع الباحثون على أن حركة الهيبة حركة هدامة مخططة لتدمير الحضارات والقيم، فهي معارضة للنظام والنظافة والعمل وإحياء لمفاهيم الوحشية والغبابة والقتل والسفاد ومن عجب أنها تعمل على هدم كل شيء، دون بديل، إلا ما قدمه فلاسفة الهيبة التلمودية أخيراً من مفاهيم مستمدة من الفلسفة الهندية هي أشد قسوة من مفاهيم الأديان التي حطمتها الفلسفة المادية.

(٣)

اهتزت المجتمعات الغربية بعد أن انفصلت عن مفاهيم الدين على النحو الذي عرفته من خلال المسيحية الغربية والكنيسة، وكان لمفاهيم تأليه المسيح والأسرار السبعة والحطية في مواجهة أضواء العلم ومفاهيم العقل أثر بعيد في الاضطراب النفسي الذي صاحب النفس الغربية التي لم تجد أمامها غير العلم لتتخذ بديلاً للمفاهيم الروحية والنفسية والدينية ولم يكن العلم قادراً أن يعطي

في مجال ليس مجاله ، فكانت الفلسفة التي حاولت أن ترسم أيديولوجية بعد  
أيديولوجية لمنهج اجتماعي نفسي يحل محل الدين والمعتقد دون جدوى .  
وكانت المحاولات التي سبقتها الفلسفة الماسونية في السيطرة على الفكر  
الغربي أرها في إيجاد بديل أشد قسوة وعنفاً ، ذلك هو بديل اليهودية التلمودية  
في الدعوة إلى حجب مفاهيم الألوهية والغيب وإنكار البعث والجزاء والتركيز  
على إقامة الحياة الدنيا على أنها الغاية الوحيدة للإنسان في الحياة من خلال دعوة  
إلى الإنطلاق والتحرير من كل القيم وتحطيم كل الضوابط التي تحول دون  
تدافع الغرائز والرغبات ، وتحول ذلك جنباً إلى فلسفة منهجية لها طابع  
علمي براق .  
ومن هنا فإن النفس الغربية تحت تحديات اضطراب مفاهيم المسيحية  
الغربية وتمعقدها ومن خلال الدعوات الجديدة التي كانت تشهد على  
على بقايا الدين والعقائد والإيمان بالله والغيب والبعث والجزاء وتشكلت مفاهيم  
الفلسفة المادية التي أقامت القاعدة للفكر الليبرالي الرأسمالي ثم على نفس  
القاعدة ظهر الفكر الماركسي والدعوات التي قادها فرويد ودوركايم وليني  
بريل ، ثم كانت الوجودية نهاية لذلك وعنها انطلقت الهوية الجديدة  
صارخا لا يبقى على شيء .

ومن هنا نشأت قضية الغربة والغريب .

الغربة للمجتمعات والغريب للفرد .

وأصبحك دياح الحزيف كلمات هو سحان المتشائمة البائسة  
وأنا غريب وخائف في عالم لم أصنعه أبداً ،  
Lia Stranger and afraid in a world I never made



وهذا اجتماع المجتمعات هذه الأساس الرهيب التي خلقتها هذه الفلسفات  
ومن وراءها تفسير قائم على الحروب التي أكلت الملايين والحروب البذرية  
التورقة في كل لحظة وحاول بعض المصلحين في المجتمعات الأوربية العمل  
بالسكمة على د انتشال الفرد بما يعانيه من الغربة التي تؤدي به إلى الخوف والتألم  
إلى النفور من المجتمع وما يشعر به الفرد من فراغ نفس ومن وحشه وانفصال  
بينه وبين مجتمعه .

وإذا تمتعنا الأصوات نقول أن التركيز على الجانب المادي من الحياة لم يحل  
المشكلة فقد خلق معتقداً بأن المجتمع يتألف من أفراد كالات يتوفر لهم  
الطعام والمأوى والملبس ويعملون لالة أكبر هو الدولة ، وتبين أن مرض  
المدنية ليس هو الفقر المادي الذي يعانيه الكثيرون بمقدار ما هو انتماء  
روح الحرية والثقة بالنفس وأن الدعوة للماركسية قد فشلت لأنها حصرت  
نفسها في العوامل الاقتصادية وصرفت نفسها عن جوهر الحقيقة التي هي روح  
الفرد ، الذي هو مصدر الإنتاج .

### (١)

وبالرجوع إلى كتابه اللامنتهي ( The outsider ) موضوع الغربة  
التي يعاني منها العصر يرى أن الغربة مرض متصل بتصدع الذات أو انشقاقها  
نتيجة عدم توانمها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه .

ولأن ظاهرة الغربة هي مشكلة إجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصال  
عن مجتمعه ، فيرى أن الروماني برغم حيرته وشككاته لم يفقد الإيمان  
بالحقيقة .

أما الغرب في هذا العصر فهو إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها . فالعالم  
في رأيه عالم مفقود للحقيقة أو عالم زائف قائم على اللامعقول والنفوضي وعند

أن طبيعة الحياة في المجتمعات المتحضرة وماتفرضه من سلوك خاص توجب عن الإنسان حقيقته الأصلية فيحاول أن يخضع نفسه بالمظاهر السلوكية وبالفلسفة أو الدين مقنناً لكل ما في أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كائن راض عاقل متحضر .

ويصل ولسون إلى أن أزمة الغريب إنما هي أزمة فقدان الإيمان بظل فيها على حال من القلق والتأمل والعذاب حتى يظهر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة ، عند ذلك لا تبقى نظرة الشر هي الغالبة على تفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرّد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب فإن ثمة إمكانيات أخرى في الإنسان لابد من إستغلالها وتطورها للكشف عن معرّات للشر الذي أحاق بالبشرية . والذي هو سر من أسرار أزمة الغريب الكبري .

وينادى ولسون بالبدل ويقول : أن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهره عامة في الحياة المعاصرة بحاجة ماسة إلى بدّل يشبع عنده العاطفة الدينية ويحمد عندها الملائ الذي يبحث عنه .

ويهاجم ولسون فكرة الخلاص المسيحية ويدعو إلى تحرير الإنسان والفكر الغربي من معتقدات وهمية تسيطر على الإنسان المسيحي ويرى أن هذه العقيدة تنفّ حاملاتينه وبين رؤية الحقيقة<sup>(١)</sup> . ويقول ولسون أن مفهومات مثل الخطيئة الأولى والخلاص هي إحدى مضادّ الغربة وهي تطرأ للغريب بطريقة طبيعية ، وعنده أنه بتحليل فكرة الخطيئة الأولى . مثلاً يتضح لنا أنها تعني نفس الشيء الذي تعنيه فكرة الوم في الديانة الهندية

(١) راجع كتاب اللامعنى لكونون ولسون والمراجعة التي أجراها له الدكتور محمد زكي "مشاوي في كتابه (الأدب وقيمة الحياة المعاصرة) .

فالناس في نظر (راما كريشنا) ليسوا خاطئين بالمعنى المسيحي للعظة وإنما هم  
أرواح مخدوعة بالآوهام ولذلك فهو يقول : أنه من الضروري التخلص من  
الخطيئة الأولى ، لأن الخطيئة الأولى في حدود فهمه لها م مايجب الحقيقة  
عن روح الإنسان .

\* \* \*

ومهما يكن كونه ولسن يصدر عن نفس تراث الفكر البشرى الموغل في الوثنية  
والشكوك والأساطير فإنه يكشف كثيراً من جوانب الاضطراب التي أصابت  
المجتمعات الغربية ويردها إلى أنها نتيجة الانفصال عن الدين أو العقيدة ويرد  
كونه ولسون أزمة الإنسان المعاصر إلى غلبة مفهوم العقل وسيطرته الكاملة  
التي سحقت سحاً كل القيم الروحية النفسية والأخلاقية من راحة وتسامح : يقول  
« أنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان ، فقد أضف العقل الصرف مركز  
الاشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية » .

وإذا دعا ولسون إلى ( تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي عن طريق  
الإرادة ) كحل لازمة الغريب فإنه لن يجد أمامه مفهوماً أعمق للدين الحق هو  
الاسلام ، ولذلك فقد لجأ إلى فلسفات الهند الصوفية الحديثة .

ولكنه من خلال هذا التخط في الرؤيا يحاول أن يقول ما يطابق مفهومنا  
أنه ليس في إمكان الإنسان أن يفصل من نفسه ما يعتريه من صداً أو ما يغلف  
إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي .

أما كيف يصل إلى ذلك فإن كونه ولسن يعجز عن أن يرى المورد النهر  
وهو حين يدعو إلى التأمل الروحي : يرى أنه يؤلف بين الإنسان والوجود ،  
ويوقن ( أن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة ) وهذا  
الإصرار على المفاهيم الروحية والنفسية والصوفية إنما يكشف عن ظاهرة

جديدة في الفكر الغربي تحاول أن تواجه الظاهرة المادية ولكنها تعجز عن الوصول إلى شيء.

ويقرر ولسون : أن وصول الإنسان إلى لحظات الكشف هذه نحرره أولاً من التفكير العقلي المجرد الذي أثبت أنه غير قادرة وحده ، على إدراك أي معنى حقيقي وراء هذا العالم ، وهذا تفسير صحيح وهو يصدق أيضاً حين يقول :

« أن أزمة الغريب : أزمة فقدان الإيمان يظل فيها على حال من التامل والمذاب حتى يشبع عنده عاطفة الدين المفقودة ، وكذلك يصدق في إقراره بأن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل أزمة الغربة ويصدق في القول بأن ثمة إمكانيات أخرى ، في الإنسان لا بد من استغلالها ويرى ضرورة إجراء التوازن بين الراحة والعقل والعاطفة بما يحقق التكامل النفسي ويختلف موقف كولن ولسن هنا عن موقف الوجودية وعن موقف سارتر والبير كامى إختلافاً واضحاً . وإن كان في كتاباته يرتبط بهما ويحاول أن يكون إضافة جديدة لهما . ولكنه يصدق في تفسير الأزمة نفسها حيث يرى أن أسباب الأزمة ترجع إلى طبيعة العصر نفسه وإلى ما مرت به أوروبا من تجارب ومآلاته من أحداث نتيجة التحول الصناعي وسيادة التفكير العقلي والمبالغة في تأليه العلم وتقديسه بل وتسخير أحيانا في إشعال الحروب وخلق جو من التوتر والتنافس في سباق التسلح الذرى ، ومن هنا فقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا كله إلى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذي استبد بالإنسان القرن العشرين حتى أصبح مرضاً شائعاً وطاعماً مبرراً للإنسان هذا العصر .

وكان طبيعياً كذلك أن يصاحب هذا القلق إحساس ببعث الحياة وانعدام الدافع والمسوخ لبذله الجهد والطموح في عالم قد يباغته الهمام في كل لحظة .

ومن هذه العوامل نشأت توترات القلق والغربة والشعور بالبعث .

وانعدام الجدوى من الحياة، وكان مصدر ذلك في الحقيقة هو ضعف العقيدة الدينية والافتقار إلى الإيمان بالله .

ويرى كولن ولسن : أن حاجة الإنسان إلى اشباع عاطفة الدين أمر لا ينقطع وهو الطريق إلى القضاء على الغربة .

ولكنه لا يعرف كيف يصل إلى العلاج الحقيقي في الدين الحق الذي لا يعتمد لأهله ومعتقيه مفاهيم الخلاص أو الخطيئة الأولى

وأن تهويمه ولسن حول الصوفية والزوايا والكشف إنما هي ضعف في رؤيا الأديان القائمة في العالم والتعرف عليها .

ويصدق كولن ولسن في القول بأن أول خطوة للتحرر من الغربة هي اتباع طريق الحق المتسق للإنسان بكل نواحيه مماً ( جسمه وعقله وروحه )<sup>(١)</sup>

### ( ٤ )

هناك تجربة أخرى من خلال الفكر الغربي نفسه تحاول أن تكشف الخطر وتركز الضوء عليه وإن عجزت أيضاً في الوصول إلى الحل الأصيل .

تلك هي ثورة الطلاب والمثقفين :

وهي ثورة تحاول أن ترتبط بالإنجازات الهيدية من حيث مفاهيمها ولكنها تخطو خطوات أشد عمقا في رفض الأيدولوجيات القائمة في مختلف العالم الغربي ولا شك أن ظاهرة الرفض لها أكثر من مصدر وسبب . إذا خلصت لنفسها

---

(١) أيضاً راجع بحث الدكتور مصطفى يدوي مجلة كلية الآداب ١٩٥٨ ،  
( ١٤٤ - الأيدولوجيات والفلسفات )

دون أن يكون ورامها محرك أو دافع من الدوافع التي تظاهر كل حركات  
الانتفاض على المجتمعات المعاصرة .

وأبرز معالم هذه الظاهرة سواء بالنسبة للميضية أو الشباب عامة هي ذلك  
النقص الواضح العميق الذي تواجهه هذه المجموعات من ناحية النفس والعقيدة  
بما يخلق ظاهرة الغريب .

فقد ثبت أن هذه الأيدولوجيات على اختلاف أنواعها قد عجزت عن إدخال  
الآمن والإيمان إلى النفس البشرية ، بل أنها زادت انديفاعاً إلى القلق والاضيقاض  
باصطحاب النداءات المادية سواء في مجال الاقتصاد أو في مجال النفس والاجتماع  
حتى لتكاد تستعمر جماعات الشباب روح العداوة والشر والحق.

ويرى بعض الباحثين أن هناك تناقضاً مديراً لخلق روح القلق والاضيقاض  
والغربة ، ذلك هو الربط بين دراسة مثاليات الحضارة وأحلام القوميات  
الأخلاقية بما يرتفع بالنفس البشرية إلى الصورة المثلى في الكتب ، فإذا ما اتصل  
الناس بالحياة واجهوا معارضة تامة وصورة مختلفة فيشعرون بما يشبه الصدمة بين  
عالم المثال وعالم الواقع .

ويركز الباحثون جميعاً على أن مصدر الأزمة كلها هو ضيق الإيمان واليقين  
وإن إمكانيات العلم وقدراته الضخمة لم تستطع أن تحقق الثقة .

فحدث ألقى الدين السلاح إزاء طغيان العلم ، في النصف الثاني من القرن التاسع  
عشر ، جاء العلم في منتصف القرن العشرين فألقى جميع إمكانياته وعقدراته معترفاً  
بالمعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة ، وهكذا سقط آخر درع تحصن به  
الإنسان<sup>(١)</sup> بعد أن سقط التاريخ والفلسفة . غير أن هذه النتائج الحقيقة قد  
تهدتها دعوة أخرى خطيرة تقول :

(١) بصرف عن نجيب صالح : في بحثه عن الطلاب جهل النصب والثورة .

« إن مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً أصيلاً » .

هذه الصيحة هي الغاية التي ترمى إليها الفلسفة الماسونية ومخططات اليهودية التلويديّة على النحر الذي صورته بروتوكولات صهيون .

هذه هي الصيحة الخطيرة التي تكمن وراء كتابات هربرت ماركوز وكثير غيره ممن يحملون اليوم على النظامين الرأسمالي والماركسي جميعاً والدعوة إلى المجتمع العالمي واحتواء الفكر الغربي لعله فكرياً عالمياً هو من أعمال الصهيونية العالمية . ومن هنا قد استطاعت اليهودية العالمية احتواء الحركة الهيدية وحركات الشباب إلى الغاية التي تريدها ، من خلال الوعد برويا جديدة للعالم كله ( وهذا ما زاده أيضاً في دعوات الروحية الحديثة وغيرها من الدعوات من حيث استغلال الفلسفات المختلفة إلى الغاية الكبرى .

ويرد بعض الباحثين زعجة الغربة والقلق التي يعيشها الإنسان المعاصر إلى تحكم الآله : وسيطرتها على الإنسان بحيث يبدو كأنما هو خادم لوثن صنعه بيده

غير أن هذا في الحق عامل فرعي في مشكلة تقوم أساساً على سقوط الدين والأخلاق في مجتمعه سقوطاً فلسفياً واندفاعه إلى ظاهرة الانفلاق والتحرر الكامل من كل قيد ، مما أفقده الارتباط بمحوره الأساسي .

ولقد حاول السيس كاريل أنه يصل إلى هذا المعنى حين قال : لقد عانى المجتمع المعاصر منذ نشأته من خطأ عقلي ، خطأ ما زال يتكرر منذ عصر النهضة . لقد كونت التكنولوجيا الإنسان ليس تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لأراء مينا فيزيقية خاطئة ، وما قد حان الوقت لكي يتخلّى عن هذه المذاهب .

« يجب أن نحطم الحواجز التي أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة بين مختلف الجوانب لأنفسنا » .

والخطوة المستولة عما نعلمه ، جاء من ترجمة فكرة جاليلو إلى فصل الصفات الأولية للأشياء التي يمكن قياسها بسهولة عن الصفات الأخرى. وهي : (الشكل - اللون - الرائحة ) التي لا يمكن قياسها ، أى فضل الحكم عن النوع ، ولقد كانت تهمزة الأشياء أمراً ضرورياً ولكن إهمال هذه الصفات لم يكن كذلك ، لقد دفعت هذه الخطوة الحضارة إلى سلوك أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان .

فعلينا أن نجدد الإنسان مرة أخرى ، يجب أن نصحح الخطأ الذي جعله شبيه بالآلة . يجب لكي نعيد للإنسان ذاتيته أن نعلم هيكل الحضارة التكنولوجية نفسها .

ويتساءل بعض الباحثين : هل اتجه العلم نحو الإنسان ليكون إنساناً .

هل طرح العلم أى جديد أمام قضايا العصر المتنافي بيقية التي تقلق الإنسان والإجابة : إن العلم نفسه أصبح أزمة من أزمت الإنسان تضيف إلى مأسائه أخطر حلقة مأساوية في تاريخ البشرية (١) .

لقد حاول العلم أن يحل قضية الإنسان ففرق وأغرقه فيها وإذا كانت البشرية تتعلق جيلاً بعد جيل بآمال لحل قضاياها السكونية فإنها بعد اعتراق العلم بعدم قدرته تصبح معلقة بخيوط الهواء .

• • •

ويعرض ( هيريك . ج . دوسو للابريس ) أستاذ علم التلويح بجامعة بيل دور العلم في حل قضايا الإنسان المعاصر فيقول :



إن مسئولية رجال الفكر في وقت كثر فيه التحديث عن العلم والتكنولوجيا هي النظرة إلى الوراثة في التاريخ استكشافاً لجذور الأوضاع السائدة اليوم ثم التطلع إلى المستقبل لإتاحة قدر ممكن من المعرفة أمام مجتمعنا الذي يبحث اليوم عن استراتيجية جديدة .

وإن العلم ينمو بسرعة تتضاعف ثمان مرات لكل مضاعفة في كل الأعمار غير العادية ، فهو يشمو بسرعة تجعل كل ما عداه يبدو بالمقارنة وكأنه ساكن تقريباً .

ومعنى هذا أن العلم قد سقط في إمكان إعطاء البشرية مفهوماً كاملاً أو يوجب من الأسئلة الخالدة : لماذا نحيا ، ولكن معنى هذا أن تبحث البشرية عن الدين الحق لتعرف أن القوى الغازية المسيطرة تعرف كيف تحول بينها وبين ذلك وتمهد لها لتذهب في تيه جديد .

### ( ٥ )

إن الباحثين يرون أن الدين بمفهومه في الغرب ( المسيحية الغربية ) والفلسفة والتاريخ جميعاً قد هجروا عن تحقيق المصالح البشرية إلى الإيمان واليقين :

أما الدين فقد كانت المسيحية الغربية على النحو الذي صيغت فيه بعيداً عن مفهومها الأسامي عاملاً خطيراً في تحريك النهضة ، ومقاومة العلم ، وتأليه الإنسان ، ووضع الخطيئة أمامه كحاجز ضخم .

ثم جاء التفسير المادي للتاريخ فجز أن يقدم له حلاً لمشكلته ، ثم جاءت الفلسفة فتخطت تحبطاً شديداً ودفعت الإنسان دفعاً إلى أحضان المادية القاسية وسأقت الناس إلى تعمق الشك في القيم الدينية والأخلاقية ، وجماء العلم فجز أن يحقق للبشرية شيئاً في مجال الإيمان واليقين .

كان هذا اليأس من كل المقررات التي فرضت نفسها هو دافع حركة الرفض والغربة التي استطارت باسم الهيبية .

والهيبية هي صيحة اليأس الكامل والعودة إلى عصر الكهوف والغابات وشواطئ الأنهار بالمرى والسلبية ورفض المجتمع ، والاتجاه إلى العقاقير والمخدرات التي تدفع إلى الذهول والاستغراق . وسقوط كل قيم الروح والكمالات الانسانية والاتجاه نحو المجلس وهبادة الجسد ، ومعارضة الحضارة والعمل والنظام ، وإنكار فطرة الزواج والأسرة ، وفهم الحرية على أنها الانطلاق الكامل من كل قيد واللاأدرية والخوف من الموت ، ضد العقل والروح معاً ، وضد القيم والتاريخ .

ويرى بعض الباحثين : أن الهيبية فلسفة جديدة ويردونها إلى خلاصة فلسفات الشرق والقديم من وثنية ومجوسية (مانو وبرذا وزرادشت) .

ولما كانت الهيبية تهتم كل شيء وتعلم كل القيم فانها تقف عند ذلك دون أن توجد بديلاً لما تقوم به .

غير أن القائمين من وراء الهيبية وثورة الشباب يحاولون أن يعطونها مدداً جديداً حين يدعون إلى توجيهها نحو اليوجا والفلسفة الهندية القديمة التي تقوم على وحدة الوجود والبوذية بمفهوم الرفقانا، ومعنى هذا أن تقوم الهيبية على وم آخر ، يستمد من الفلسفات الوثنية التي حملت شخصية الانسان في الماضي ، ودفعته إلى الفرق في لجج وأوهام الفسك والتصوف ومسائل الكشف والحلول والاتحاد وذلك ما يمكن أن يصل به إلى مفاهيم الروحية الحديثة التي هي إحدى دهوات اليهودية التلمودية ، ومن هنا تجري محاولة تقديم إبطال الوثنية القدامى كنماذج للبطولة الجديدة .

## الفصل السابع

### فلسفة وحدة الحضارة

#### أول الحضارة الواحدة،

يحاول الفكر البشرى أن يطرح في مجال الحضارة مفهوماً فلسفياً تاريخياً يقول بأن العالم لم يشهد غير حضارة واحدة : هي حضارة البحر الأبيض المتوسط ، هذه الحضارة التي تتصل من القديم بالفيلقيين ، والبابليين والحيثيين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ، وهي التي لم تلبث أن أصبحت حضارة يونان ورومان ثم دخلتها عناصر عربية في فترة من فتراتها ثم لم تلبث أن عادت مرة أخرى إلى أوروبا ويرى أصحاب هذه الدعوة أن هذه الحضارة قامت على ثلاثة فوائمه هي الفكر اليوناني والنظام الروماني والدين السامي .

هذا الرأي يحمل لواء الدعوة النصرانية من أجل خلق تصور بأن الحضارة التي ظهرت في شرق البحر الأبيض المتوسط وغربة واحدة ، اتصلت في العصر القديم ثم اتصلت في العصر الحديث مرة أخرى حيث الحضارة الغربية سائدة مهيمنة والشرق كله مطحون تحت جناحها بالسيطرة والتبعية . وهي في محاولة إبراز دور الشرق في القديم إنما تركز على كل العناصر الوثنية من تراث بابل وآشور ومصر وترى أنها أعطت اليونان ثم هاد اليونان والرومان فسيطروا على هذه المناطق ألف سنة .

حتى الدين السامي الذي يجعله عنصراً من عناصر هذه الحضارة الواحدة .

يرده أصحاب النظرية إلى عناصر وآثار تعود إلى أصول هندسية وفارسية ومصرية غير أن الساميين صهروها بحرارة أرواحهم فنفوا منها الدغل فانجملت الخرافات والأساطير عن دين حى فعال بحث في قلب الإنسانية الرجاء والأمل، وهو تصور مجحف للأديان الكبرى المنزلة التي اتخذت من هذه المنطقة قاعدة ومنطلقاً لعطاء البشرية كلها.

وكأنما تقصر النظرية التي يريدها جورج سارتون في كتابه :

(The unity and Xiversity of the mediterranean world)

كأنما تقصر العطاء والتبادل والحركة بين محورين لا غيرهما :

محور اليونان أو روما في الغرب ومحور فينيقيا أو لبنان في الشرق فالإيونان والفينيقيون هم وحدهم حملة لواء الحضارة في مجال الملاحة والتجارة والثقافة . كانت في يد الشرق ثم تحمل اليونان زمامها في أوائل القرن الخامس للميلاد . بعد أنه حضى على بنسها نحو ما من التي بعنة ومن ثم كان البحر الأبيض مجالا للتنافس اليوناني الفينيقي حتى قام الإسكندر فنشر لواء الثقافة الهلينية فامتدت حتى أواسط آسيا والهند ، ثم جاء الرومان لجمعوا هذه المنطقة كلها في ظل الإمبراطورية ثم قامت الكنيسة بأعباء التبعية لما تداعت الحضارة الرومانية .

ثم جاء الإسلام وحنخل الغرب معترك التاريخ .

غير أن جورج سارتون وغيره من دعاة الحضارة الواحدة يقفون أمام دور الإسلام وقفة مبعدة عن واقع التاريخ وحقائقه ، فيها كثير من الظلم والإلتباس للدور الضخم الذي قام به ، وللتغيير الجذرى الذى أدخله على الفكر والتاريخ والجغرافيا .

ذلك أن النظرية الظلمة تقول أن دور العرب لم يبدو أن يكون : نشر مآثورته من الفرس ، وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط وما أخضوه من

النصارى واليهود وصائبة حران الوثنية ، ولم يكن عملهم أكثر من أنهم خلوا  
لواء الحضارة الواحدة : لواء حضارة البحر المتوسط . وزادوا عليها ونشروها  
في أنحاء امبراطوريتهم من الأندلس غرباً إلى الصين ومن بحر الخزر إلى  
مناج النيل .

ذلك أنه الخطأ الفادح الذي يحاول أن يصور الحضارة الواحدة « الفينيقية  
الهلينية » وقد احتوت العرب واستولت على المسلمين « فدخلوا في مجراها وصبوا  
فيها ما كانوا قد استقوه من حياة الثقافات الأخرى ، على حد تعبير « أنيس  
فريش » ، ولذلك فإن دور العرب الذي قاموا تجاه هذه الحضارة : لم يرد أن  
يكون في تقديرهم عن الدور الذي قام به من سبقهم من شعوب المتوسط  
( كالإيجيين والفينيقيين واليونان والرومان ) .

وكأننا لم يكن دور العرب والمسلمين دوراً شاملاً وقيادياً وعظماً كل  
الاختلاف عن كل الأدوار ، بل كان فيصلاً بين عهدين وعصرين في تاريخ  
الإنسانية كلها .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن العسرب لم يدخلوا التاريخ العالمي  
إلا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في  
مجرى حضارته ، بل أن ظلم النظرية يتجاوز هذه الدعوى إلى دعوى أشد  
صفاً وقسوة حين يقول : أن العرب بعد أن خرجوا من الصحراء قبل ثلاثة  
هزار قرناً ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق ولم يكن للصحراء أثر  
محسوس في ثقافتهم وحضارتهم .

والحق أن العرب قد استمدوا وجودهم الفكري من محور مكة ، الأصل  
الذي بدأ به إبراهيم وانتهى به محمد صلى الله عليه وسلم وليس محور مكة هو  
الصحراء بالمانى الذي تصوره هذه الكلمة ، ولكنه هو مهبط وحي الرسالة

التي بدأت بحنيقية ابراهيم السمحاء واكتملت برسالة الإسلام الخاتم التي جاء بها محمد . فالصحراء بهذا المعنى هي التي أهدت للإنسانية أروع معطيات الحق والتوحيد . ومن هنا فإن المسلمين والعرب لم تطرف لهم عين في الاتجاه نحو الكعبة في مكة فهي قبلتهم في الصلاة . وهي قبلتهم فكرياً وروحياً وثقافياً . ومن هنا فإن أثر الصحراء بهذا المعنى كان محسوساً في كل مقدرات حياتهم منذ يوم بزغ ضوء الإسلام . وإلى اليوم وإلى آماد بعيدة لا حصر لها .

## ( ٢ )

هذه النظرية تحاول فرض الاستعلاء العنصري الأوربي الغربي من خلال منطلق استعماري وسيطرة ثقافية وتغريب واحتواء ولكنها في نفس الوقت تحاول إعلاء مفهوم يحاول أن يسيطر على الفكر العربي نفسه ويحتويه وهو نظرية الأجناس والعنصرية اليهودية التلودية التي فرضت على التوراة بالتحريف لإقرار مفهوم السيطرة المستمدة من مفهوم « الشعب المختار » الذي يحاول أن يرفع نفسه فوق أجناس الأرض جميعاً من خلال أسطورة لم تتحقق علياً ومن خلال واقع يريد أن يفرض نفسه على كل مقدرات التاريخ والعلم والصحافة والثقافة المعاصرة بالتزوير والتحريف . والإضافة والحذف . ومن الحق أن يقال أن الإسلام جاء فاصلاً بين عهدين : وأنه قد صحح كل مفاهيم التوحيد والدين الحق والشرعية والأخلاق ووضعها في الصورة النهائية .

ومن المعروف أن كل ثمار المعرفة الإنسانية إنما جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ثم اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية ثم لم تلبث المفاهيم الأصيلة أن انحرفت واستعلت مفاهيم الفكر البشري وسيطرت بالوثنية والتعدد والعنصرية وعبادة الأجساد والأبطال وإعلاء العقل أو الوجدان على النحو الذي عرفته الفلسفتين اليونانية الإغريقية والحليدية الشرقية . وكذلك انحرفت الأديان السماوية عن مضامينها الأصيلة انحرفاً خطيراً أظهرت نظرية : إله الجنود عند

اليهود والأبوة الإلهية عن المسيحية ، ومن وراها نظريات إنكار البعث والالتزام الأخلاقي مملا في القول بوحدة الوجود وغيره من انحرافات .

ولذلك فقد جاء الإسلام راسماً المنهج الرباني الذي يهدى الإنسانية إلى التوحيد الحق ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري ، ومن اضطرابها وفسادها .

ومن هنا فإن ما جاء به الإسلام لم يكن في الحق كما صورده جورج سارثون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة : لم يكن كل ما قدمه الفكر الإسلامي هو ما ورثه العرب من الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والاقباط أو ما أخذوه من النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية . ذلك لأن معطيات الإسلام إنما جاءت سابقة سبقاً بعيداً عن ما يحاولون الإشارة إليه بما ترجم إلى الفكر الإسلامي من فلسفات ، فقد استكمل الفكر الإنساني منهجه الأصولي ومضمونه الواضح المستمد من القرآن قبل أن تترجم الفلسفات . ولم ترد الفلسفات الفكر الإسلامي شيئاً ، بل لعل الفكر الإسلامي بذاتته الأصلية قد استطاع أن يحرر من متعلق اليونان ووثنية الفرس وتعدد الهنود وغيرهم ، وظل قادراً على أن يقدم للبشرية منهجاً صادقاً متكاملًا من القرآن ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أن ما ورثته البشرية من الفرس والبيزنطيين والنصارى واليهود وصابئة حران الوثنية إنما هو ذلك الحصاد الذي واجهه الإسلام بالحق وقال فيه كلمته النافذة الحاسمة .

## (٣)

إن المراجعة الحقيقية لتاريخ الحضارة في الشرق يرتبط بهجرة إبراهيم عليه السلام حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد والتي تمتد تاريخياً إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في القرن السابع بعد المسيح ، والتي تمتد جغرافياً من العراق إلى سوريا إلى مصر إلى الجزيرة العربية والتي مرت من خلالها مختلف الأديان السماوية المنزلة

وقامت في ظلها الحضارات الآشورية والكلدانية، الفينيقية والآرامية وكلها عنانها  
ترجع إلى أصل واحد هو إبراهيم كما أن كل الأديان القائمة اليوم ترجع إلى أبناء  
إبراهيم: إسماعيل وإسحق ومن هنا فإن الحضارة قد بدأت في فرع إبراهيم الذي يقطن  
مناطق سوريا وبين النهرين والذي كانت عناصره قد هاجرت أساساً من الجزيرة  
العربية وتشكلت في شمالها ثم كانت رسالة محمد في الفرع الأسماعيلي الذي يرتبط  
بهجرة إبراهيم إلى مكة ورفع قواعد البيت وإقامة دين الحنيفية والتوحيد الذي  
جده محمد ﷺ ومن الحق أن يقال أن هذا العالم محدود الجغرافية والفكرية  
هو عالم الحنيفية والعروبة وهو نفس العالم الذي حاولت أن تصوره دعوة  
إبراهيم في ذريته القائمة بالحق والتوحيد. غير أن تياراً حاول أن يصارع هذه  
الدعوة: ذلك هو المحاولة اليهودية والتلودية لتحريف التوراة ولحقاق تصور  
هنصري قائم على مفهوم الاستعلاء من خلال أسطورة «شعب الله المختار»  
وإن المراجعة الدقيقة للعهد القديم تكشف تبايناً واضحاً بين اليهودية وبين مفهوم  
الدين الحق وتعارضاً عميقاً حيث يكشف العهد القديم عن عنصرية واضحة  
واستعلاء صريح. يخالف مخالفة صريحة مفهوم الإيمان بالإله الواحد حيث  
الناس جميعاً أمة واحدة لأفضل لأحد على أحد ولا جلس على جلس إلا  
بالعمل.

غير أن اليهودية التلودية لم تلبث أن حرفت التوراة وأزالت هذا  
المعنى من الحنيفية السمحة واستبدلته بمفهوم [العنصرية] وقد أوضح هذا  
المعنى الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي حيث يقول في بحثه عن مقارنة  
الأديان: «إن التوراة قد صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية  
أما القرآن فقد قدمها في كتاب يؤكد الحنيفية. ولكن المسألة ليست مجرد  
اختلاف وجهة النظر بين الكتابين، فالتوراة يوماً ما هي أيضاً قدمت الحقائق  
من وجهة نظر الحنيفية، إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن وهذا دليل على  
أن الحنيفية أو الخبر التاريخي كما قاله القرآن الكريم هو الحق، فوجود الحنيفية  
في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم». ثم



يخصى الدكتور الفاروق يصور الفرق بين النصرية وبين الخيرية فيقول :  
 « النصرية : تمثل حزب أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع من أفضل مخلوقات  
 واتباع نظام أخلاقي يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في أى قبيلة  
 أو شعب أو أمة أخرى أما الخيرية : فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة  
 يحملونها إلى البشر أجمع ويخصونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا  
 ويأهدها - الذين ينصرون معهم عن طريق المصاهرة والمواخاة - لغتهم  
 وثقافتهم ورسالتهم ، لذلك جاءت التوراة بعد أن، بلورتها النصرية يقول :  
 إن إبراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تعتمد السكوت على أمر يهوه ،  
 فهي تقول أنه أمر تلقائي عرضي أى لا سبب له فالله في نظرها فضل إبراهيم لأنه  
 هو ، وقد فضل ذريته لأنها ذريته بل قطع عهداً ( لا ميثاقاً ) على نفسه بتفضيلها  
 مهما حصل إلى الآن حتى الإله تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس ، أما القرآن  
 يعلل أن الله إله الجميع لا قدرة وقهراً بل حياً ورحمة ، وجاء يؤكد أن هجرة  
 إبراهيم لسبب وجيه ، هو التوحيد ، وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه  
 أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات وأنه تعالى سيعاقبه أشد  
 العقاب بل سيبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة ، إذن نحن أمامنا زهتان :  
 نزعة أقلية متفنتة ونزعة أخلاقية متفتحة أخلاقية ، لولا الأولى لما استطاع  
 المهاجرون الذين تابعوا سيرهم إلى مصر الابقاء على عنصرهم في مصر ولما  
 اضطهدهم المصريون ولولا استمرارها لما كان تاريخ اليهود المعروف فاليهود  
 أبناء هذه النزعة . هذه النزعة النصرية هي التي تحاول أن تفرض نفسها على  
 مفهوم الحضارة الواحدة بينما حقائق التاريخ تثبت غير ذلك تماماً : تثبت أن  
 الإسلام جاء مجدداً لدين إبراهيم الحقيقي القائم على التوحيد الخالص .

(٤)

تؤكد المصادر المختلفة أن اليهود حرّقوا العقيدة التي جاء بها موسى وزيفوا

التوراة من أجل إعلاء مفهوم اليهودية التلودية الذي عرفوا به على مدى العصور:  
قوامين على الربا والعنصرية وقاليه المال .

وقد صور ذلك أحدم ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة بأوضح بيان :  
« يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كتمان فصاغوه على الصورة التي  
كانوا هم عليه وجعلوا منه إلهاً ( هو الإله يهوه ) فهو ليس خالقهم بل مخلوق لهم .  
وفي يهوه صفاتهم الحربية ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه ، لأنه ليس إله  
كل الشعب بل إله بني اسرائيل فقط ، وهو بهذا عدو الآلهة الآخرين كما أن  
شعبه عدو الشعوب الأخرى ، ومن خلال هذا التحريف نشأت نظرية الشعب  
المختار وفكرة السيطرة على العالم وتغلغل فكرة الشعب المختار في أعماق النفسية  
اليهودية حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الديانة اليهودية بحيث أنها تصبح والعدم  
سواء إذا جردت منها ،<sup>(١)</sup> ومن هنا كانت انطلاقاً السيطرة على أساس أن المال  
هو الإله الحقيقي : على حد تمثيل كارل ماركس حين يقول إن المال هو إله  
اسرائيل المطاع وإمامه لا ينبغي لأى إله أن يعيش ،<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا كانت محاولة اليهود في فرض هذا الإله على العالم كله فإذا تحقق ذلك  
كان نصراً ساحقاً لليهود . ومن هنا تحاول اليهودية التلودية أن تفرض نفسها  
مصدراً للحضارة منذ فجر التاريخ واحتواء كل ما قامت به الأمم المختلفة  
في منطقة الشرق من خلال دين ابراهيم . وتجري تحريف التاريخ بما يوافق  
هذه الغاية .

ويجري هذا التحريف مجارى عدة : فهو يحاول أن يستوحي الفكر الاغريقي

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ص ٣٤ ج ٢

(٢) نؤاد محمد شبل : فلسفة الحضارة

(٣) ماركس : المسألة اليهودية

الوثني القديم ويستعيده من جديد، كما أنه يجرى تجديد الدعوات السابقة للإسلام كالنسطورية والآشورية والبابلية والفرهونية والوثنية العربية الجاهلية.

ويحاول إنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية وما يتصل بها من بناء الكعبة وقيام ما يتصل بنبو إسماعيل وقيام دعوة التوحيد في مكة قديماً.

ومن هنا يبدو إعلاء العنصرية اليهودية التي قاومت دعوة المسيح عيسى الذي جاء برسائله داعياً إلى مقاومتها وشجبها. لقد دعا المسيح عيسى إلى هدم العنصرية اليهودية وحذر منها.

وقد جاء القرآن بالقول الفصل في هذه القضية كلها. فأعلن أنه نبوة إبراهيم وملسكه ليست نبوة دم أو ميراث وإنما هي نبوة فكرة وإيمان: وقد قررت الأديان كلها (بما فيها اليهودية والمسيحية) شجب العنصرية وجعلت موضع التفاعل بالعمل وأن نسب إبراهيم نسب عمل بما آمن به وهذا ما يصوره القرآن في قوله [ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن قال أنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال : لأبناك عهدي الظالمين ] .

فضلا عن إشارة القرآن إلى أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، ومن كل هذا يتقرر أن الحنيفية السمحة هي التي شادت هذه الحضارة التي عرفها الشرق كله والتي قامت أساساً على التوحيد ثم انحرفت عنه من خلال الدعوة العنصرية التي قادها اليهود فأفسدتها إفساداً شديداً وغلبت عليها الفكر البشري بوثنيته وآلهته ثم جاءت الإسلام محمداً لدعوة التوحيد وحرراً لها من عنصرية اليهود وتعدد النحل الأخرى .

### (٥)

ومعنى هذا أن الدعوة الحنيفية التي دعا إليها إبراهيم والأنبياء من ملته جميعاً إنما كانت تقوم على التوحيد الخالص وعلى نشر رسالة خلقية تقوم

على المساواة والعدل وغيرها من القيم الثابتة الأزلية الأبدية .

كانت هذه المنطقة الجغرافية من النيل إلى الفرات والجزيرة العربية هي منطلق هذه الدعوة إلى العلم كله ، ومن هنا كانت وحدة هذه المنطقة تاريخياً ولفوياً وعقدياً وفكرياً وسلوكياً وخلقاً<sup>(١)</sup> .

غير أن هذه الدعوة حين أفستها العنصرية اليهودية ، تجددت من بعد في بيئة عربية خالصة - يقول الدكتور الفاروق: ملا أراد العبرانيون أن يجعلوا من أنفسهم طائفة قائمة بذاتها متميزة ، ثارت روح العروبة لتصون قيمة من أهل القيم في رسالتها وهي إنعدام الطائفية .

« وجاءت المسيحية لتؤدي هذا الجانب الإيجابي أداءاً صريحاً ( جانب مقاومة التمايز ) .

ولكن هذا الأداء عندها كان أميل إلى الانحصار في الذات ، وكان لابد من تكملة تخرج هذا الجانب الإيجابي إلى دنيا العمل ليتحقق الأخلاقية وجودها الظاهر إلى وجودها الباطن فكان الإسلام ويقول : ونلاحظ أن أبناء العروبة وخدمهم الذين أخذوا بالفكرة من حيث هم أمة بأسرها ، أما عند سواهم فقد توقفت الفكرة عند قلة من الأفراد .

لذلك لم تكن هذه الفكرة أساساً لحركة ثقافية بعيدة المدى إلا عند العرب أما عند سواهم فقد كانت تجمي . هنا وهناك على لسان هذا الفيلسوف أو ذاك دون أن يكون لها صدى في تيار الحياة العقائدية الجارية ، ولكن ما هي هذه الرسالة التي حملها العرب باسم الخنيفية أولاً ثم زيفتها العنصرية اليهودية ثم حلوها مرة أخرى باسم الإسلام ؟

(١) راجع الدكتور إسماعيل راجي الفاروق في بحثه عن العروبة الخنيفية .

يجيب على هذا الدكتور الفاروق :

« القول بوحداية القيم »

وهو أمر تفرد به العرب دون سواهم : ووحداية القيم هي وحداية الله، وهذه الوحداية هي إدراك عربي صميم طرأ على الوعي العربي مصطحبا لجنبة الأخلاق منذ نشأت حركة المروبة ( يقصد الحنيفية الابراهيمية ) في الماضي السحيق .

« على حين ان غير العرب من الشعوب قد لبثت قرونا حتى بعد ان اخذت بالوجه الديني من تلك الوحداية قبل أن يدرك جانبها « الخلقى » ، وأعني بوحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ، ولب هذه الرسالة هي أن الله موجود وأنه واحد ، أما وجوده فعناه عند العقل العربي وجود القيم وجوداً مستقلاً عن الإنسان ووجوده ، أعني أنها ليست من صنع الإنسان بعضها كما تقتضى ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربي أن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبثاً ، أما كون الله واحداً فعناه عند العقل العربي أن القيم تحصل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان ، فالمعيار واحد بكل إنسان أتى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقى ومعيارها الذى تقبى به الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر والحق حق بالنسبة للناس أجمعين .

« فالقول بوجود الله ووحدايته إذن هو في صميم الاعتراف بموضوعة القيم وتخصيصها من قيود النسبية التى تفر إختلاف المعايير باختلاف الظروف »  
« فالإنسان أمام الله هو الإنسان لا إختلاف بين فرد وفرد إذا ما قيس الأفراد بمقاييس الأخلاق الذى هو مقياس الحق .

« هذا ما يميز المروء من سائر أهل الأرض جميعاً ، ذلك باعتقادها أن

القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة إليها من السماء هداية لها في سيرها ، على أن تلك القيم لم ترسل إليهم دفعة واحدة بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء ، من آدم إلى محمد - وكانت الرسالة الخلقية تزداد على مر الأيام قوة وجلالة كلما إزداد الوعي العربي لها ، ا . هـ

• • •

ومن هذا التصور السليم الصحيح الناضج يبين أن العرب بالاسلام لم يكونوا قطعة غيار في الحضارة الواحدة ، ولم يكونوا جزءاً منها ، ولم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقدمها مرة أخرى ، بل كانوا واجهة عريضة خاصة ، مختلفة كل الاختلاف متباينة كل التباين ، تفرق فرقاً واسعاً بين فكر وفكر ومفهوم ومفهوم وحضارة وحضارة .

وانها كانت تجديداً لمفهوم التوحيد الخالص الذي سفت عليه رياح وأعاصير فردته وأفسدته وحرقته وحوكته إلى وثنية وعنصرية ومادية .

وفي ضوء حقائق التاريخ نجد أنه من العسير أن يقال أن هناك حضارة واحدة في حوض البحر الأبيض المتوسط فإنه منذ جاء الإسلام فقد انشطر هذا الحوض وقامت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحي والفكري والنفسي والاجتماعي ومن خلال الاسلام أقامت حضارة لها مضمونها الاجتماعي ولها نظريتها الخاصة ولها منهجها في المعرفة ، ومنهجها العلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها وقامت عليه الحضارة الحديثة .

لقد قامت الحضارة الاسلامية على نحو معجز عجيب في خلال أقل من مائة عام من حدود فرنسا إلى حدود الصين فشكلت منهجاً جديداً متغيراً بل معارضاً في كل مضامينه لمفاهيم الفكر البشري الذي قامت عليه حضارة اليونان والرومان والفرس والحضارة الغربية الحديثة من بعد .

وإصدق في هذا ما أورده العلامة علال الفاسي في بحثه عن تفسير التاريخ حين قال :

إن للتاريخ في نظر الإسلام مرحلتان :

(أولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم المرسلين .

ولم يكن « محمد » بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصحابها الانحراف الذي يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح أفاق التقدم الإنساني، فكان لابد أن يعث الرسول الخاتم الذي يضع الإنسان في جو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والحسم فكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هي وجود الرسول نفسه وبذلك يصبح ماضى الأمة وكأنه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامى .

(ثانياً) المرحلة الثانية هي نهاية التاريخ الدنيوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر وهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين أسباب عملياته ، أ.هـ .

ومعنى هذا أن هناك حضارتان : حضارة واحدة سبقت الإسلام على النحو الذى أرادها لها أصحابها من إقامتها على أسس الفكر البشرى وحصيلته الضخمة من الوثنيات والأساطير ، وهى الحضارة الوثنية .

وحضارة التوحيد التى بدأ بها الإسلام مجدداً دعوة الله القديمة الحنيفة فى هذه الأمة إلى التوحيد والأخلاق . ومن هذا يبدو زيف دعوى القول بأن

العرب كانوا جزءاً من حضارة البحر المتوسط القديمة والجديدة . ومرحلة من مراحلها .

( ٥ )

بل أن الأمر أبعد من ذلك كثيراً ، فإن الاسلام كان له أكبر الأثر في التاريخ الغربي وفي الحضارة وقد اعترف الغربيون بأن ظهور الاسلام هو الحادث الأنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ وأنه هو الحد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة .

وقد شهد بذلك صفوة من الباحثين في مقدمتهم ( هنرى بيرين ) في كتابه ( محمد وشارلمان ) فقد نوه بأن الاسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي حتى ليكن أن يقال أن العصر الوسيط ، والنهضة الحديثة نمرتان من نمار جهود الاسلام .

فلم تكن تهب ثورة الاسلام وتسير ركائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار . « وأنه قد قامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من المشرق والجنوب فاضطربت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوربا في العصر الوسيط وإبان العصر الحديث .

« أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه إلا معركة بواتيه التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ، وظل البحر الأبيض بجرماً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عن الحضارة الراهنة .



## الفصل الثاني

### الفلسفة الروحية الحديثة

تقوم الفلسفة الروحية الحديثة على طرح ابدولوجية جديدة عن طريق عالم الروح بعيداً عن اللون والدين والمذهب السياسي . وتقوم على أساس فكرة جديدة عن الله ومشيئته .

وهي ترى في دعاة الروحية انهم مرسلون كالانبياء ، وان كانت تعاليمهم أرقى . ويرى أصحاب الفلسفة الروحية أن الأديان على اختلافها قد أوجبت في أزمان مختلفة لأمم خاصة .

ومعنى هذا أنها بما لا يصح الركون إليه في كل دوار البشر وجميع أجيالهم وأصحاب الفلسفة الروحية لا يقرون الكتب السماوية (القرآن والانجيل) وقد يستعملون نصوصاً منها يحرّفونها عن مواضعها في سبيل إقناع البسطاء .

وتدعو الفلسفة إلى الإخاء والحرية والمساواة ( شعار الثورة الفرنسية ) المستمد من الفلسفة الماسونية وتقوم الفلسفة الروحية الحديثة من حيث ظاهرها على محاربة المادية والألحاد وإثبات استمرار الحياة بعد الموت ولكنهم يتخذون من ذلك وسيلة إلى القول بأن رسل الله وانبياءه ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقهم . وإن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع .

وتقرر الفلسفة الروحية أن لب الدين بذل الخير لخلق الله ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك . وأن طقوس الأديان ليست إلا أساليب لبلوغ هذه

الغاية. وأن باب التوبة مفتوح بعد الموت. وأن النار والجنة حالة عقلية أو حالة نفسية. أو هما واقع يحسمه الفكر ويصنعه الخيال.

• • •

وتدعو الفلسفة الروحية إلى التحرر من التكاليف والشعائر البديلة<sup>(١)</sup>.

وبالجملة فإن فلسفة «الروحية الحديثة» هي محاولة «لانتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه في قالب جديد من العالمية أو الكونية. وهي تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين».

وبما يقوله فلاسفة الروحية أن الانسان خالد على الأرض وأن الوحي لم ينقطع بوفاة (محمد صلى الله عليه وسلم) وأن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء.

وأخطر دعواهم محاولة التمهيد لمصر جديد وما يسمونه «تهيؤ العالم للقرآن الجديد الذي تأتي به الأرواح لينقذ العالم من حمة الصراع والشرور» وتقوم مفاهيمهم على تأويل الآيات القرآنية تأويلاً عجيباً توصلنا إلى منهمجهم.

«وم ينكرون القيامة على ما يفهمها العلماء لأنهم يمتقدون أن الأرض خالدة وأن الانسان خالد فيها، ويرون أن القيامة قيامتان:

قيامة عدل وقيامة نقمة. أما قيامة العدل فهي قيامة الحياة على هذه الأرض كما يعيشها الآن، أي حياة الصراع بين البشر، أما قيامة النقمة فهي اليوم الذي ينعم الله فيه على الأرض فتسودها الروحية بتعاليمها ويسود (آدم) الجديد في عالم لا يحكمه إلا السلام»<sup>(٢)</sup>.

• • •

(١) راجع الدكتور محمد حسن في بحثه: الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها.

(٢) عبدة الراجحي: في كتابه الضمنية الاسرائيلية.

وتقد ظهرت كتابات متعددة تحاول أن تصور الروحية الحديثة بأنها دين جديد، وأنها منظمة لكل البشر، وعن طريقها سوف يوضح سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة، ويسلطوا البشر فكر جديدة عن الله ومشيته، ويأتون بالسلام والعلمانية الروحية وبسعادة النفس والقلب، ويحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد، وبين العقائد والاديان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ويرد كثير من الباحثين الفلسفة الروحية الحديثة إلى نفس مصدر الماسونية والثيروصوفية والبهائية . يقول الدكتور محمد محمد حسين : من المعروف أن الصهيونية الهدامة تكن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الأخير ، بل منذ الثورة الفرنسية ، ومعنى هذا أن هذه الصهيونية الهدامة هي نفسها التي تغترع هذا الكلام وتنسبه للأرواح .

وواضح من كلامهم عن العلم المسيحي الحديث أنهم يعتبرون المسيحية الماثورة مسيحية تاريخية . وهذه المحاولة نفسها تطبق الآن على الاسلام وقد نجحت في الهند ويقول : قد لا تكون الصهيونية هي المؤسسة للدهوة الروحية وأشبابها فبعض هذه الدهوات نشأ مستقلاً بعيداً عن سيطرتهم ولكنهم تمكنوا من التسلل إليه وسيطروا عليه واستغلوه لصالحهم ، وقد تكون هذه الروحية من هذا الضرب . والثى الذى لاشك فيه هو أن الروحية في وضعها الراهن هي شرك من شرك الصهيونية العالمية الهدامة وآلة في أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والاسلام على السواء ، وهدم العصية بكل أشكالها قومية كانت أم دنيية لكي يمهّدوا لقيام دولتهم الصهيونية التي يتوهمونها وسط أنقاض الحراب العالمى والانحلال الشامل الذى يسهل مهمتهم في السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه .

---

(١) نفس المصدر (من تقارير على عبد الجليل راضي)

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى العلاقة بين الروحية الحديثة واليهودية التلودية : فيقول إن هناك مطابقة كاملة بين مزاعم الروحية وبين عقائد اليهود في تصور الشراي والعقاب خاصة وكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض، وبمثل ما يبشر به (شهود يهوه) بقرب السلام الدائم والنسيم الخالد حين نحكم إسرائيل وتلتصر على أصدائها ويضيف الدكتور محمد حسين قرأتان أخرى : ذلك أن أكبر مركز للحركة الروحية الآن هو نفسه أكبر مركز للحركة الصهيونية وهو أمريكا وكثير من دعاة الروحية ومروجيها من المعروفين بصلتهم بكبار اليهود كذلك يشير إلى بحرية دعاة الروحية بالادمان وبرجال الدين على اختلافهم فلا يبرأ منها إلا اليهود ، فلا تهمها جوارح التلود وما ينطوي عليه نصومها المفترقة على اليهودية من قسوة وخسة وإجرام وهمها جيون الكنيسة الكاثوليكية خاصة لما هو معروف من شدة عدايتها لليهود .

• • •

ومن القرأتين التي تربط بين الروحية الحديثة والحركات الهدامة التي تقدمها الصهيونية العالمية : تركيزهم على أسماء القراضة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء الأمريكيين فهم يعمدون إلى هدم الإسلام عن طريق تمجيد الوثنية الضالة السكافرة ، وتصوير هؤلاء الوثنيين بعد موتهم متمتعين بظلماتية ونفوذ لا يتمتع بها المتدينون بالإسلام والمسيحية .

( ٣ )

لاريب أن القول بالروحية كطريق ومنهج فكري وحياة يتعارض مع مفهوم الإسلام القائم على ترابط الروحية واعادته تحت لواء التوحيد الخالص .

ذلك أن الاتجاه إلى الروحية وحدها إنما ينصر أحد الجانبين ويعلج إحدى الكفتين فيحول دون التوازن والموازنة .

ومن أخطر المفاهيم : القول بأن الإنسان روح لامادة وهو من الخطأ بما  
يمثل القول بأن الإنسان مادة لاروح ، فالحق أن الإنسان مادة وروح . ولا ريب  
أن أخطر ما يقوم عليه فلسفة الروحية الحديثة : هو تناسخ الأرواح والقول  
بأنه ليس هناك فناء للبغيا وليس هناك بعث ولا حساب .

وهي في هذا المعنى تقوم على مذهب وحدة الوجود الذي يقول : إن الله  
والعالم شيء واحد ، ولا ريب أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإتكار  
الجزء من نفس مبادئ الماسونية مصانة بآخولوب جديد ، وهي إلغاء  
لرسالات السماء .

وكذلك إنكارها الجنة والنار والعذاب والثواب إذ تحاول أن تصوره بأنه  
معنوي ويذهب قادة الروحية الحديثة إلى الدعوة للتحرر من كل القيم والعقائد :

« لا تمسحوا أنفسكم بكتاب واحد ولا معلم واحد ولا مرشد واحد ، فولايتنا  
لا الكتاب ولا الذين نؤلف لعقيدة ولكن الروح الأعظم وحده ، وهم يدفعون  
إلى ما نذهب إليه الفيلسوف المادية من عدم المادة : »

فهم ينكرون فكرة بدأ الخليقة أو نهايتها : ( ليس حقاً أن السكون كان  
معدوماً ثم بدأ فجأة إنما الوجود كان دائماً موجوداً ، ونحن نعرف السكون لا بداية  
له ولا نهاية ، ويفاضل عظم الروحية الحديثة بين الصلاة والعبادة وبين مساعدة  
الضعفاء ، فيرون أن ذلك أكثر تدبيراً من أى عبادة أو صلاة ، وذلك الاتجاه  
واضح في الفيلسوفات المادية التي تحول من العقائد من الأخلاق .

• • •

ولعل أخطر التجهيزات لفلسفة الروحية المادية : هي الاتصال بأرواح الموتى :  
يقول الدكتور محمد محمد حسين : « إن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله في متناول  
كل إنسان والاستئانة به في علاج مرضانا وفي شئون دنيانا المختلفة إفساد للحياة

التي يقوم بعض عمراتها على التنافس واستباق الميزات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائمة المتكررة في سبيل التفوق وفي التغلب على الصعاب والانتصار على مضادز التعمب والقلق ومن يدها المرض . وهو كذلك إبطال للحكمة في خلق الموق والحياة وما قدر الله سبحانه وتعالى وقضى من إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تتنظم بها حياتنا في الدنيا وآخره . ولا ينبغي أن يغيب عن البال إن في عالم الخفاء شريرين ومفسدين وكفاراً وضالين ( وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قعدا : الجن ١١ ) وإن معرفة الأحياء والأموات والجن والإنس محدودة ، بحدود الزمان والمكان الذي لم يحيطوا به ولا سبيل إلى الإحاطة به ، فآله سبحانه هو وحده الذي أحاط بكل شيء علماً . فن استنجد بهم واستمدعهم وهاذ بهم فقد أرق نفسه وغامر بها في المبالغة وعرضها للشر كله ( وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا ) ومن عاذ بالله وتوكل عليه فهو حسبه سبحانه وتعالى ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) ولا سلطان لشرار خلق الله من الجن والشياطين عليه : ( إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ) .

#### ( ٤ )

قد يظنى على كثير من الناس أن الروحية الحديثة التي تعتمد على استحضار أرواح الموتي أو ما يسمونه ( Spiritualism ) هي في حقيقة الأمر شعبة من العلامانية لأنها تقوم على الدعوة إلى إخضاع عالم الغيب للتجريب فهي تلبس مسوح العلم وتسطع اسمه حين تزعم أنها تجرى التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا وتدعى إن هذا سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادة الطاغية والواقع أنها ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها ولكنها إغراق فيه وإمعان في التمسك به لأنها لا تنفع بإخضاع المحسوسات للنهج التجريبي ولكنها تتناول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة وإذا سلم الناس بذلك انتهى الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن إثباته عن هذا الطريق . .

وتعد الروحية الحديثة واحدة من الدعوات التي يحركها الصهيونية العالمية  
لتبشر عن طريقها بما تسميه « المجتمع الجديد » ومنها البهائية والشيوصوفية . فهي  
تهدف إلى القضاء على المجتمع القديم في لغته وآدابه وفنونهم ونظمه وانماط حياته  
وعقله ودينه وكل شيء فيه . وهي خطوة من خطواتهم لاستيعاب من لم  
تستوعبهم المذاهب المادية ، وهي تركزن وكعضاً إلى هدف ( العالمية ) الذي  
يخططون له .

## الفصل التاسع

### التيوصوفية

من المذاهب التي ابتعتها الفكر البشري مجدداً ما أطلق عليه اسم التيوصوفية: أي الصوفية الجديدة . وهي إحدى محاولات اعلاء مفاهيم الفكر الوثني القديم الذي عرفته فلسفات الهند وخاصة في القول بالحلول . وقد جاءت فترة من فترات الفكر الغربي في حيرته داعياً الى التماس مفاهيم البوذية والفلسفات الهندية القديمة ، ثم تجدد هذا في العصر الحاضر من خلال تطلعات الفلسفات الوجودية والهيئية وقد جاءت فلسفة الحلول ووحدة الوجود قريبة من الفكر الغربي المسيحي وملتقية بها فدعاة التيوصوفية يقولون : انه ، اذا كان المسيح قد أسمى نفسه الهاً لذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا اذ هو حال بنا ونحن آلهة مثله ، وما أرواحنا الا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون . . ويمثل هذا يقول سلامه موسى وميخائيل نعيمة وفلاسفة المسيحية المعاصرون.

والمعروف أن الفكر الإسلامي لا يقر هذا المفهوم ويعتبره نوعاً من الانحراف عن المفهوم الصحيح لله والتوحيد الذي يقرر أن الله سبحانه وتعالى مستقل عن العالم وهو خالقه وأن هناك واجب الوجود وهو الله (تبارك وتعالى) ويمكن الوجود وهو هذا العالم وان فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد أو الحلول أو غيرها من الفلسفات انما تستهدف القضاء على قيمة أساسية من قيم الإسلام وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي الذي يستتبع المسؤولية والجزاء الآخروي بعد البعث والحساب وهو ما تنكره الفلسفات الهندية والتيوصوفية .

هذا فضلاً عن أن المعرفة عن طريق التيوصوفية انما تقوم على أساس



الشعور بالباطن أو بالإلهام - وهو ما يتعارض مع مفهوم الاسلام الذي يقوم على أساس منهج متكامل من العقل والوحي ، معا .

ويمكن القول بأن ابتعاث الثيوصوفية إنما هو خيط من مخطط متكامل ، يرتبط بالروحية الحديثة والبهائية ، فهي تعتمد أساساً على كتب البراهمة والبوذيين والمصريين القراصة والقبالة والأحاديث اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح وتنادي الثيوصوفية بما تنادي به كل الدعوات التي انبثقت من فكرة العالمية اليهودية ، فهي تدعو الى الإخاء العام بين الناس : دون تمييز بين العناصر والمذاهب والطبقات والجنس واللون وتتخذ وادى الثيوصوفية وجهاتهما نفس مناهج المحافل الماسونية ، فلا يسأل أحد عن آرائه الدينية عند الانضمام اليها ولا يسمح له بالتعرض لتلك الآراء .

وتحاول الفلسفة الثيوصوفية : أن تربط بمفهوم بشري عالمي هو وجود حياة واحدة دائمة المنشأة خالدة عامة الوجود ، وتبنى على ذلك القول بأن الإنسان خالد ونجمرى الفلسفة الثيوصوفية في نطاق مادعا اليه الفيلسوف اليهودي (سينوزا) من أن الكون كل واحد ، وان كان مكوناً من أجزاء ، وان الله يشمل هذا الكون وأن كل جزء من الكون يعبر عن الله .

وهذه النظرية تتعارض مع المفهوم الاسلامي والى جاءت بها الأديان المغزلة عامة وهو أن الكون موجود منفصلاً عن الله . وأن الله سبحانه وتعالى وجوده الحق القائم بذاته المستقل عن الكون المادى .

والمعروف أن وحدة الوجود بهذا المعنى الذى تدعو اليه الفلسفة الثيوصوفية هو حجر الزاوية فى الديانة الهندوكية فى مواجهة التوحيد فى الاسلام والتثايت فى المسيحية ، وقد ذهب الحلاج وابن عربى الى مثل هذه المعانى تأراً بالفلسفات الهندية وغيرها فعارضوا مفهوم الاسلام الصحيح وناقضوا قيمة

من أعظم قيم الإسلام وهي التوحيد ، ومن أكبر أخطاء دعاة مثل هذه المذاهب ، هو الخلط بين الأديان أو محاولة إيجاد وحدة بينها على أساس مفاهيم ليست هي من أصول الدين الحق : ولقد نشأت مثل هذه الدعوات الصوفية الفلسفية في البيئات التي تعمق فيها مفاهيم التوحيد كالهند وفارس ، وقد إنجم الفكر الأوربي في العصر الحديث إلى التطلع لمفهوم الروحية نتيجة لضخامة التحدي الذي قدمته العلوم وما ألقته من شكوك نحو الأديان والعقائد والغيب وقد كان الأوربيون يستطيعون أن يلتصقوا بمفهوم الدين من الإسلام ولكنهم لأسباب كثيرة منها الحقد والتعصب قد آثروا الإتجاه نحو الهند فدعا شوبنهاور إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مبدأ بوذا الذي كان يقول بأمامة الشهوات حتى فصل النفس بعد مجاهدتها إلى حالة (الرفاقنا) التي لايشتهى فيها الإنسان شيئاً ، غير أن الصوفية الهندية لم تستطع أن تروى غلة الصاري أو تحمل الأمانة التي واجهها الفكر الغربي الذي لم يلبث أن اندفع مرحلة أخرى أشد عمقاً نحو المادية . ولا ريب أن أحياء هذه المفاهيم من جديد من خلال مفاهيم الأفلاطونيين القدماء ، والفلسفة البوذية ، هو عودة إلى دجو ، الفنوصية القديمة التي اختلفت فيها التعاليم اليهودية والنصرانية والأفلاطونية والمجوسية .

وما أطلق على تشكله اسم النيوبلاتونزم ( الأفلاطونية الجديدة) . ويرد بعض الباحثين ظهور الثيوصوفية إلى يعقوب بوم المتوفى ١٦٢٤ الملقب بالفيلسوف. الثيوتوني الذي أقام خليطاً وثلياً خطيراً فيه النار والنور التي دعا إليها المجوس ، وفيها النور والمحبة وعصارات أخرى من ماني وبوذا كنفوشيوس وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذا المذهب يعتقدون بالحلول أو التجسد والتقمص .

• • •

ولقد قاوم الفكر الإسلامي مثل هذه المفاهيم وخاصة ما يتعلق بالحلول

والفناء ووحدة الوجود وكشف عن مدى الأخطار التي تترتب عليها خروجاً  
بالإنسان عن المسئولية الأخلاقية وانصرافاً عن الجهاد في سبيل الله ذلك  
أن الإعتقاد بالحلول يسقط التكاليف كلها ومن بينها الجهاد ، وأن مثل هذه  
الدعوة إلى الحب الهندوكي وهو حب الفناء تصرف أصحابها عن الاحتفاظ بما  
يسمى الجماعة الإسلامية التي دعا الإسلام لصيانتها ودفع الإعتداء عنها عن  
طريق الكفاح والجهاد .

ولا ريب أن الرهبانية التي تقوم على الحب الإلهي تناقض فكرة الجهاد  
في سبيل الله تماماً كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

ولا ريب أنه معنى وحدة الوجود ( يؤدي إلى إنكار الثواب والعقاب  
أو ينكر مفهومه الإسلامي الواقعي فيراه نوعاً من وخز الضمير ومن هنا  
يستوى الخير والشر ، وينفتح الطريق أمام إباحة كل المحرمات .

## الفصل العاشر

### الفلسفة البهائية

الفلسفة البهائية هي إنبعاث جديد للباطنية القديمة التي شكلها الفلاة من مجموعة فلسفات مختلفة وتحمل منوعه فهي مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام ومن إعتقادات الفلسفة الصوفية والباطنية .

وهي محاولة لخلق مذهب يحتوي على جميع رغائب فرق العالم والمواهب بالجديد وتذويب الأديان ( المنزلة اليهودية والمسيحية والإسلام ) ، في مذهب واحد يقوم على أساس ما يتفقون عليه جميعاً وهو التوراة ودين موسى .

وتقوم الفلسفة البهائية على التأويل شأنها شأن الدعوة الباطنية القديمة وتستهدف أساساً تأويل نصوص الشريعة ، وتغيير أحكام الصلاة والصوم وإبطال الحج ، كما أنها تنكر معجزات الأنبياء موسى وهيسى وعمد وتقول البهائية بقدم العالم .

وتصف نفسها بأنها نبوة تقوم على ظهور مخلص للعالم تتجلى في هيكل البشر وتذهب البهائية إلى الإدعاء بأن الأنبياء استروا الحقائق تحت شعار الإشارات .

وتستهدف من التأويل تحويل القرآن والسنة وصرهما عما يراد بهما من حكمة وهداية والزعم بأن شريعة البهائية ناسخة للشريعة الإسلامية وهي تدهو إلى مساواة الرجال والنساء في الميراث وتعارض الجهاد وتدهو إلى نزع السلاح

وإلى إنكار مقاومة العدو ونشر السلام العام ونبد المصيات الوثنية كما أنها تنكر البعث والجنة والنار وتأول ما جاء عنهما في القرآن فتقول أن الجنة والنار في السكتب المقدسة حقائق مرهوزه .

وهم ينكرون إعجاز القرآن وأنه من عند الله كما ينكرون صفات الله .  
وقد حاولت البهائية أن تلصق نفسها إلى بعض فرق الشيعة غير أن علماء الشيعة هاجموها وحكموا بكفر دعاتها وإرتدادهم .  
ويرد الباحثون والعلماء الفلسفة البهائية إلى أنها ثمرة لمحاولات خصوم الإسلام والمتأمرين عليه التي امتدت خلال ألف سنة .

وانها صورة جديدة لمفهوم قديم ومذهب من مذاهب الإلتفاض على الإسلام وفقاً لمخطط الجحوس الذين استهدفوا إضعاف شوكة الإسلام فلم يجدوا أسلوباً أوفق لذلك من تأويل الشريعة على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم ومن هنا كانت هذه المحاولات ذات العريق الذي يغري الشباب الذي لم تتحقق له أرضية صلبة من مفاهيم الإسلام ، ومن ذلك قولهم : العمل على تغيير رسالة الإسلام باسم الإسلام وإيجاد دين آخر غير الدين الأصيل كما تتلقاه الصحابة والتابعون والسعي في التغيير حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه .  
ويقوم تحريف الباطنية على تفسير المصطلحات المعروفة في اللغة العربية تفسيراً مخالفاً لحقيقتها .

ولقد كان اليهود هم أولى الفرق التي عمدت إلى حل لواء دعوى التآويل وذلك حين قال فيلسوفهم ( فيلون ) بتأويل التوراة ذاهباً إلى أن كثيراً من مضامينها إنما هي رموز ترمز إلى أشياء غير ظاهرة ثم حلوا من بعد مثل هذه الدعوى إلى الأدیان ، وكانت الباطنية في القرن الرابع وغيره من أقسى خصوم الإسلام غير أن علماء المسلمين من أمثال الغزالي وابن تيمية كشفوا أوراقهم وزيفوا دعواهم ، ودحضوا نظريتهم .

ومن أهداف الفلسفة البهاية : مهاجمة اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن والدعوة إلى ما يسمونه اللغة النوراء ، وذلك على أساس أن اللغة العربية هي وعاء القرآن ولغة العبادة والثقافة للمسلمين فضلاً عن أنها لغة العرب كافة ولغة الفكر الإسلامي كله .

(٢)

أن مراجعة تاريخ البهاية ليكشف عن دوافعها كما يكشف عن بواعثها .  
ومن النظرة الأولى نجد أن يهود إيران هم أول من دخل في حركة البائية بشكل جماعي في أربع مدن وخلال أمد قصير دخل منهم ٣٨٥ يهودياً .  
ومن المأسونية تصدر جولد زيهر المستشرق ودوج لهذه الحركة .

ومن المبشرين في الغرب اهتم بها لورد كرزون - استلين كارينتر ، براون ، فامبرى ، الكونت جوبيليو ، البروفسور جيمس ، وغيرهم كثير .

أما عباس البهاء فقد أنعمت عليه الحكومة البريطانية بأعلى ألقابها ( فارس الامبراطورية البريطانية ) تقديرآ له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين في فلسطين ( وكان مقبياً بحيفا خلال الحرب العالمية الأولى ) . وقد احتفل بدفته في فلسطين باحتفال كبير حضره هربرت صمويل المندوب السامي البريطاني اليهودي الأصل .

وقد كشفت الأحداث كثيراً من بواعث البهايين ودوافعهم ، وكان أخطر ما هو إنعقاد المؤتمر العالمي للبهايين في إسرائيل عام ١٩٦٣ فظهر بوضوح الرابطة الأكيدة بين المأسونية والبهاية دين اليهودية التلودية وبين هذه الفلسفة التي استمدت مفاهيمها في الأغلب كلها من السكابالا اليهودية .

وأبرز ارتباط بين البهاية واليهودية التلودية هي الدعوة الى عالمية الأديان

وقد استجاب البهايون لأهداف الصهيونية في تحريم الجهاد على أتباعهم وقد كشف أحد البهايين في التحقيق الذي أجرى معهم هذا المعنى حين قال :

« إنه لو أجبر على حمل السلاح في مواجهة إسرائيل لأطلقه في الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية »<sup>(١)</sup> . « وقد أحل البهايون الرها بإيعاز من اليهود ، وقد اتخذت البهائية أساليب الماسونية ونظمها ومحافلها وهياكلها ، وقد تركزوا في أدنه وسالونيك في تركيا وهي المناطق التي تزدجر بالدوغة والتي حملت لواء الماسونية ومن خلالها ظهرت حركة تركيا الفتاة التي كان لها أبعد الأثر في تدمير الرابطة الإسلامية بين العرب والترك وفتح الطريق إلى فلسطين لليهود بعد أن حجهم عنها السلطان عبد الحميد خلال مدة حكمه . كما استوطن البهايون حيفا وعكا خلال الاحتلال البريطاني لفلسطين لتمضيد الصهيونية العالمية والوجود اليهودي في الأرض المقدسة .

كما أن هناك علامة التقاء ومشابهة أخرى تدل على وحدة المصدر ، ذلك هو اتخاذهم شعار الماسونية ( حرية - إخاء - مساواة ) .

وقد كشفت مصادر البهايين عن أن مبادئها مستوحاة من التوراة ( العهد القديم ) وأن عباس الملقب بعبد البهائ قد أدخلها ضمن العقيدة البهائية وقد عملت البهائية على تقويض أركان العروبة في فلسطين وتشير المصادر إلى أن عبد البهاء كان ماجناً مفرطاً في مجونه وقد تكشف ذلك إبان زيارته لسويسرا وانجلترا وفرنسا ، ذلك « لأن من أساس دعوته التحرر من كل شيء ، حتى العرى مباح لدى البهائية وكان يشيد بالأفكار المجوسية ويندد بدعوة الانبياء ويصفهم بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق » .

وقد كانت نبوءة البهائية بظهور زعامة تجدد العالم بمثابة إشادة لقرب حلول  
السيطرة اليهودية ممثلة في الحركة الصهيونية .

(٣)

إن محاولة البهائية في أن تصبح ديناً عالمياً كانت من المحاولات التي ظاهرتها  
قوى كبيرة وأموال ونفوذ ومع ذلك فإن كل ذلك عجز أن يحقق لها بعض  
ما تريد :

وفي هذا يقول العلامة فريد وجدي : « إن طموح البهائية إلى أن تكون  
ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم وتعلمهم هو عما يقضى بالعجب ،  
لأنها ليست بدين سماوى ، وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول  
إليها بعد أن هالفت في عرض نفسها على الأمم ، فأين هي من الإسلام الذى  
بنى أمماً قوية . ومدنيات فاصلة في خلال عصور متعاقبة . ولا يزال على مثل  
دعوته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو أن مبادئ الإسلام  
تتشك أن تعم العالم أجمع . » ويقوم الإسلام على أصلين ضمنائهما النعيم  
والخلود : هما موافقته للفطرة واعتباده على العقل والعلم ، فأين البهائية من هذا  
الموقف العلمى الحق وهى تقوم على أصلين أحدهما عتيق غامض قال به أفراد  
من مجي السبح في الخيالات وهى تصوير ذات الله بصور المخلوقة . وثانيهما  
سرف الالفاظ عن ظواهرها بحال فسبح للظنون والأوهام والخطب .

« إن كل تحديد في مجالات النظم الاجتماعية والتطورات الفعلية وكل نجاح  
يحققه دين أو نظام يكون مناسباً للقدر الذى يحمله إلى الناس في الوفاء بالحاجات  
الماسة للأمم والشعوب .

« تدعى البهائية أنها أتت للعالم بمجديد في الأصول ولم يدر في خلد المصلحين  
قبلها كاتحاد الأديان وترك العصابات واتحاد الاجناس والسلام العام ومساواة  
المرأة بالرجل .



• أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسه على أقوى الأصول  
وحاطه بأحكم الدلائل ، فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات  
التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قاداتها عليها من الأهوام ، فالإسلام  
يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل  
من غير تفريق بينهم .

• إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع  
شروط الدين العام .

## الفصل الحادى عشر

### فلسفة التربية الغربية

قامت فلسفة التربية فى الفكر الغربى فى ضوء التحول من الفكر المسيحى إلى الفكر المادى . وتبلورت فى صورتها النهائية فى مفاهيم ديوى ودوركايم وتقوم أساساً على ما قرر فرويد ومدرسته فى النفس والجلس وهى مفاهيم تقوم فى أساسها على حرية التربية وإطلاقها من كل قيد ، ورفع الرقابة والتوجيه عن الأجيال حتى فى أقل المراحل تعرضاً للأخطار وتستمد هذه المفاهيم جوهرها من اقتراض فرويد الذى كان موضع معارضة زملائه فى نظرية التحليل النفسى وهو اعتبار الجلس مصدراً أساسياً لكل الدوافع والغايات البشرية . وكذلك فيما ذهب إليه فرويد اقتراضاً ولم تؤيده التجارب العلمية والإحصائية مما أشار إليه من آثار الكبت التى بالغ فى تقدير أخطاره حتى أوصلها إلى الجنون . ولقد عمدت دعوات تحرير التربية من سلطان الدين فى أوروبا إلى فصل الدين عن التعليم نهائياً والحيولة دون رجال الدين وبين المناهج على نحو قطعى فى نفس الوقت الذى أضافوا فيه الفلسفات المادية من أجل تخرج أجيال لاصلة لها بالدين أو القيم الروحية إطلاقاً ثم تشكلت مفاهيم الأخلاق على النحو الذى يفترض تطور الأخلاق بتطور المجتمعات . ومن هنا فقد أصبحت فلسفة التربية منعزلة تماماً عن مفهوم الدين والأخلاق .

هذا بالإضافة إلى ما جرى تحقيقه من تدريس الجلس وإذاعة الأدب المكشوف وقصص الغرائز وكل ما من شأنه أن يحول دون اعلاء الرغبات

أو التمسأى بها . ثم اتصل هذا بانتقال عمليات التربية من مجال الأسرة إلى مجال المدرسة كلية وذلك نتيجة تسليم الأمهات الصاملات أطفالهن إلى دور الحضانة .

يقول الكسيسى كاريل فى كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهذا ترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطيعوا الانصراف إلى أعمالهن أو مظامهن الاجتماعية .

« إنهم مسئولون عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة ، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقاً للقوالب الموجودة فى محيطه .

## (٢)

ما مفهوم التربية الغربية ، وما هى فلسفة التربية الغربية ؟

لندع واحداً من أبرز من تعلموا فى الغرب يحدثنا عن هذه الفلسفة هو الدكتور فاضل الجالى :

« إن نظم التعليم الغربية قد تكون فى الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو انشطارية ( Dualists ) فهى فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة .

فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدى بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عديمة [ وفى نشأة الشاب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش فى فراغ روحى ] نحن نعتقد أن الفلسفة الانشطارية أو الثنائية — فى التربية الغربية تصبح لعنة فى حياة الإنسان حين

يتصل الدين من الدولة ، والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين . « إن التربية الغريزية فضلاً عن حاجتها إلى الوحدة والترابط يعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود أيضاً ، « إن الترب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين ، كل واحد يمتاز في حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلماً يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع .

« كل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون أن يكون له تماس مع الاختصاصات الأخرى ، أو أكثرات يوجه نظر أصحابها .

« فالعالم مثلاً لا يهتم كثيراً بمصير القيم الأخلاقية . والسياسي والإداري قد يصوغ مقاييسه الأخلاقية العملية الخاصة به .

« وتربية الفكر قد لا تسير جنباً إلى جنب مع بناء الأخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجليل .

« وفي التربية الغريزية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الإنسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

إن أهم نقائص التربية الغريزية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للإنسان والمتطلبات الخلقية الروحية .

## (٢)

تعد نظرية ديوي ، هي أبرز النظريات المطروحة كأساس للتربية في الفكر الغربي والتي جرت المحاولات المتعددة لتقلها إلى الفكر الإسلامي وتقوم فلسفة ديوي أساساً على نظرية دارون في التطور العلمي والتي تذهب إلى أن جميع الكائنات الحية قد نشأت عن تركيب عضوي بسيط وتطور مع الزمن .

وإن الأجناس الحية في حالة تطور دائم تفرضها متطلبات المحيط من أجل البقاء .  
وإن العالم في حالة تغير وتطور دائمين مما يبنى فكرة وجود نظام أزلى ثابت بل  
عالم لا يعرف الاستقرار مع الدعوة إلى الإيمان بطاقة الإنسان الفكرية وقدرته  
على وضع الشرائع وبناء المؤسسات التي تنظم حياته وتقوم فلسفة ديوى في التربية  
على صفة التجريبية التي تتخذ الاختبارات البشرية مصدراً للمعرفة والقيم وقياساً  
لها<sup>(١)</sup> . والنظرية على هذا النحو تتعارض تعارضاً كاملاً مع مختلف المفاهيم  
الأساسية للفكر الإنساني فهي تنكر الرسائل السماوية والبعث والجزاء  
والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي . وتنكر عالم الغيب . فهي بذلك تعلن  
ماديتها الخالصة هذا بالإضافة إلى عشرات التجارب التي أثبتت عجز الإنسان عن  
الخروج من أهوائه الخاصة لوضع تشريعات تحميه من التحديات المختلفة التي  
تفرضها الغرائز والشهوات والمطامع .

#### (٤)

تستمد التربية في الفكر الغربي مفاهيمها من قيم الفلسفة الغربية بعد أن  
انفصل الفكر عن مفاهيم اللاهوت القديمة وقد صبغت تيارات عديدة كانت  
بمنابة الأسس والدعائم ومعالم الطريق والإشارات الموجبة :

(أولاً) من ناحية الدين : فقد ثارت أوروبا على الدين بمفهوم المسيحية الغربية  
والكنيسة وجاء ذلك في أعقاب الثورة الفرنسية التي قصدت أساساً إلى تحطيم  
الفاصل بين المسيحي واليهودي في المجتمع الأوروبي ومنه انطلقت حركة الفكر  
الغربي على أيدي من أسسوا أنفسهم المحررين أو المنورين فكانت حملتهم الأولى  
على رجال اللاهوت باقصائهم من مجال التعليم كلية أو إخراجهم من البلاد كما  
حدث بالنسبة لرجال اللاهوت المسيحي في فرنسا الذين طردوا منها وسمح لهم

بمباشرة نشاطهم في المستعمرات . ولم يتردد ( جول فرى ) أكبر من حارب وضع الكهنوت في فرنسا ووضع القوانين التي تحدد ساحة عمل رجل الدين على أساس حرمانهم حق فتح المدارس من أن يقر عملهم بالتبشير خارج فرنسا لتوسيع نفوذ فرنسا .

والمعروف أن مفهوم التربية تحول بهذا تحولا خطيرا فقد انتقلت مناهج التعليم من أسلوب اللاهوت مباشرة إلى الأسلوب العلماني القائم على مذهب دارون ومفاهيمه التي استمدتها رجال المذهب في مجال الاجتماع .

والمعروف أن مفهوم الدين قد انتقل في هذه مراحل حتى سقط بعد ذلك نهائيا . من هذه المراحل مرحلة ما يسمى بدين البشرية ودين الطبيعة وفي خلال هذه المرحلة فصلت الأخلاق عن الدين وأقيمت لها معايير مستقلة .

وكان ذلك إيذانا بإعلاء مفهوم التطور المطلق وفي أحضانه ظهرت فكرة نسبية الأخلاق وقد كان لذلك أخطاره البعيدة المدى فقد استتبع ذلك القول بانتهاء الحياة بالموت وبذلك جرت محاولة لإسقاط المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي للفردي القائم على أساس الإيمان بالبعث والجزاء في الآخرة .

وكان ذلك في مجال التربية بعيد المدى إذ أنه يوحى بالحرية المطلقة في السلوك دون تقدير لأي عامل من عوامل الضبط أو الإعلاء أو التنظيم الذي لا يقوم إلا في ظل « التزام الخلق » .

( ثانياً ) كان لمذهب النفعية أثره البعيد في توجيه التربية : فلم يعد للقيم النفسية والأخلاقية والروحية أى قيمة مستقلة . فقد راجت في أوروبا من خلال انحصار الدين المسيحي فلسفة النفعية أو المنفعة ( Unilanism ) وعلى أساسها قام بناء الحضارة ومنها انبثقت فلسفات ديوى ووليم جيمس مما أطلق عليه « البرجماتية » .

( ثالثاً ) سيطر مفهوم : أنه ليس في الدنيا أعظم من الإنسان وليس في الإنسان أعظم من العقل وبذلك سقطت من الفكر الغربي قلعة الإيمان بالله خالق الإنسان .

وكان لإعلاء العقل وتقديس العلم أبعاد الأثر في أصول التربية التي تنبج إلى إلغاء جوانب الحياة الأخرى : كالغيب كله وما يتبعه من أساليب ومفاهيم وأصول في المعرفة يعجز العقل أن يتقدم إلى مبادئها ويضل وحده .

( رابعاً ) سيطر مفهوم بقا الأصلح . وهو المفهوم الذي دعا إلى احتكار الضعفاء والمؤمنين وأصحاب البلاد المستعمرة مع إباحة التلخص منهم وإعلاء المجلس الأبيض صاحب أمانة الحضارة على مختلف الأجناس الملونة وبذلك هدمت في التربية الغربية قاعدة الأخاء البشري والرابطة الانسانية العالمية .

( خامساً ) يسيطر على التربية الغربية مفهوم تنمية الجسم بمفهوم إطلاقه الغريزي نحو الجنس والعناية بالجسد وتجميله وعبادته دون تقدير للجوانب الأخرى النفسية والروحية والخلقية ودون إيجاد التوازن بين الجسم والعقل والقلب وذلك في مقابل تهذيب الفرائز وإعلائها وضبطها في مفهوم التربية الإسلامية .

( سادساً ) غلبة الطابع المادي على التربية نتيجة لغلبة الطابع المادي على الفكر كله وعلى الحياة الاجتماعية والحضارة :

فالحياة تقوم على أساس تمجيد القوة المادية ومن هنا غلب طابع الصراع والحروب والسيادة وفي هذا يقول أحد علماء التربية :

« إذا كان العالم يسر اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد أنشأ نفسه

على أساس تربية فلسفتها البقاء للأصلح وقوامها العنصرية ، ويرى بعض الباحثين أن دين الغرب اليوم هو المادية :

ويقول جون جنتز : « أن الغربي يعبد البنك ستة أيام في الأسبوع وفي اليوم السابع يتوجه إلى الكنيسة » .

وواضح أن طابع اليهودية التلودية : ذات الأساس القائم على الربا وعبادة العجل الذهبي قد سيطرت سيطرة كاملة على مفهوم الفكر وبالتالي على مفهوم التربية وتنشئة الأجيال الجديدة .

( سابغاً ) وبالجملة فإن مفهوم التربية يقوم على فصل كامل بينها وبين الدين والأخلاق من خلال تفسير الدارونية للتطور المطلق وتطبيق تشريعات الحشرات والحيوان على الإنسان ومن خلال نظرية فرويد القائمة على أن الجنس هو مصدر التصرفات البشرية جميعاً . وأن الموت نهاية الحياة فليس هناك جزاء أو مسئولية أو التزام أخلاقي ومن خلال إعلاء المجلس الأبيض على الأجناس وعلى أساس الفصل بين المفاهيم والقيم من خلال القول بالانحصار ، والقول بأن الأخلاق مرتبطة بالمصور والبيئات وأنها متغيرة لا ثابتة . ومن خلال مفاهيم إطلاق الشباب دون التوجيه وتصوير الأب بصورة العدو الأكبر وباسم رفع الوصاية عن الشباب وإطلاقه في حرية ليشق طريقه .

( ٢ )

## التربية في مفهوم الإسلام

|| أما التربية في مفهوم الإسلام فإنها تعد بمثابة وسيلة بناء لاعداد الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو في نفس الوقت جزء من المجتمع ، وفق منهج شامل قوامه الايمان بالله والعمل في الأرض ، جامعاً بين الحركة والخلق ، والعقل



والقلب ، والدين والدنيا ويقرر الاسلام أن الانسان يولد خيراً لا شراً  
وقد ربطت التربية الاسلامية بين التربية والتعليم على أساس تقدير واضح بأن  
العلم وحده لا يكفي مالم تصحبه تربية الذوق والعقل والزوج ، وتنسم التربية  
الاسلامية بالشمول : وتتضمن تربية الأفراد تربية كاملة من النواحي العقلية  
والخلقية والبدنية ، ثم تربية الأفراد من خلال المجتمع ، تربية أخوية تعاونية  
قوامها المحبة والايثار .

وهي تركز على الايمان بالله وتجمع بين الايمان بالانسانية وبالأمة وبالعلم  
والعمل والحرية . وتعد الأخلاق ركيزة أساسية في مختلف مجالات الاجتماع  
والسياسة والاقتصاد والتربية على أساس أن التربية الخلقية هي مصدر الحصانة  
في مواجهة المفريات والانحرافات . ويمكن أن نركز مفهوم الفكر الاسلامي  
في التربية على هذه الأسس :

١ - الجمع بين العلم والخلق ٢ - تربية الفرد في جوانبه المختلفة (عقلاً  
وقلباً وجسماً) ٣ - استغلال استعداد الطفل وميوله الفطرية والغريزية  
٤ - أهمية أثر القرآن في تهذيب الطفل وإطلاق لسانه وتحسين عبارته  
٥ - تهذيب النزعات الغريزية كالشهوة للطعام والاثرة .

٦ - اعتبار الأخلاق سابقة في الأهمية عن العلم ٧ - تطهير النفس  
من الرذائل والنقاص قبل البدء بالتعليم ٨ - غرس الأخلاق وتكوين  
الفضائل والمثل العليا باعتبارها هي العمل الأول ٩ - كل تربية لا يكون  
أساسها أخلاقى فهو تربية ناقصة .

\* \* \*

فقد استهدف مفهوم التربية في الفكر الاسلامي بناء مجتمع سليم متعاطف  
متوازن يبناه أفراداه وبناء الأخلاق كأرضية أساسية للعلم والثقافة .

(٢)

لما كانت التربية تجسّد كل ما تعزّز به الأمة من قيم مؤمنه وإنسانية أصبح من الطبيعي أن تتجسّد في التربية « روح الأمة » ، والفصل بين التربية والدين إذا صلح كمنهج في الغرب ، فإنه لا يصلح في البيئة الإسلامية التي يجعل من الدين والأخلاق مقومات أساسية والتي لم يكن الدين فيها معارضاً للنهضة أو للعلم أو التقدم . ذلك أن العامل الأول الذي دفع الفكر البشري في الغرب إلى تفرّج التربية من مفهوم الدين وإقصاء رجال الكهنوت عن المدرسة ، إنما اتصل أساساً بذلك الخلاف العميق الذي قام بين الكنيسة والنهضة العلمية . غير أن التربية الغربية اندفعت في طريقها من خلال مفهوم مادي خالص ، فدفعت الأجيال إلى التحرر المطلق من كل القيم والعقائد والضوابط ، التي من شأنها أن تحمي الشخصية الإنسانية من الانهيار والتدمير .

هذا فضلاً عن الإسراف في نظام التخصص ، الذي قضى على قيام الأساس الرابط الجامع بين الجوانب المختلفة التي يتشكّل منها المجتمع والإنسان ذاته بوصفه روحاً وجسداً في نفس الوقت . ومن هنا كان إنكار الجوانب الروحية والأخلاقية والعقائدية من العوامل البعيدة المدى في النتائج التي ترتبت على ذلك بظهور آفات التمزق والضياع والعبث والغربة وتسلط تيارات الانحراف والتحلل التي أسرفت في التماس مصادرها من مفاهيم فرويد ودوركايم وسارتر وغيره .

(٣)

يبدو التباين واضحاً بين منهج الفكر الإسلامي بوصفه الفكر الإنساني وبين منهج الفكر البشري بوصفه الفكر المادي في مجال التربية في نقاط عديدة ، أهمها :

١ - إن التربية الإسلامية تأخذ الإنسان أخذاً شمولياً (روحياً وجسدياً) وترسم له طريقاً من الضوابط التي تحميه وتدفع عنه الأخطار .

بينما يجرى الفكر الغربى وراء نظرية زائفة هى نظرية : رفع الالتزام والتوجيه عن الإيفاع والشباب وإطلاقهم إطلاقاً كاملاً وتصور رابطة الأبوة والاستاذية ومعين التجربة فى صور عدوانية ، فى محاولة لعزل الأجيال الجديدة عن الأصول والجذور أياً كانت .

٢ - يقرر الإسلام مبدأ الأخوة والمفهوم الإنسانى والرحمة بالضعفاء وينكر فوارق اللون أو الجنس ويمثل البشر جميعاً وقد جمعهم رابطة إنسانية كاملة بينما تنظر مفاهيم التربية الغربية إلى الناس على أساس :

(١) استعلاء الجنس الأبيض صاحب السيادة .

(٢) احتقار الأجناس الملونة والدعوة إلى إبادةها .

(٣) إقامة العلاقات بين الناس على أساس مذهب المنفعة .

٣ - من أخطر ما يتسم به الفكر الإسلامى أنه يقيم منهج المعرفة على أساس : العقل والقلب معاً .

فلا يعلى العقل إعلاءً يخرج به عن وظيفته واستطاعته وطاقاته ، ولا يقدس العلم بل يرى أنه أحد ميادين الفكر والحياة . ولا تنظر إلى المحسوس والملوس وحده ولكنه يؤمن بعالم آخر هو عالم الغيب ، فيه الوحي ورسالات الأنبياء وفيه الآخرة والجزاء .

٤ - يقيم مفهوم التربية فى الإسلام الحياة على أساس « التقوى » ، لا على أساس المادة ويرى أن الحياة الدنيا دار عمل ، وبناء وتشيد ، ولكنه ليس

للطمع المادى ولكن لإقامة نظام الكون . ويرى الإنسان فيها مستخلف في الأرض لله تبارك وتعالى ومسئول وصاحب أمانة ، ومحاسب على أمانته ، والعلم عنده مرتبط بالإيمان بالله ، ويعطاه الإنسانية ليدفعها بعيداً عن الصراع والاستبداد والعبودية ، بينما تربي مفاهيم الفكر الغربى اللشء على أساس تمجيد القوة المادية والاستعلاء بالعنصرية ، وتقيم عامل المادية أساساً لمعاملاته وتغالى في إبراز طابعه المصرفية الربوية .

( ١ )

وصف جولد زيهر مذهب الاسلام فى التربية فقال :

يلبغى أن نوقن بأن فى مذهب الاسلام قوة صالحة توجه الانسان نحو الخير ، إن الحياة المنفقة مع التعاليم الاسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله والوفاء بالعهود والمحبة والأخلاص ، وكف غرائز الأنانية .

\* \* \*

ويرى الباحثون الذين عقدوا المقارنة بين التربية الاسلامية والتربية الغربية إن أبرز مميزات الاسلام : أنها بعيدة عن الثنائية والانشطارية فهى لا تفصل الدين عن الدولة ، ولا الروح عن الجسد ولا الفكر عن العمل ولا العلم عن الدين .

يقول الأستاذ فاضل الجمالى « أن الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الأخلاق ، بل يجب أن تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية وأخلاقية ذات مصدر إلهى .

والمسلم الذى لا يفهم دينه على الوجه السكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية الثنائية التى تمارس فى الغرب .

\* \* \*

ويقول : الدين الاسلامي من حيث الأساس ليس مضاداً للتربية الغربية ، بل على العكس فإن الروح العلمي والتقني السائدين في التربية الغربية وما في الحياة الغربية من إنجازات إنشائية تشكل جزءاً كبيراً من محتويات الدين الاسلامي ذاته .

ولكن الاسلام يعارض النظريات المتطرفة والميسول اللا إنسانية .  
والتراخي الأخلاقي .

### (٥)

تقوم التربية الاسلامية على المسؤولية الفردية وعلى الالتزام الأخلاقي .

وقد استمدت التربية الاسلامية جذورها من القرآن : فالقرآن المنزل من عند الله هو الذي قدم للاسلام أسلوب التربية : والعقل وحده يكون عاجزاً عن وضع الحطة المثلى للتربية ، ولذلك فإن مفاهيم التربية في الفكر الغربي قد كشفت عن عاذيرها وأخطارها وآثارها البعيدة المدى في الأجيال الجديدة . وأبرز أساس التربية الاسلامية هي الفطرة الانسانية التي جبل الناس عليها :

« فطرة الايمان بقوة أسمى ، ومن هنا تركز التربية الاسلامية على أساس الايمان الكامل بالله والالتقاء بالأخوة مع البشر جميعاً .

وتستهدف التربية الاسلامية ممارسة المسلم للخير والبر والعمل النافع دون حاجة إلى القانون ، استمداداً من إيمانه العميق بالله وحسابه وجزائه .

وكذلك في انصرافه عن الشر والاثم والظلم والأسوة الحسنه هي أساس من أسس التربية الاسلامية ، وعملية التطبيق هي عماد التربية : ومن هنا فهي تتعارض مع طواغيع التربية في الفكر العربي البشري من حيث :

- ١ — معارضتها للنصرية وإعلاء الدم والجنس .
- ٢ — معارضتها للتحرر من طابع الخلق والدين .
- ٣ — معارضتها لإطلاق الشباب دون توجيه أو ضوابط .
- ٤ — معارضتها لفكرة كراهية الأب والمعلم .
- ٥ — معارضتها لانتهاى الحياة بالموت والإيمان بأن وراء هذه الحياة دار للجزاء والحساب .

## لحق: ضوء من الاسلام

ليست هناك نظرة أصدق وأعمق عمقاً في موضوع (الإنسان) من نظرة الإسلام إليه، فالفلسفات تقرر أن الإنسان مجرد حيوان وبعض الأديان القديمة تقرر أنه آثم بحكم ولادته البوذية - والهندوكية تقول أنه مجبور بالتناسخ، بينما ينظر الاسلام إلى الانسان نظرة متكاملة قوامها المادية والروحية معاً، وهو يحيطه بسياج من الضوابط حتى لا يكون عبداً لأهوائه وشهواته، بل قادر على أن يرتفع عليها بعد أن يمارسها في إطار كريم هو الشريعة. وهو يحيطه بكل ما يحول بينه وبين الانحلال والانهيار والضعف فيدعوه إلى السيطرة على شهواته والتحرر منها والاعتدال فيها.

ويقرر الاسلام أن مهمة الإنسان في الحياة هو عمارة الأرض والاستخلاق وعبادة الله. وهذه المهمة تختلف عن فكرة القائلين باذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على العبادة والسمى للآخرة بترك الدنيا. ويرى العلماء المسلمون أن التكسب بالدنيا وإن كان معدوداً من المباحات إلا أنه واجب من أوجه.

### (٢)

والاسلام يعترف بالرغبات البشرية ولا يدعو إلى كبتها ولكنه يدعو إلى ضبطها ويقف بها عند حد متقارب وسيط يحققها ويحول في نفس الوقت دون خطر الاسراف فيها أو خطر مجاراتها كلية مع تقدير خطر الاسراف والمجافاة على الكيان الانساني ومن ثم على المجتمع البشرى كله. ولاريب أن النظرة الإسلامية للجلس تختلف تماماً عن نظرة الفكر البشرى التي تقرر أن المجلس ثمرة خلية جوارح آدم، والمرفوف أن تحريم الزنا في الاسلام لا يبعث عن

كراهية المجلس بل عن إحترام المجلس وتنزيهه عن العبث وإرتفاع بشأن المرأة عن أن تكون أداة لمتعة الرجل .

(٣)

ويقوم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الإنسان :

الروح والجسد ، والعقل والقلب ، فيحول دون الكبت والانطلاق وبين الإباحية والرهابية وبين العرف والحرمان . فهو لا يقر المادية المفرقة ولا الروحانية المطلقة . بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن وموائمة تجعلهما متصلين بالإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح ، وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو فى المجتمع . وبذلك يمكن تضافر إنحرافات الشطط والنطرف ويقضى على ما يسمى بالصراع أو التناقض ويحفظ الاسلام للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الانطلاق أو الجود والتعجر الذى يفرضه الكبت .

( ٤ )

أما مفهوم الحرية فهو فى مفهوم الاسلام : التحرر من ربة التقليد ومن الجهل ومن العقائد الفاسدة وفى مقدمتها الوثنية والتعدد ، أما القول بأن الحرية هى الانطلاق من جميع الضوابط والنظم والحدود فإنه ليس من مفهوم الاسلام ولن تكون الحرية مطلقة فى أى نظام أو مجتمع ، لأنه لا شئ فى الوجود مطلق من كل قيد ، والمجتمعات تحول بتكامل قيمها ومفاهيمها دون أن تكون عرضة لإطلاق الحريات بغير حدود .

فاذا ما جاءت بعض الفلسفات المادية لتصور الحرية على هذا النحو فأنما هى تكشف عن هواها ودفين غرضها ، ذلك لأنها تقدم ما يتعارض مع طابع الأشياء وما يضاد الفطرة ، وما يتحدى النواميس والقوانين التى قام عليها الوجود .



(٥)

### وحدة الوجود

لا يقر الإسلام نظرية وحدة الوجود ولكنه يقر مفهوم الثنائية والتقابل ذلك ، أن في الوجود ثنائية ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية ، بمعنى أن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له ، ولكن لا فراغ بين الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له ، وأن الإنسان جسم وروح ولكن لا انفصال بينهما في حياة الإنسان نفسه <sup>(١)</sup> .

وهنا مقطع الخلاف الواضح والتمايز الكبير بين الإسلام والفكر البشري الذي يذهب إلى أن هناك فراغ بين الله والإنسان في هذا الوجود ، أو أن هناك وحدة وإمتزاج بين الله والإنسان أو بين الله والكون . أو نتيجة الاعتقاد بأن الإنسان جسم فقط ، بينما الإنسان جسم وروح ، ذلك أن الإنسان بدون روح هو هيكل أجوف ، ومفهومه على هذا النحو يجعله أقرب إلى الحيوان في سلوكه وتصرفه .

• • •

ويقرر الاسلام ، أن الوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية أو مبدأ التقابل : الخالق فيه هو الله سبحانه وتعالى والمخلوق فيه طبائع السكائنات المختلفة . .

والله جل شأنه مجرد عن الجسمية والمادية ، وطبائع السكائنات خليط من الروحية والمادية ، الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي تجلّت عنه والتي شاءها سبحانه لمخلوقاته وكائناته . هذه السكائنات بدورها منها المادة وفيها الروح وهي مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك إلا بالعقل

(١) الدكتور محمد البهي — بحثه من قانون الثنائية والتقابل .

والتصور . . بل أن هذه الثنائية في هذه الكائنات الطبيعية كما تتمثل فيما يثقل بالجسم والروح معاً . تتمثل في الحياة والموت ، ( وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ) وتتمثل في القوة والضعف .

• هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله فهو مخلوق وله خالق والخالق روح خالصة والمخلوق مشوب بالمادة .

ولاريب أن وحدة الوجود تحاول القضاء على حرية الإرادة والقول بالخير والشر والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

### (٦)

من أخطر النظريات التي أقحمت على العقائد [ فكرة الحلول ] التي تنقص مفهوم الاسلام الشامل في وحدة الله ، وتنزيهه ، وهي لكونها تستبج فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً متنقلاً وذلك يتناقى مع ثبات صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس ، فالمسلمون يرون هذه المفاهيم ضرباً من تحريف الاسلام ، وهذا الانحراف يحاول أن يخرج الاسلام عن مفهومه الشامل وينحويه نحو الزمادة والانصراف عن الحياة العامقة يقصره على أساليب المجاهدات وما يسمى بالصفاء الروحي للفرد .

وأن فكرة الحلول إنما تشبه تأليه المسيح هيسى وهذا ما يفرى الغريبين بهذه النظريات وما يحاول طرحه من شبهات في أفق الاسلام الرقيب الصحيح .

### (٧)

لقد أصبح معروفاً الآن في مجال البحوث العلمية : خطأ النظرة المادية الخالصة إلى الإنسان على النحو الذي تحاول الفلسفات الاجتماعية التي تتعلق

بالنفس والأخلاق أن تصورده وهي تختلف فيما بينها إختلافاً واسعاً في مضامينها وفي تناولها للأمور .

فالإنسان غير خاضع للقوالب العلمية المادية ، لأنه جسد وروح وعقل وقلب ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون شاملاً ومتكاملاً .

ذلك أن النظرة للمادية إلى الإنسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية أو النظريات التي طبقت على الحيوان ، عليه ، تجعل البحث عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة . ذلك أن الإنسان بالإشارة إلى الحيوان يختلف إختلافاً كبيراً وله قوى أخرى تجعل تطبيق أحكام الحيوان عليه لا توصل إلى النتائج الحقيقية . وما يميز به الإنسان عن الحيوان من عقل ووجدان جعلته مناهج المسؤولية والالتزام والجزاء تجعل الفارق بعيداً .

## (٨)

ينبغي عن هذه المذاهب أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة البناء الحضارى لأن العلم إذا تجرد من إطار الأخلاق تحول نحو الشر والباطل كذلك فإن من المقرر أن هناك رابطة أكيدة وحقيقة بين العقيدة والأخلاق في الإسلام ، والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية وليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي .

والأخلاق في الإسلام يقوم على قاعدة التقوى ، والتقوى هي أس الأساس في مفهوم الحياة انقاءً وامتاعاً لكل ما حرم الله رحمة بالإنسان واجتناباً لكل شر ومعصية ، واتجاهها في نفس الوقت إلى الانفاق والرحمة والسباحة - والتقوى صفة عامة لكل أعمال الإنسان في مختلف المجالات فهي دعوة إلى العمل الإيجابي الرائد وليست شرعة سلبية ، للزلة والانفصال عن المجتمعات .

(٩)

### البعث والجزاء

أن مفهوم البعث والجزاء هو أساس مكين من أسس الاسلام التي تعارضها نظريات الفكر البشري التي تدعو إلى وحدة الوجود أو الحلول أو تقيم الحياة على أساسها القائم والذي ينتهي بالموت وهذه المفاهيم من شأنها أن تفسد صبرة الحياة وإقامة الإنسان فيها إفساداً كاملاً وتفتح أبواب الشهوات والمطامع على مصاريها ، وتسقط المسؤولية والتبعة والالتزام الخلقى إسقاطاً كاملاً .

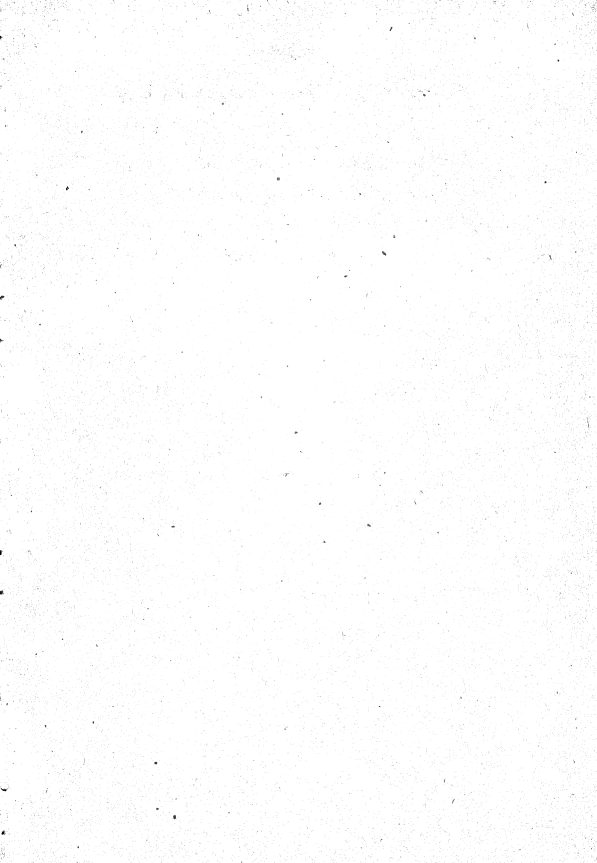
فالبيعة والجزاء مع البعث والحساب : حقيقة جوهرية يقيمها الاسلام إقامة واضحة ولا يسقطها أبداً ، ويضعها دوماً نصب العين والعقول والافهام ، ويجرى من خلالها كل أعمال الدنيا .

ولاريد أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة وليس عامل جمود أو تخلف ، وليس بما تقر العقول والألباب أن تكون الحياة بغير غاية أو يكون الإنسان في هذه الحياة هملاً بغير رسالة أو خلق إهتباطاً أو وجد مصادفة ( كما تقول فلسفات الفكر البشري ) ومن الحق أن الحياة ليست عبثاً وليست النفس ضياعاً ولكنها رسالة ومسئولية وهي حقيقة وتبعه ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء .

هذه الحقيقة في الأصل ثابتة من الفطرة ، ولكن الفلسفات الوثنية التي أنكرت الدين جملة قد دفعت بها بعض العقول إلى الضلال والانحراف .

وحيث تتأكد للنفس الإنسانية هذه الحقيقة تنزاح تلك الأزمة التي نحاول  
أن نفرقها في تيه مضلل .

ونحن نؤمن بإصالة الدين وفي أرضنا نزلت الأديان ومن هنا فإننا نتجاوز  
هذه الأزمة : ولا شك أن القطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع بالوحي والإيمان  
أن تلتبس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بمخالقها الأوحى ، ولا شك أن  
الإلهاد أمر طارئ على النفس وليس من طبيعتها .



# الباب الخامس

## الأديان ومعارنات الأديان

الفصل الأول : معارنات الأديان والدين  
المقارن





## الفصل الأول

### مقارنات الأديان والدين المقارن

من العلوم المستحدثة التي ظهرت في العصر الحاضر : علم مقارنة الأديان وهو علم إنبعث أساساً من مفهوم النظرية المادية وحاول أن يخضع تاريخ الأديان كله للنظرة المادية التي تقف أساساً موقف المعارضة من عالم الميتافيزيقا ومن الغيب كله .

ذلك أن الفكر الغربي حين انحرف عن المسيحية لم يلبث أن واجه حاجة الأمم إلى الدين فحاول أن يدعو إلى ما أسماه بالدين الطبيعي والدين البشري ودين الإنسانية وما إلى ذلك من دعوات استهدفت أساساً التحرر من الدين السماوي .

ولقد أصاب الدينان اللذان عرفهما الفكر الغربي إنحرافات شديدة أخرجهما عن أصولها الأصلية التي جاء بها أنبياء الله موسى وعيسى عليهما السلام .

ولقد كانت الأديان بهذا الانحراف عن مفاهيمها الأصلية قد عرضت نفسها لحلة نقد ضارية مهما أريد بها من هجوم على الدين ذاته فإن خروج هذه الأديان عن مضامينها الأولى ، وتجاوزها في وضع قيم ونظريات بعيدة عن الفطرة ولا تقرها الطبيعة البشرية أو يقتنع بها العقل الإنساني ، كل ذلك عرض هذه الأديان بصورتها التي فرضت على الجماعات ، إلى نقد شديد وكان ذلك سبباً أساسياً في حملة المعارضة لها والخروج عليها ، ثم جاء دعاة المذاهب

والأيديولوجيات فاستغلوا ذلك كله حتى جاءت عبارة أحدم وهو كلول ماركس بقوله انها ديانة الكلاب الذليلة الضالة . ثم جاء الخلاف العنيف ومن بعده الصراع الشديد بين مفاهيم المسيحية ومفاهيم اليهودية . وهو ما يصوره كثيرون وفي مقدمتهم سارسكي حين يقول : نحن نكره المسيحية وحتى أحسن المسيحيين خلقاً عنده أشر أعدائنا . ذلك أنهم يبشرون بحب الجحيزان والعطاف والرحمة وهذا يخالف مبادئنا والحب المسيحي عقبة في سبيل النهضة ويتصل بهذا ما يذهب إليه المؤرخون من أن أوروبا لم تنهض حقيقة إلا بعد أن تخلت عن المسيحية ( الغريبة ) وأن هذه النهضة جاءت على رأس القرن الخامس عشر أي بعد ١٤٠٠ سنة من ظهور المسيح ، وبعد ألف ومائة سنة من دخول الدولة الرومانية في المسيحية .

وأن أوروبا نفسها لم تعتنق روح المسيحية التي تنكر الحرب وتنكر مطامع الحياة الدنيا - في هذا يقول أحد الباحثين : إن تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل فنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبت روما وخضبت أمم أوروبا كلها والحروب الصليبية إنما أذكي المسيحيون أوارها . وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الإسلام تقاتل وتحارب وتحرق الدماء ، وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للإستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . دأفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، مسيحياتهم زائفة ، أم كانوا أدهياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ، أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يمتنع على المسيحية بها .

وقد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة حين وقف اللورد النبي مثل الحلفاء يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أنشأه الحرب الكبرى : اليوم إنتهت الحروب الصليبية .

( ٢ )

كان الهدف الأصيل لحملة لواء دراسة الأديان من قديمة ووثنية وأرضية إلى إثارة جو من الشبهات حول الأديان السماوية المنزلة ومحاولة لإظهار الأنبياء في صورة المصلحين أو التوابغ وتزييف موقفهم الحقيقي وصلتهم بالوحي والسما، ذلك لأن هذه الدراسة قد صدرت من منطلق مادي أساسي لا يعترف بوجود عالم الغيب الذي قرره الأديان السماوية وكشفت عنه .

وجل ماوجه إلى الأديان إنما دخل في حلبة الصراع بين المسيحية واليهودية وعندما يقول فولتير أورينان بأن الأديان مخالفة للإنسانية لأنها سببت الاضطهاد وسفك الدماء ، أو أنها - أى الأديان - مخالفة للعقل لأن منها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها إنما يقصدان ديناً معيناً وفكراً وتاريخاً مشبوهاً في الكتب وليس في حاجة إلى كثير من التوضيح .

ولاريب أن خصوم المسيحية كانوا من وراء هذه الحملات ليصلوا إلى القول بأن الفكرة الدينية من شأنها أن تحول دون الإحلاق إلى آفاق التحرر العقلي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي ، ولقد كانت مفاهيم المسيحية الغربية وتاريخ صراع الكنيسة مع العالم الغربي في ذهن أمثال ماركس وسارتر وفرويد وهم يكتبون جميعاً فلسفاتهم قفصلاً عن تفرصاتهم الواضحة كيهود وصهيونيون فانهم إنما كانوا يصعدون من واقع أوروبا وتاريخها وأن الذين حلوا لواء هذه الدعوات لم يضعوا الإسلام في حسابهم ، ولم يكونوا قد راجعوا مفاهيمه أو تاريخه ، لهم لم يعتبروا أن هناك ( عالم ) يدرس ويقن غير الغرب .

ولقد كان من الطبيعي أن يكون هدف هذه الحملة على الأديان عن طريق علم الأديان المقارن أن تصل إلى القول بأنه لا بد من بديل لهذه العقائد المرفوضة .

وأن يعرض هذا البديل عن أنه الحضارة نفسها أو العلم نفسه .

ومن هذا يبدو كيف أن دراسة الأديان في الفكر الغربي قد بعدت عن الإنصاف والحقبة ، بينما لم يفعل المسلمون مثل ذلك في دراساتهم .

ويشهد بذلك شاهد من أهله : يقول هاملتون حب :

أن العرب أكثر إنصافاً في دراسة الأديان ، فقد كان كتاب العرب يذكرهم المخالفين بكل حرية وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وطبقات الحكماء لابن القفطى وطبقات الأدباء لياقوت وفي الوافي بالوفيات للصفدى وفي تاريخ حكماء الإسلام لليبقي ، أمثلة واضحة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس وكانهم أبناء ملة واحدة .

ولقد كتب أبو الريحان البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، كأنه إذ كتب عن نحلة يوهيك انه هو أحد أبناء تلك النحلة لتألفه في وصف شعائرها .

## ( ٢ )

واجه الدين ، حملة ضخمة من التشكيك من خلال المفهوم المادى الخالص الذى طرحته حركة التنوير ، وقد حاولت هذه الفلسفات القول « بأن الدين ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها » (١) .

فذهبت بعض المذاهب إلى القول بأن الدين وسيلة وليس غاية في ذاته وأنه وسيلة توصل إلى غاية أهمها معرفة الله ، ومن هنا فهم يرون أن كل وسيلة توصل إلى معرفة الله يمكن أن تعتبر ديناً ، وقد جرت المحاولة لوضع « الفكر الحر » في مواجهة الدين ، من حيث أنه موصل إلى هذه الغاية فهو دين جديد .

(١) طه حسين من دور كايم .

ومن هذا المنطلق حاولت مقارنات الأديان أن تصل إلى هدف خطير :  
هو أن الدين هذا المفهوم ليس إلا علاقة بين الفرد وبين الله لا شأن له بالمجتمع  
مطلقاً . وأن المجتمع إنما يقوم على القوانين الوضعية .

ثم تصل هذه الدراسات إلى أبعادها حين تقول أن الأديان ليست شرائع  
ولكنها أعراف قديمة جرت عليها الأقوام<sup>(١)</sup> .

(١)

وتحاول دراسة مقارنة الأديان أن تجد مفاهيم الاغريق الوثنية التي جاء بها  
أفلاطون حين قال أن الأديان لم تمنح انتشار الشرور ولم تردع الخلق عن  
ارتكاب أنواع الموبقات . وأن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد .  
وأشار إلى دعوة سقراط في الفصل بين الأخلاق والدين التي قام به .

(٥)

وقد وجدت هذه الدعوة مغارضة شديدة من أصحاب الدراسات  
الموضوعية المجادة فقد أكد البحث أن أمة ما لا تخلو من الدين وإن خلت من  
العلم أو الفن وإن أى حضارة من الحضارات الكبرى كانت مرتبطة بدين وأن  
الحملة التي وجهت للأديان إنما قصد بها معارضة النظام الفرعي المسيحي من خصوصه  
الذين يطعمون في القضاء عليه ، ومن خصوم الأديان الذين يرون فيها عاملاً  
خطيراً يحاول دون تحقيق أهدافهم في الربا وإقامة الدولة العالمية التي لا تتحقق إلا  
بتدمير كل القيم الإنسانية ، وقد أشارت أبحاث ضافية إلى أن الدين هو إحدى  
ضرورات الإنسانية وأرسخ عند البشرية وأن بلوتارك في العصور القديمة أكد  
هذا حين قال : « من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار وبلا ثروة وبلا آداب وبلا

(٢) اسماعيل مظهر ( المصور - يونيو ١٩٢٩ ) .

( ١٨٢ - الأيديولوجيات والفلسفات )

مصادر ولكن لم ير إنسان قط مدنية بلا معبد أو لاتمارس العبادة ، ولم ير قط إنساناً خلواً من الدين . وقال الباحثون أن الدين طور من أطوار الزمن البشرى وأن الدين حاجة من حاجات النفس ، وقد عارض تويلبي نظرية الدين المقارن ودعا إلى إرجاع الحق المضمون للدين ، كمنقذ البشرية وكطريق للتحرر ، وقال أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقيام الدين مرة أخرى ، وإن إنقاذ الحضارة المعاصرة سيكون في يد الدين ، وأكد عدد من الباحثين الحقيقة التي تقول أن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغنى عنها أى مجتمع بشرى . وأن فكرة الدين متأصلة في نفوس البشر بحيث لم يقدّم مجتمع بشرى في العالم إلا وهو مشبع بفكرة الدين ، وقال ماكس مولر : إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها ، وقال بليامين كوفشتان : إن الدين من العوامل التي سيطرت على البشر وأن التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراضية . ومن المستحيل أن يتصور ماهية الإنسان دون أن يتبادر إلى ذهننا فكرة الدين .

وقد أكد علماء الاجتماع أن الدين من أهم القواعد التي قام عليها ببناء المجتمع البشرى ، وقال سوندر بلوم : في كتابه مختصر تاريخ الأديان : إنه لم يعثر في أى مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بكانتات عليا وإن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين إنما استندوا في دعوام إلى ملاحظات غير صحيحة ويقول كارو . إن من قواعد الدين الأصلية : الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وحاطها بعنايته وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى وأكد كثيرون ملاشاة فطرة التدين في الإنسان بل أكدوا أن هذا الميل سيأخذ في النمو رويداً رويداً . وإن فطرة التدين ستلازم الإنسان مادام له عقل يميز به بين القبح والجمال . ويقول أرنست رينان في كتابه تاريخ الأديان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نجهه وكل شيء نعدّه من ملاذ الحياة ونعيمها ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ،

ولكن يستحيل أن يتلاشى التدين بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يمحى الفكر الإنسانى فى المضائق .

(٦)

كما وضح أن الازمة الديلية التى مرت بها أوروبا والفكر العربى ومنها انطلقت إلى العالم كله تثير الشبهات إنما كان مصدرها اضطراب مفهوم الدين كما طرحته المسيحية الغربية مناقضاً للعقل معارضاً لمنطق الحياة، سائماً على الزهادة والروحانية الخالصة وإذ ذلك جاء من أكبر نتائج وتحدياته رد الفعل بالدعوة إلى المادية الخالصة وظهور ما أطلق عليه بالإنسانية والدعوة إلى الإيمان بالإنسان بدلاً من الإيمان بالله ثم خلق الصراع بين الدين والعلم وقد جاء ذلك كله استمداداً من أن المسيحية ليست إلا منهجاً من مناهج اللاهوت ، تقتصر على الروحانية الخالصة وأنها لم تقيم فى الأصل على نظام مجتمع ومن هنا فإن هذه الشبهات عندما نقلت إلى المسلمين كانت غريبة عليهم متعارضة مع مفاهيمهم ودافع دينهم وتاريخهم حتى يمكن أن نقول بصدق : إن كل ما وجه إلى الدين من حملات وما تعرضت له أبحاث الدين المقارن إنما هو موجه إلى الأديان التى عرفتها بيئة الغرب ، وأن هذا التمازض بين مفاهيم اليهودية التلودية والمسيحية الغربية هو تعارض أساسى بين المادية والروحانية وبين الربا والرهبانية . ومن ناحية أخرى فإن الفكر الدينى على النحو الذى عرفته أوروبا ( بكهنته وكنيسته وطقوسه ) لم يكن قادراً على إعطاء النفس البشرية متطلبها إلى الحضارة والنهضة ، وكذلك فإن أوروبا لم تستطع أن تمنحى قدماً إلا بعد أن تحررت من نفوذ هذا الدين وقيوده .

(٧)

ولا ريب أن كتاباً من الغرب كثير من عارضوا نظرية مقارنة الأديان ،

بما نحصل من أخطاء وأهواء . وقرروا : أن الأديان أساس الثقافة وأن كل ثقافة مشتركة بين الناس تتبع أول ما تنبع من عقائدهم الدينية . وأن للمسيحية هي الأساس الأول للثقافة الأوروبية بقدر ما كانت الهندوسية بالنسبة للثقافة الهندية<sup>(١)</sup> .

كما عارض الباحثون الفكرة التي طرحها مقارنة الأديان من أن الناس كانوا وثنيين في الأصل ثم عرفوا التوحيد .

كما سقطت نظرية تحليل انتشار الدين بالظروف المادية فقد سقطت نظريات المعارضين للدين الذين أعلنوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر أن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامة ذلك أن الدين لم يلبث أن كسب نفوذاً جديداً في مجالات كثيرة وأهمها في مجال العلم نفسه .

فقد هجر العلم الحديث أن يحل للناس مشاكلهم أو يرد على أسئلتهم الحائرة . وتبين أن العلم لم يزد على أن يكون دراسة لظواهر الأشياء ، وأنه لا بد لمعرفة الكون والله من مصدر آخر غير العلم : هو الدين . ولقد تبين أن العلم ليس هو التحدي القائم إزاء الدين ولكنها الفلسفة ، ذلك أن العلم استطاع أن يؤكد حقيقة الدين ولا ينفيها ، أما الفلسفات فهي التي طرحت مختلف المفاهيم التي واجهت الدين بالتشكيك وأوجدت ذلك التعارض والخصومة .

ولم تكن نظرية دارون هي التي زعزعت الأديان ولكن تفسيرها الذي قام به خلفاء دارون وكانوا يقصدون به هدفاً بعيداً .



(٨)

ولعل من أخطر ما واجه الدين نظريات التفسير المسمى للتاريخ وما تبناها من أمثال نظرية المادية الجدلية التي ترى أن الدين ليس إلا نظاماً خلقته الطبقات الظالمة، وقد غالى كارل ماركس في حملته على الديانة المسيحية زاعماً أنها هي التي بررت الرق والاستعباد. وقد شعر لينين بأن الدين أكثر الاعتقادات رسوخاً وأنه هو الرابطة التي تجمع بين كل الآراء والاعتقادات الأخرى فواجهه بقوة ثم هاجم الكنيسة الكاثوليكية لأنها كانت آلة بين القياصرة ولأنها قاومت الحركات الثورية أثناء الحرب الأهلية.

• • •

وقد أشار ارنولد توينبي في كتابه العادة والتغير: إلى صراع الأيدولوجيات للدين فقال: إن الدين جزء من الطبيعة البشرية. الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين من نوع ما، فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقفه في أوروبا بعد أن قامت ديمقراطيات بدلية تسمى المذاهب الفكرية أو الأيدولوجيات الفردية أو الرأسمالية أو الجماعية أو الشيوعية أو الوطنية أو القومية. إن الحرب التي تستمر بين الأيدولوجيات المعاصرة والأديان العليا السماوية هي أخطر بالنسبة لمستقبل البشرية من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية.

للشيوعية إصرار على العدالة الاجتماعية فيه تضحية بالحرية، والرأسمالية تضحيها بالعدالة في سبيل الفردية، لأن كل منهما يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر، وكلا النظريتين مادية، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخير وحده فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان صراعهما معاً، وكلتاهما في صراع مع الوطنية أو القومية.

إن نقطة ضعف الأيدولوجيات هي منافستها للأديان العليا على اكتساب ولا الجماهير وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان، فبعد أن حررتة الأديان من

عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى بطن المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة فضاله ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل . د لقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختبار . والإيدولوجيات لا تستطيع أن تنسب هذه الحقيقة لأنها لا تستطيع أن تحقق له الاعتناق الروحي الذي منحه إياه الأديان . وجدت الأديان لتحرر الإنسان من أسرار المجتمع وبصفة مباشرة أمام مسئولياته استطاعت الأديان أن تمنح معتقها هداية لا تستطيع أن تجارها فيها الإيدولوجيات الحديثة . لقد منحتنا الأطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخلق بالطموح ، منحه الراحة الروحية وحررته من سجون المجتمع !

د لاغنى للإنسان عن الدين ولن تستطيع أن الإيدولوجيات أن تعمل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون .

د انها قد تمنحنا لقمة الخبز ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي .

(٩)

إن دراسة الدين دراسة علمية صحيحة بعيداً عن أهواء الدعوات والحركات التي تقودها جماعات تدعو إلى الحكومة العالمية أو الصهيونية أو الإيدولوجية المادية أو التفسير الاقتصادي للتاريخ . هذه الدراسة من شأنها أن تكشف حقائق كثيرة : إنها تكشف أول ماتكشف إن في العقل البشري ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائماً الوحدة لا التنوع . ويرى علماء الاجتماع المحدثين عدم جواز بقاء مؤسسة تستند إلى الكذب والزيف لتدوم وقتاً طويلاً وأن تظل على حيوية عظمى وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن التحديات التي تواجه الدين في العالم المعاصر : إنما تمثل في موجتين كبيرتين (١) :

(الأولى) المادية التي لا ترى في الدين إلا تخلصاً من الواقع ولجوءاً إلى التحذيرات الروحية التي أبرز ما فيها أنها توجه السلوك الإنساني توجيهاً سليماً إزاء مشاكل الحياة.

(الثاني) موجة التحليل من القيم الدينية التي بدأت في أوروبا الغربية في القرن الماضي وتزعجها اليوم الحضارة الأمريكية.

والموجتان تأخذان نظرية «التفسير المادي للتاريخ» أساساً لها وتضيف إليها عنصراً من أخطر العناصر في السلوك الإنساني وهي تركيز النشاط الفكري والنفسي في حرية الغريزة والأهواء.

### (١٠)

إن أصدق نظرية في مقارنة الأديان تقوم على الفصل بين الأديان السماوية والأديان الوضعية الأرضية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى : النظر إلى مقدرة هذه الأديان السماوية في المحافظة على قيمها الأساسية خلال التاريخ أو عجزها عن ذلك ، وتقلب الأهواء عليها .

ولقد ثبت أن اليهودية دين أمة وقوم وأن المسيحية آخر أديان اليهود وأن المسيح آخر أنبيائهم ، وأن تعديلاً كثيراً دخل على الدين الذي أنزل على موسى والدين الذي أنزل على المسيح ، أما الإسلام فقد احتفظ بقدرته القائمة على سلامة تعاليمه وكتابه .

فضلاً عن أن الإسلام تميز بأنه الدين الخاتم وأنه دين البشرية كلها وأنه جمع بين العقيدة والشريعة والأخلاق وأنه شكل مجتمعه من اللبنة الأولى وأنه جعل التوحيد حجر البناء الأول وأنه هضامة الدين الحق الذي أرسل الله به الأنبياء والرسل منذ فجر البشرية وأنه قام منذ اليوم الأول في بناء منهج حياة وأنه هو الذي دفع المسلمين إلى العلم فكان مصدر المنهج العلمي التجريبي ومن

هنا نشد استطلاع هذا المفهوم والمطلق والتاريخ أن يضادى كل ما وجه إلى  
الاديان من نقد وما أصلها من انحراف فقد سائر الفطرة وأقام من الالتزام  
الاخلاق أساساً لمنطلقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وقد أضح  
الإسلام للعقل ميلاً ، وأقام للبرهان حجة وجعل التفكير فريضة ، وبذلك  
عجز أمثال فولتير أن يصفه بأنه كان مخالفاً للإنسانية أو مجافياً للعقل ، كما كان في  
واقعه معارضاً لنظرية الفصل بين الدين والمجتمع . كما انتفت عنه قضية الصراع  
بين الدين والعلم وأصبح عسيراً أن تطبق نظرية نقد الأديان ومنهاج المقارنة  
بينها على الإسلام .

• • •

ولقد عجزت أى نظرية في مقارنات الأديان أن تضع الإسلام في موضع  
المقارنة مع الأديان التي سبقت للاختلاف الواضح بين واقعها وأصلها وبين  
ما احتفظ به الإسلام من قدرة على تماسك الأصل بالواقع خلال أربعة عشر  
قرناً دون تحريف وبغير أن يصب النص القرآني أدنى تبديل .

### (١١)

من أكبر القضايا التي أثارها دعاة المنهج المادى في الدين المقارن : مسألة  
الخلافا بين الدين والعلم والواقع أن خلافاً ما لم يقع بين الدين والعلم وإنما  
وقع الخلافا بين اللاهوت والعلم .

يقول إسماعيل مظهر : أن الصراع بين الدين والعلم مستحيل فطرة  
واجتماعاً . وإنما الصراع بين اللاهوت والعلم :

تلك الفجائع التي يرونها التاريخ خلال القرون الوسطى ، ما سبب محاكم  
التفتيش لبحرق وقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين .

« لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت في القرون  
الوسطى بين أحضان النصرانية فإنك لا تعلم في تاريخ الأديان كلها على  
تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصراني في قيامها في وجه العلم أزماناً  
طوالاً بل قروناً متعاقبة ..

« والسبب في هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة في أن العلم لا يجب  
مطلقاً أن يغير بشيء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الأسفار المقدسة والمثون  
ورسائل الحواريين .. »

وقد أشار بعض الباحثين إلى مدى الخطأ الذي وقع فيه الكنيسة بالنسبة  
لأصل الإنسان وتقييمها بالقصة الواردة في التوراة .

• • •

ومن الحق أن يقال أن هناك نزاعاً نشأ بين الدين والعلم في أوروبا ،  
أما بين الدين الذي هو الإسلام فإن أمراً من ذلك لم يحدث وفي هذا يقول  
الشيخ عبد العزيز جاديش :

[إذا تحدثوا عن تاريخ النزاع بين العلم والدين فياخذونه من غير تلويل مختلف  
وإذا ذكروا سينات وضع السلطة في أيدي رجال الدين قائما يتكلمون عن  
محيط غير محيطنا وماض غير ماضينا ] .

ولقد يقول الغربيون بالخلاف بين الدين والعلم أمما لمسلمون فلا يقولون  
بذلك :

لعلماء العالم من أمثال دكتور على مصطفى عبد الرازق يقول :  
أن العلم يعنى بالمحقائق الموضوعية وأن الدين يعنى بالقيم الروحية ولكن

طالب العلم في ذاته مبنى على قيمة روحية هي حب الحق ، فطالب العلم طالب حقيقى ، ولذلك كان الدين ( أى الإسلام ) مشجعاً على طلب العلم ودافعا إليه . ولذلك كان الواجب على علماء الدين ورجال العلم أن يتعاونوا ويتناصروا في خدمة الحق وفي خدمة الفضيلة فان في تعاونهم وتناصرهم رخاء للبشر وسعادتهم .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لست من القائلين بأن العلم كان يوماً من الأيام يناهض الدين ، ولم يحض الدين على معاداة العلم بل على العكس أن الإسلام يدهو إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتساع الذهنى .

العلم والدين اليوم يتكاملان وأستطيع القول بأن العلم في الأيام المقبلة سينظرونحو الدين خطوات جريئة .

## ( ١٢ )

لأذن فلماذا تأجيج هذا الصراع وتأريثه الدائم :  
« إن الخشية من الأديان ظهرت في دساتير الأمم الحديثة في الغرب مهدفين :  
( الأول ) هدف من وراء اليهود الذين كانوا يرون أن النص على الدين سيكون المسيحية ومن هنا سيكونون في الدرجة الثانية .

( الثانى ) كان الدين نفسه قد فقد مركزه الضخم بعد الحملات الضخمة التى وجهت إليه وبعد موافقه التاريخية في تأييد الملوك والأمراء والإقطاع .  
فضلا عن موقفه من العلم .

« لذلك حرص الأوروبيون على أبعاد الدين دفعا للحرب التى استمرت طويلا والصراع الدينى الذى وقع بين المذاهب الدينية . وقد وجهت إلى المسيحية الغربية شبهات كثيرة منها أنها لا تنفى بحاجة النفس الإنسانية ولا تحقق غايلتها وأنها تحرم الكثير وتدهو إلى الزهد .

ولكن هذا كله يجد مواجهة صحيحة ويختلف اختلافاً بينا إذا عرّض  
بالنسبة للعالم الإسلامي أو بالنسبة للسلمين والعرب أو بالنسبة للإسلام ،  
وموقفه من العلم أو من وحدة الأمم أو من النهضة .

ولكن محاولة تطبيق مثل القرب على الإسلام إنما هو هدف أساسي  
من أهداف الاستعمار والصهيونية وهو إبعاد الإسلام عن المجتمع وإبعاده  
عن السياسة وإبعاده عن القانون لأنه أداة مقاومة ضخمة وسبيل إلى الوحدة  
الجامعة .

## [ خاتمة ]

### نظرة عامة إلى موقف الإسلام من الفكر البشرى

إن هدف هذه المحاولة عبر سببانية صقحة كاملة هو تقرير حقيقة واحدة هي أن الإسلام له ذاتية الخاصة التي لا تخاكم إلى أى فلسفات أو مناهج الفكر البشرى .

وإن الإسلام ليس ديناً كسائر الأديان ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الإعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق فقد خلق الإسلام العرب خلقاً جديداً ودفعهم إلى الآفاق يحملون رسالته .

وإن النظر الفلسفى الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامى ولا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوعى .

وإن الفلسفة ليست قرينة الوعى ولا مناظرة له فهى لا تزيد عن كونها استخداما للعقل .

كذلك فإن الإسلام جاء حاكماً على الناس والمدنيات والأمم ولم يحىء بحسب ما بهم وليس الإسلام مطية ذلولاً لتبرير النظم والأيدولوجيات ، فضلاً عن أن الإسلام ليس شيئاً يؤخذ منه ويترك بما يبرر هذا المنهج أو ذاك ، ولكنه نظام متكامل له مقوماته المستقلة التي تقضض للأهواء والأغراض ، ولقد جنب مفهوم التوحيد فى الإسلام المعارف الإسلامية من الانقسام إلى دينى وهنقى .

وسمة الإسلام الواضحة هي الارتباط العضوى بين العقيدة والعمل ، وليس



الدين هو مجرد المعرفة بل هو التطبيق أيضاً . ذلك أنه لا فاصل بين العقيدة وبين أداء المسلم لها . والربط قائم دائماً بين الإسلام والإيمان دون الفعل بينهما . ممثلاً في التوحيد بين السلوك وهو المظهر الخارجي والإيمان وهو المفهوم المستكن في أحماق النفس :

أى الربط بين التصديق بالقلب وحمل الجوارح .

وأن نظرية فصل الدين عن الحياة وعن الفكر في الغرب على النحو الذى يوصف بالملائية : هو أمر له ظروفه الخاصة فى مجتمع الغرب ، نتيجة مواقف تاريخية وأغمار فقها الدين هناك من التقدم والعلم .

( ثانياً ) إن الدين ظاهرة اجتماعية أصيلة رافقت البشرية منذ أول نشأتها فلم تخل جماعة من دين ، ولذلك فإن القول بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد هو افتراض باطل لا توجد من الأدلة الصحيحة ما يؤيده ، بينما توجد الأدلة التاريخية والعلمية ومصادر الوحي ما يؤكد أن الدين فطرة بدأت مع الإنسان وأن البشرية عرفت التوحيد ثم انخرقت عنه .

فالحقيقة الأولى فى الدين : هى التوحيد وليس الوثنية ، هى عبادة الله الحق وليس عبادة الأصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة فى القرآن ، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث الأنثروبولوجية ، بحيث لم يعد معها مجال لأى شبهة أو إثارة تؤيد تلك النظرية الزائفة التى رددتها أبحاث اليهودية التلويديّة هذه الحقيقة تبطل كل ما أذاعه خصوم الأديان من القول بتدرج البشر من معتق قوامه : السحر والكهانة والتنجيم والتمائم والطقوس إلى عقيدة التوحيد ذلك أن الإنسان بالقطع واليقين بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول البشر هو أول من حمل رسالة التوحيد إلى الناس .

أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم فلك هى تحولات الإنسان من

التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق .

( ثالثاً ) لقد جاء الإسلام بالحقيقة الكبرى الناصحة فقرر أن الإله واحد ونفى كل أنواع التعدد ، وقرر أنه لا يشبهه شيء من خلقه ولا يسعه شيء من ملكه . وقرر أنه متصف بالكمالات كلها منزّه عن النقائص كلها ، وقرر أن العقل الإنساني يستطيع إدراكه ومعرفة كنه ذاته وحقيقة صفاته .

ولقد تناول القرآن كل الشبهات التي لصقت بمعنى الألوهية من اردان الأمم السابقة فكشف عن زيفها ونقض خطأها وانحرافها ، وخلص إلى ذلك من طريق علمي قائم على الحجة والبرهان ، ومتصل بالفطرة البشرية الصافية ، ثم تناول صلة الإنسان بالله وكيف أن الإنسان مريبوب الله ، وأن الله مع الناس أينما كانوا وأنه هو الذي يهديهم الطريق إلى الحق ، ويقبل توبتهم إذا انصرفوا عنه .

لقد جاء القرآن مصححاً لجميع الشبهات وأنواع البلبلة والزيف الذي وقعت فيه الديانات المنحرفة والفلسفات الخاطئة سواء ما اتصل بما كان قبل الاسلام وما تجدد منه بعد الاسلام .

( رابعاً ) أعلن القرآن فكرة الخلق من العدم وأن الله خالق وأنه خلق هذه الأكوان كلها من لا شيء ، وأوجد هذا العالم كله من العدم وبهذا أنكر القرآن فكرة قدم المادة وقدم العوالم . وكما أعلن بدأ الزمان فقد أعلن نهايته ، وبذا أنكر سرمدية المادة وعدم فئاتها .

وإذا كان القرآن قد أنكر قدم المادة فقد أعلن حدوثها وحدثها (١) العالم . وهنا ينتقل القرآن من الميتافيزيقا إلى الطبيعة ، فقد خلق الله الأرض وموج البحر وأقام الجبال وخلق هذا كله ليكون إطاراً لحياة الإنسان الذي خلقه الله ليكون مستخلفاً في الأرض والمثال الأكبر للقدرة التي لا تحد .

(١) رجاء في هذا المبحث الدكتور النشار وهذه لصوماً كاملة .

وقد طلب القرآن من المؤمنين أن لا يتجاوزوا حقائقه وأن حقائقه كافية بذاتها لكي تمنح النفس الانسانية الحقيقة الكبرى التي لا مرد لها، والتي هي غاية كل شيء. وهي الحق تبارك وتعالى .

وقدم القرآن الحقائق التي لا مجال للعقل أن يرتادها أو يصل إليها وترك للعقل الوصول إلى الحقائق التي تتصل بالمادة والتجربة .

ولقد أعلن القرآن وحدة الله وعليته ، مقابلاً لكل تفكير سابق عن فكرة الله ، وزيف كل تصور لله سبحانه من تصورات الفلاسفة سواء أكان صانعاً أو محركاً .

وخلق الله آدم من مادة الحياة ( الطين ) وقد وضع فيه الفضيلة والخطيئة وأنزله الأرض لكي يقيم الحياة .

خامساً : ورسم القرآن للفكر الانساني أبعاد النيب مما لا يستطيع العقل أن يصل إليه وقدم منهاجاً كاملاً فيما يتعلق بالله والكون والانسان .

« فانه هو الخالق الحق القادر الحكيم الذي ليس كمثل شيء لا تدركه الابصار وهو مبدع بالمعنى الحقيقي ، ليس شيئاً مما يتصورون عما تقول الفلاسفة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« فليس الله صورة مفارقة ولا هو محرك أول غير متحرك وليس مثلاً بين مثل يشمل على عالم وراء السماوات من غير أن يكون له دور حقيقي في إيجاد هذا العالم وتدبيره ، كما يؤخذ من مذهب أفلاطون ، وليس روحاً أو قوة سارية في الكون المادى كما يزعم الفلاسفة ، بل هو صانع مدير مزمه عن صفات هذه الأشياء الحادثة المتغيرة ، متعال عن تشبيهات المشبهين وتجسيد المجسدين من أهل المذاهب الأخرى . والعالم : صنع « حادث » في ذاته وفي نظامه وهو مظهر للحكمة والرحمة وهو الدليل القريب الظاهر على وجود الله وهو على عظمته عالم صغير ورأه عوالم كبيرة .

والإنسان : أعظم الكائنات وأرقاها من حيث المرتبة وإحتياج صفات الكمال الممكنة للمخلوقات ، فيه نعمة من عائلته ، وهو كائن كريم له في الدنيا رسالة تقترب على ماله من عقل وقذرة وإختيار وإدراك لمعنى الحق والخير والأمر والنهي وليس بالكائن الساقط أو المعاقب ، ولا هو كائن عارض في هذا الكون ، بل هو محور الكون المادى وخليفة في هذه الأرض ليعمرها باسم الله مهتدياً بإرشاده على أساس العلم بالحق وإفاضة الخير والبر وحياته ممتدة قبل هذه الدنيا وبعدها ، وهو هنا يؤدى رسالة ويحمل أمانة ويجاهد ويكافح ، يخضع الطبيعة ويجاهد نفسه ، في داخل خطة الخالق الحكيم ، ثم ينتقل إلى عالم آخر : هو عالم الحساب والجزاء بعد عالم الاختبار والابتلاء<sup>(١)</sup>.

سادساً : كذلك قرر الإسلام « النبوة » والوحي وجعلها من الحقائق الثابتة ، ولقد ثبت أن العلم علان : علم لا تستطيع الإنسان أن يصل إليه بقدراته الذاتية ولكن هذه القدرات تستطيع أن تفهمه وتؤمن به وهو عالم الغيب بكل ما يتصل به ولذلك كان الوحي وكانت النبوة وكانت الكتب السماوية دليلاً على ذلك العلم ، وفي نفس الوقت أتاح الله للإنسان أن يعمل بعقله في مجال اكتناه أسرار الأرض والبحث عن خيراتها وتمارها من أجل عمرانها .

ولذلك فقد تأكد أن العقل غير كاف وأنه لابد من الحاجة إلى النبي ، الذي يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمفرقه مثل المعاد والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التي تدرك بالعقل : حسناتها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحي للبشرية<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الإنسان وسيظل في حاجة إلى هداية الله فقد جاءت النبوة والرسالة لتضع دائماً على الطريق الصحيح كلما انحرف ، ولتوجه طاقاته إلى الخير

(١) بصرف من نص لذكور محمد عبد الهادي أبو ريد .

(٢) عن نص للأستاذ محمد الجنبوب .

فهو عاجز بمفرده عن الأمن وعن الهداية وفي حاجة دائماً إلى هذه الحماية والتوجيه حتى يستطيع أن يلتزم حدود الله وضوابطه .

سابعاً : من أكبر مقررات الاسلام التي تمد فيصلاً عميقاً بين فكر وفكر : حرية الإرادة والمسئولية الفردية .

وسمفهوم هذه العقيدة الأساسية في بناء الفكر الإسلامى أن الله لم يجعل الانسان مكرها على فعل شئ . ولا ترك شئ . ولكنه أراد سببانه أن يكون عاقلاً ومنحه تمييزاً واختياراً وعقلاً مدركاً جملة به مكلفاً بمختاراً بالتكاليف الشرعية . أى جملة حراً يفعل ما يختار وهذه الحرية قد أرادها الله له ومنحها له فهي من إرادة الله فلا يأتي العبد شيئاً ولا يذره إلا بعلم الله وقدره .

وأن معنى تقدير الله للأشياء ، إنما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود وهو ربط أجزاء الكون ربطاً محكماً دقيقاً لانتفاوت فيه بحيث لا يصطدم فيه شئ بآخر ولا يتناقض جرم مع غيره .

فالمسلم يؤمن بأن له إرادة حرة وأن له مسئولية على تصرفاته وله حساب وجواز في اليوم الآخر بعد البعث والنشور .

ومازال عقيدة القضاء والقدر من أعظم معطيات الاسلام وقد كانت تستغل مصدر الاتصارات العقلية التي حققها المسلمون خلال تاريخهم الطويل .

ثامناً : جاء الاسلام بفكرة رئيسية هي فكرة : الحق ، في كل شئ . في التوحيد والمعرفة والكون والحكم على الأشياء ، ولقد أقام الاسلام منهج المعرفة على أساس الحق ، معارضاً للجمود والتقليد : « أن الظن لا يغني عن الحق شيئاً » ، « قل هاتوا برهانكم » كما يجارب الهوى ويطالب بالدليل والبرهان ويقرر مسئولية الانسان عن وسائل المعرفة التي وهبها الله له .

[ولانتف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولاً].

تاسعاً : كان موقف الاسلام بالنسبة للإنسان غاية في السلامة والانصاف والفهم الدقيق وأبرز معالم هذا الفهم الدقيق ترابط الروح والمادة فيه : يقول ليوبولد فابيس ( محمد أسد ) « أن الاسلام من دون الأديان السامية جميعاً يعتبر روح الانسان ناحية واحدة من شخصيته وليس ظاهرة مستقلة : وبالتالي فإن روح الانسان الروحي في نظر الاسلام ، مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى ، أن الدوافع الجسدية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أى خطيئة أولى ، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الاسلام ، بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان فيجب أن يتقبلها أو يفيد منها بحكمه هل أنها كذلك ، ومن هنا فإن مشكلة الانسان ليست في كيف يكبت مطالب جسمه ، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترهنة وصالحة . أن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الانسانية ، إنما يوجد في النظرة الاسلامية القائلة بأن الانسان مفسود على الخير . بخلاف الفكرة المسيحية التي تقول بأن الانسان يولد مكسواً بالخطيئة الأولى أو العقيدة الهندوسية التي تقول بأنه منحنط ونجس أصلاً ويجب أن يتغير عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو السكال . بخلاف ذلك كله يقول القرآن الكريم « ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، أى في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا من طريق السلوك السيء من بعد » ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا » .

عاشراً : ومن هنا فإن الانطوائية والتشاؤم والرهانية وفكرة الحروب من الحياة لا تنجد لها مكاناً في مفاهيم الاسلام لأنها تتعارض مع السباحة والانتفاخ الذي يتسم به ، فضلاً عن إعترافه الواضح بالفرائز ومنطلقاتها وإن دعا إلى ضبطها وتحريرها من الفساد .

حادى عشر : من وجوه الاختلاف والتباين بين الاسلام والأديان ،  
مسألة الرموز .

فالرموز فى الأديان وهى الصور والتماثيل والأشكال والأدوات التى ترمز  
للى جوانب رئيسية من العقيدة نفسها كالصليب فى المسيحية ونجمة داود فى  
اليهودية والصور وغيرها .

فقد خلا الاسلام من هذه الرموز خلواً تاماً ، لأن طبيعته كمعقيدة قائمة  
على التوحيد المطلق والتنزيه السكامل لله سبحانه وتعالى عن أى تصوير  
أو تشكيل أو رمز مادى فإذا وجدت رموز فى الملابس أو الرايات فإنها ليست  
من الاسلام ودخيلة عليه .

ثانى عشر : لا يقر الاسلام مفهوم البطولة القائم على الوراثة أو الجنس  
أو اللون ، وإنما يجعلها مرتبطة بالعقيدة والفكر الاسلامى هو الذى أعاد تشكيل  
النفس الاسلامية وهو صاحب الأثر العميق فى بناء بطولة عمر وعثمان وعلى  
وعالده ، نتيجة التحول الخطير الذى أدخله الاسلام إلى عقولهم وقلوبهم  
وأنفسهم وبما غير من الموروث والطابع وبما صاغها من جديد . أن منهج  
لومبروز فى تكوين البطل وإعتماده على الموروثات هو أشبه بالتفسير المادى  
للبطولة لأنه يعتمد على التركيبات المادية فى الانسان ، وليس على روحه  
وفكره .

ثالث عشر : الفكر الاسلامى المنبثق من الاسلام ، ليس هو الفكر الغربى الحديث  
ولا الفكر الشرقى الفئوسى وهو ليس مركباً للفكرين وليس حلقة اتصال ،  
بينهما بل هو فكر مستقل له طبيعته الذاتية الخالصة المتحررة من الوثنية  
والثنائية والتعدد .

وأن أهم ما يميز به الاسلام هو أنه لا يفصل بين الدين والدينوى ، ولقد  
هدم الاسلام بحقيقة واقعة وتاريخية الاقتراض الذى يقول بأن الدين يدفع

الإنسان بعيداً عن النضال والعمل، فذلك أن الإسلام كان عاملاً هاماً في بناء الحضارة الإنسانية وفي حركات التحرر والتقدم .

رابع عشر : كان للإسلام أثر بعيد المدى في الفكر الغربي كله فقد فتح الطريق إلى عديد من خطوات التحرر والأصالة . فالإسلام هو الذي أعطى لورث وكالفن مفاهيمهما في تحرير الفكر المسيحي الغربي وهو الذي كان مصدر الحملة على عبادة الصور والطقوس في الكنائس وهو الذي أعطى الغرب مفاهيم الفروسية ومعاني المروءة والنخوة ونصرة الضعيف ونجدة الملهوف وكان له أثره في ظهور أدب التروبادور - والإسلام هو الذي قدم للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي صدرت عنه الحضارة الغربية كما قدم منهج المعرفة المتكامل الجالغ بين الروح والمادة .

وقد رفض الإسلام الخرافات الوثنية وتعدد الآلهة وطلب الإباحة في التراث اليوناني كما حرر الفكر الأوروبي من وثنية الفكر الإغريقي وقد كان أبليغ كفاتح المسلمين في تاريخهم كله هو : كفاحهم من أجل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الثقافات الوافدة والعقليات الغربية سواء أكانت يونانية أو مجوسية أو غربية .

خامس عشر : من أبرز أوجه الخلاف بين الإسلام والأديان أن الإسلام هو الذي صنع المجتمع الإسلامي بينما احتوت المجتمعات الأخرى القائمة فعلاً أديانها التي إعتنقتها والإسلام لا يعترف بطبقة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين لها نظام خاص أو حقوق معينة أو نفوذ من أي نوع ولكن هناك علماء متخصصون في العلوم والعقائد .

سادس عشر : عقيدة البعث والجزاء في الإسلام ركن أساسي ومنطلق أساسي للأخلاق والمسئولية الفردية . والبعث والجزاء في الإسلام جوهري



وروحاني معاً متميزاً بذلك عما في عقائد كثيرة من تنكر البعث حملة أو تجعله روحانياً صرفاً .

وتعد عقيدة البعث والجواز الركن الثاني للإسلام بعد التوحيد وهي نبراس العمل في الحياة كلها .

سابع عشر : أن الإسلام لا يحاكم بواقع المسلمين ولا يحاكم بفترة الضعف التي مرت به ، لأن المسلمين في هذه الفترة كانوا قد انفصلوا عن جوهر فكرهم .

والإسلام عقيدة وتاريخ ، أما العقيدة فهي الأصول الثابتة التي يتحاكم إليها ماضيهم وحاضرهم ، أما التاريخ فإنه قد سار خطوات مع العقيدة ثم انحرف عنها فهو لا يعتبر مصدراً من مصادر الحكم على العقيدة نفسها ، بل تعتبر العقيدة حكماً على تاريخ المسلمين ، إتصالاً بها في مجال التقدم أو الانفصال عنها في مجال التخلف .

ثامن عشر : أن الإسلام لا يقف في وجه العلم ولا تقدم الحضارة حين يقف عند حدوده وضوابطه التي ترفض التطور فيها ، إنما يقف الإسلام أمام إنجاز العلم إلى أعمال الإباداة ، ويدعو إلى تحرك العلم في إطار الأخلاق . ويوجهه إلى نفع البشرية وحل مشاكلها وشفاء أمراضها وتحويل الخبرات السكائمة إلى رزق ييسر الحياة ولا يقف الإسلام أمام الحضارة بوصفها مدنية ولكن يقف أمام جوانبها الهدامة كالخمر والربا واستعباد البشر والزنا والتحرر الكامل من قيم الأخلاق وضوابط المجتمعات .

## ١ - مصادر البحث

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : الجامع الصحيح للإمام البخارى .

## ٢ - المراجع العامة

منهاج السنة لابن تيمية

المحلى لابن حزم

تاريخ الأمم والملوك للبطل

فتوح البلدان للبلاذرى

مقدمة ابن خلدون

المواصم من القواصم للقاضى بن العربى

الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

رسالة التوحيد للشيخ محمد هبده

إحياء علوم الدين للغزالى

## ٣ - مراجع

دائرة المعارف الإسلامية

الإسلام ورسوله بلغة العصر

تاريخ المسادية

محمد فريد وجدى

أحمد حسين

لانجمة

د. محمد عبد الهادى أبو ريده : بحث عن الاسلام والاديان (مجلة عالم الفكر)

د. محمد أحمد الغمراوى : العلم والدين

محمد قطب : الانسان بين المادية والروحية

جوان كرماس : خرافات عن الاجناس

عبد الحميد العبادى : الاسلام والمشكلة العنصرية

أنور الجندى : القيم الاساسية للفكر الاسلامى

جون كارل فلوجل : الانسان والاخلاق والمجتمع

د. صبرى جرجس : التراث الفرويدى

د. توفيق الطويل : المثل الأعلى فى فلسفة الاخلاق

محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية

د. أحمد شلبى : مقارنات الاديان : اليهودية : المسيحية

ول ديورانت : قصة الحضارة

د. محمد وصفى : الارتباط الزمنى

د. عبد الرحمن مرجبا : من الفلسفة اليونانية

د. عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية

أبو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر

أحمد أمين : ضحى الاسلام

د. هلى سالى الشار : مناهج البحث عن مفكرى الاسلام

د. يوسف العش : روح الحضارة الاسلامية

محمد عبد الله هنان : الحركات الهدامة

محب الدين الخطيب : الرعيل الاول

السكبي : كتاب الاصنام

- أبو الحسن الخدوي : ماذا خسر العالم  
د. اسماعيل راجي الفاروق : الملل المعاصرة في الدين اليهودي  
ابن الجوزي : نقد العلم والعلماء  
د. محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب  
عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الاسلام  
الشهرستاني : الملل والنحل  
الموردي : ترجمان القرآن  
حسن البنا : الرسائل الجامعة  
محمد المبارك : المجتمع الإسلامي  
انور الجندي : مقدمات العلوم والمناهج

## آفاق البحث

٣	مدخل إلى البحث ..
١٣	الباب الأول : الفلسفة المادية
١٥	الفصل الأول : الفلسفة المادية
٢٤	الفصل الثاني : العلم والعلمانية
٣١	الفصل الثالث : العلمانية
٤٠	ملحق : ضوء من الإسلام على العالم والفلسفة المادية
٤٥	الباب الثاني : فلسفة التاريخ
٤٧	الفصل الأول : التفسير المادي للتاريخ
٥٤	الفصل الثاني : التفسير الليبرالي للتاريخ
٦٥	الفصل الثالث : الفلسفة البرجوازية
٦٧	الباب الثالث : الفلسفة المنصرية
٦٩	الفصل الأول : فلسفة الاستعمار
٧٣	الفصل الثاني : فلسفة الأجناس ( نظرية المنصرية )
٩٧	(٢) معارضة عمو الجنس غير الأبيض
١٠٤	(٣) الإسلام ووحدة الجنس البشري
١١٢	ملحق : ضوء من الإسلام
١١٥	الباب الرابع : الفلسفة الاجتماعية
	الفصل الأول : نظرية النفس والجنس البشري ( النظرية
١١٧	الجنسية لفرويد )
١٢٦	(٢) مصادر فرويد
١٣٩	(٣) نظرية الكظم في الإسلام
١٤٤	الفصل الثاني : نظرية النسبية الأخلاقية
١٥٤	(٢) الأخلاق في الإسلام
١٦٤	الفصل الثالث : الفلسفة الاجتماعية
١٦٨	(٢) النهضة للمرأة في الفكر الإسلامي

١٧٩	•	•	•	فلسفة الأدب المكشوف	:	الفصل الرابع
١٨٧	•	•	•	فلسفة الوجودية	:	الفصل الخامس
٢٠٠	•	•	•	الفلسفة الهيكلية	:	الفصل السادس
٢١٥	•	•	•	فلسفة وحدة الحضارة	:	الفصل السابع
٢٢٩	•	•	•	الفلسفة الروحية الحديثة	:	الفصل الثامن
٢٣٦	•	•	•	التيوصوفية	:	الفصل التاسع
٢٤٠	•	•	•	الفلسفة البهائية	:	الفصل العاشر
٢٤٦	•	•	•	فلسفة القربية الغربية	:	الفصل الحادي عشر
٢٥٢	•	•	•	•	:	القربية في مفهوم الإسلام
٢٥٩	•	•	•	الحق : ضوء من الإسلام	:	
٢٦٧	•	•	•	مقارنات الأديان والدين المقارن	:	الباب الخامس
٢٦٩	•	•	•	مقارنات الأديان	:	
٢٨٤	•	•	•	خاتمة : نظرة عامة إلى موقف الإسلام من الفكر البشري	:	
٢٩٤	•	•	•	•	:	مصادر البحث والمراجع العامة
٢٩٢	•	•	•	•	:	آفاق البحث